

أطلق النار على الجميع

يوسف الياس عبدالله القرعاني



أطلق النار على الجميع

يوسف الياس عبدالله القرعاني

2026

"أطلق النار على الجميع" قصة حقيقية وقعت بعض أحداثها في معسكر التدريب الجامعي في صيف عام 1998، إضافة إلى أحداث أخرى امتدت لفترة طويلة بين عامي 1997 و2024. تضم الرواية الكثير من الأحداث التي تتدرج ما بين الإثارة والرعب والسخرية والجد والأوقات الصعبة التي مرت بها شخصيات الرواية، لا سيما الظروف الأمنية المتدهورة في سوريا بين عامي 2011 و2024.

الفصل الأول

صيف 1997

التخرج من الثانوية

الشدائد تصنع الرجال ... وتصل مهاراتهم وتعلمهم دروسا قيمة لما يستقبلون من حياتهم. لقد نزلت بعض هذه الشدائد تنترا على مجموعة من طلاب المرحلة الثانوية مع نهاية القرن الماضي في عام 1997، إذ وجدوا أنفسهم في قلب عاصفة وتجربة لا تُنسى جمعت بين قسوة الحياة وشظف العيش من جهة، وضغوط التعليم ومتطلباته الكثيرة من جهة أخرى. كانت امتحانات نهاية العام آنذاك أشبه ببوابة عبور إلى المجهول ... مليئة بالتحديات وكان على الطلاب الإجابة على سلسلة من الأسئلة الصعبة التي أعدت ليس فقط لاختبار قوة ذاكرتهم، ولكن أيضا مدى استيعابهم للمواد المختلفة التي درسوها خلال العام.

لم تترك تلك الطريقة المحكمة للاختبارات إلا مجالا يسيرا للخطأ ولم تترك أي مجال للتحضير السطحي الذي لا يطلع على خفايا الكتب وما تحوي بطونها. كان على الطلاب أن يتعلموا ويتقنوا كل جانب من جوانب كتبهم الدراسية بدقة. خلافا لبعض الأنظمة الدراسية المعمول بها في بعض الدول والتي تركز على فصول أو جوانب معينة، تطلبت امتحانات الثانوية العامة السورية في تلك الأيام معرفة شاملة وكان يجب على الطلاب أن يكونوا على دراية جيدة بكل التفاصيل التي تعلموها طوال العام الدراسي.

هذه النهج الشمولي يعني أن النجاح كان حليفا فقط لمن درس واجتهد واستوعب كتبه من الغلاف إلى الغلاف. إضافة إلى تلك الصعوبات، كان نظام احتساب الدرجات معضلة أخرى إذ لم يأخذ بعين الاعتبار الدرجات السابقة التي تم الحصول عليها في الفصل الدراسي السابق أو أي من الفصول الأخرى، مما تسبب بمزيد من الضغط على الطلاب في الامتحانات النهائية.

الإنجازات السابقة لم تقدم أي ميزة أو فائدة؛ لأن الامتحانات النهائية كانت هي المحدد النهائي والوحيد لمصيرهم العلمي والأكاديمي. لذلك كان على الطلاب بذل ما بوسعهم من جهود والحفاظ على قدرة عالية من التركيز خلال فترة التحضير حتى يتسنى لهم الحصول على الدرجات المطلوبة للنجاح.

صعوبة أسئلة الاختبارات كانت تحديا آخر لأن وزارة التربية كانت قد أعدتها بطريقة معينة لاختبار مستوى التفكير والتحليل بين الطلاب والتأكد من أنهم لم يعتمدوا على الحفظ فقط.

كان على الطلاب التفكير والتأمل والتحليل بعناية قبل كتابة الإجابات؛ لأنه من غير المرجح أن تسفر الإجابات المتسريعة أو السطحية عن نتائج إيجابية، وقد عمل من وضع تلك الاختبارات عمدا على تضمين أسئلة خادعة وغير مباشرة تحتاج إلى التفكير والتحليل قبل الإجابة.

خلال إحدى الجلسات الدراسية قبل الامتحانات، جلس يوسف وعماد يراجعان بعض الدروس سوياً. كان يوسف يدرس بجد ويكافح من أجل فهم أحد تعاريف مادة الفلسفة المعقدة. عندما أعياه ذلك، سأل يوسف: "ماذا يعني توما الأكويني بتعريفه للنفس أو الروح؟".

أجاب عماد: "هذا التعريف معقد للغاية. لم أستطع فهمه أيضاً".

"لقد أمضيت وقتا طويلا محاولا فهم ذلك، لكنني ما زلت غير قادر"، قال يوسف. إنه أمر صعب حقا. على أي حال، عرّف الأكوييني النفس على أنها "كمال أول لجسم آلي ذي حياة بالقوة"، متبعا نفس النهج الذي اتبعه أرسطو في هذا التعريف.

"يوسف، لا تضيع وقتك في أشياء معقدة لا يمكنك فهمها"، قال عماد.

رد يوسف بثقة: "سأجد طريقة. أتعرف ماذا؟ سأحفظ هذا التعريف عن ظهر قلب، حتى لو لم أفهمه".

هز عماد رأسه وقال: "هذا ليس بالأمر السهل. ستنساه ما لم تفهمه أولا".

أجاب يوسف: "لن أنساه أبدا، إن شاء الله".

"حسنا، الأمر لك"، قال عماد.

اتّبع يوسف استراتيجيته المعروفة للحفظ وهي التكرار ما بين الحين والآخر ... وعلى مر السنين اعتاد عماد أن يسأل يوسف عن التعريف ذاته، وكان يوسف يردده دائما كما حفظه أول مرة.

لقد أيقن يوسف وزملاؤه أن التفاني في فهم وإتقان المواد التعليمية من خلال الجمع بين القدرة على الحفظ عن ظهر قلب والتحليل النقدي ومهارة القراءة بين السطور هي طريقة فعالة، إذ أدت هذه الجهود إلى النجاح في المدرسة الثانوية وأرست أسسا قوية للانتقال إلى الحياة الجامعية.

لقد تبنى الطلاب نهجا مدمجا أو مزدوجا للتعلم، إذ جمعوا بين تقنيات التكرار والحفظ التي أثبتت فعاليتها عبر الزمن وخاصة في الماضي مع الأساليب المعاصرة التي تركز على التفكير والتحليل

وقراءة ما بين السطور للغوص في المسائل الشائكة واستخلاص ما خفي من المعاني. مكنتهم هذه الاستراتيجية المتزنة من الاحتفاظ بالمعلومات الأساسية مع تعزيز المرونة الفكرية اللازمة للانتقال إلى الجوانب الأكثر تعقيدا واستقلالية خلال حياتهم الأكاديمية.

وفي أمسية أخرى، وبعد الانتهاء من الامتحانات، اجتمع يوسف عبد الله وحمزة الفياض وعماد المصطفى وفلاح الصالح وعبد الحميد الإسماعيل وياسر الصالح وأحمد العبد الله لمناقشة بعض القضايا المتعلقة بامتحانات الثانوية العامة.

استهل يوسف الحديث بقوله: "يقولون كلما درست أكثر استوعبت أكثر ... هذا صحيح من حيث المبدأ لكن الأمر يحتاج إلى أكثر من الدراسة... يحتاج إلى الاستيعاب وحسن إدارة للوقت والقدرة على استكشاف المعاني الخفية".

أجاب حمزة: "بالضبط. يبدو الأمر كما لو أن كل سطر في الكتاب المدرسي يمكن أن يعني أشياء أكثر مما يتضمن. كان علينا حقا التركيز على كل نقطة وفكرة".

"نعم، خاصة تلك الأسئلة غير المباشرة أو التضليلية أو الخادعة كما يسمونها"، قال عماد. "إنها الأسوأ. لا يمكنك فقط الاعتماد على نص الكتاب إنما عليك أن تقرأ ما بين السطور وتفكر وتربط الأفكار ... وما إلى ذلك".

أوما فلاح برأسه، وقال: "لقد كنت أقول لنفسي ذلك أيضا. إنه أكثر من مجرد تكرار. يتعلق الأمر بالتفكير والتحليل لمعرفة ما هو مطلوب بالضبط من السؤال. الوزارة دائما تسعى إلى تعقيد الامتحانات. تطلبت تلك الامتحانات أكثر من مجرد دراسة ... إنها تحتاج إلى استراتيجية متكاملة".

"وكذلك قوة التركيز"، أضاف ياسر. "إذا لم تتمكن من ربط النقاط المختلفة، فلا يمكنك الاستمرار كما يجب".

"لهذا السبب تواريثنا عن الأنظار منذ شهور"، قال عبد الحميد. "تحولت الشهرة الماضية إلى أوقات دراسية مكثفة ... أشبه بالسجن".

"نعم، إنه أمر ليس بالسهل"، قال يوسف. "كل من يطمح بالدراسة في الجامعات السورية يجب عليه بذل الجهود الكافية لاجتياز هذه الاختبارات الصعبة".

في هذه الأثناء اجتمع تميم المسلم وعبد الرحمن الخالد وإبراهيم الحاج وأحمد التراك ومظفر الوهاب وباسل السطام ونادر الخيري لمناقشة امتحاناتهم والمراحل التالية من رحلاتهم الأكاديمية والشخصية. خلال محادثاتهم، اتفقوا على التنسيق مع أقرانهم ووضع خطط مشتركة للالتحاق بالجامعات السورية والتسجيل فيها معاً.

استهل تميم المحادثة بقوله: "كانت المنافسة شديدة. الجميع يهدف إلى تحقيق أهداف كبيرة، ولا مجال للتخمين. ما زلت أذكر تلك الاختبارات. الأمر لا يتعلق فقط بفهم محتويات كل مادة ... إنه يتعلق بكيفية استخدامها ... كيف تتعامل مع السؤال. لذلك، كانت الامتحانات صعبة للغاية".

"والمحافظة على الهدوء وعدم التوتر"، قال إبراهيم. "إذا أسأت فهم بعض الأسئلة الخادعة ... هذا قد يكلفك الكثير".

"هذا صحيح"، قال أحمد التراك. "لكن أتعلم؟ تلك الضغوط جعلتنا أقوى ... لم أعد أشعر بنفس الشعور السابق".

"يرادوني نفس الشعور"، قال مظفر. "لقد بدأت أرى خيوطا بين المسائل لم ألاحظها من قبل".

قال باسل: "حسنًا. ما فعلناه ... إنه كان مجديًا. نجحنا ... أخيرًا. كل واحد منا".

"لم ننجح فقط"، قال نادر. "لقد حققنا ما كنا نصبوا إليه ... لنختار التخصص الذي نحب".

في اليوم التالي، اتفق طلاب المجموعتين لتنظيم لقاء آخر لمواصلة مناقشاتهم، خاصة أنهم كانوا على دراية كاملة بمتطلبات المرحلة التالية من رحلتهم التي تحتاج إلى تعاون وثيق، لا سيما في اختيار التخصصات الأكاديمية والاستعداد للحياة الجامعية. وبما أن كل الجامعات تقع بعيدا عن مدينتهم، فهناك حاجة ماسة أخرى تتعلق بالتنسيق بشأن المسائل العملية ومن ذلك تأمين السكن وترتيبات المعيشة.

بدأ حمزة الحديث، قائلا: "ما زلت لا أصدق ذلك. بعد كل هذا التوتر، كل تلك الليالي الطوال ... لقد فعلناها أخيرًا".

"إذن، ماذا الآن؟" سأل عماد. "ماذا بشأن التخصصات الأكاديمية؟"

"مهما اخترنا ... فقد نجحنا"، قال ياسر. "لم ندرس وبنجح فقط، لقد ارتقينا ... فكريا وعقليا وأكاديميا".

"الامتحانات كانت صعبة بلا شك"، أضاف تميم. "لكنها دفعتنا نحو النضج الفكري. هذا شيء سيساعدنا في التخصص الذي نختاره".

"لقد قررت دراسة الأدب الإنجليزي في جامعة دمشق"، قال يوسف. "أحب الغوص في اللغات والعلوم الإنسانية".

"أنا أيضا"! أجاب عماد. "أعتقد أنه مجال مميز ... أنا أنضم إليك في هذا".

"هذا رائع، لكنني سأختار طريقا مختلفا"، قال حمزة. "سألتحق بكلية الدراسات الإسلامية في جامعة دمشق. أريد التركيز على الدراسة الدينية والفقهية".

"وأنا أيضا"، قال عبد الحميد. "من المهم أن نفهم تراثنا بعمق ... كما تعلمون، تركت تخصصي الأول في الهندسة الزراعية لمتابعة الدراسات الإسلامية ... هذه هي رغبتني وطموحي الحقيقي. لقد ضحيت بعام دراسي كامل من أجل هذا التغيير".

"وأنا معكم"، قال فلاح. "الدراسات الإسلامية هي المفضلة لدي".

"أنا سأنتج إلى جامعة حلب للالتحاق بكلية الآداب – الأدب الإنجليزي"، قال نادر.

رد عليه باسل قائلا: "وأنا أيضا سأنظم إليك في حلب، لكنني سأختار القانون. لطالما كنت مهتما بالدراسات القانونية وأمل أن أنجح في هذا".

"أما أنا فقد اخترت كلية الحقوق في جامعة دمشق"، قال إبراهيم. "أحب الدراسات القانونية وأمل أن أتميز في هذا المجال".

"سألتحق بجامعة دمشق ... لكنني سأدرس الأدب العربي"، قال أحمد العبدالله. "أريد استكشاف لغتنا الأم وكنوزها الأدبية والحفاظ عليها ما استطعت".

"هذا رائع، أنا معك في ذلك"، أجابه ياسر.

"أما فيما يتعلق بنا نحن ... طلاب التخصصات العلمية ... فإنني سأدرس الرياضيات في جامعة دمشق"، قال تميم. "أنا مغرم بالمسائل التحليلية".

"وأنا أيضا"، قال أحمد التراك. "الرياضيات تفتح الكثير من الأبواب.. إنها الأساس لكثير من متطلبات حياتنا المعاصرة".

"سأدرس الطب في جامعة دمشق"، قال مظفر. "إنه طريق طويل وشاق ... لكن يسرني أن أساعد الناس من خلال تخصصي في الرعاية الصحية".

أضاف حمزة قائلًا: "ما يسرني أكثر هو رؤية هذا التنوع في اهتماماتنا والتي تتدرج بين العلوم الإنسانية والقانون وكذلك التخصصات العلمية".

"نعم إنه لأمر رائع"، قال يوسف. "نأمل أن ننجح ونتميز في مهامنا الأكاديمية القادمة".

تعكس اختيارات الطلاب هذه تنوع الاهتمامات والتضحيات الشخصية التي يقدمونها لمتابعة مجالات شتى تتماشى مع الهوايات وكذلك القيم الفردية. أولئك الذين نجحوا، فعلوا ذلك فقط من خلال التفاني وحث الخطى ومواصلة العمل ليلا ونهارا، مما مهّد لهم الطريق نحو المقاعد الجامعية التي كانوا يحلمون بها.

كانت إنجازاتهم شهادة على صمود وتصميم ذلك الجيل من الطلاب الذين نجحوا، رغم التحديات، في مساعيهم التعليمية ووضعوا الأساس لمستقبلهم المهني.

ينحدر جميع هؤلاء الطلاب، باستثناء محمد الرهاوي الذي انضم إليهم لاحقاً، من نفس العشيرة والمدينة التي تقع في حوض الفرات. جميعهم ينتسبون إلى عشيرة القرعان التي كانت ولا زالت تسكن مدينة القورية منذ عدة قرون.

تفتخر هذه المدينة، وهي جزء من محافظة دير الزور التاريخية في شرق سوريا، بإرث ثقافي وتاريخي غني يمتد إلى أكثر من 5,000 عام. تعرف المدينة تاريخياً باسم الدالية، وتقع في مكان استراتيجي على الضفة اليمنى لنهر الفرات، على مسافة متساوية، قرابة 50 كيلومتراً، عن وسط مدينة دير الزور والحدود العراقية.

يؤثر هذا الموقع الجغرافي بشكل كبير على الطبيعة الاجتماعية والثقافية للمدينة، فقد كانت ولا زالت تمثل مفترق طرق طبيعي للتجارة والسفر والتبادل الثقافي بين سوريا والعراق والذي كان له بعض التأثير على حياة وتقاليد سكانها. نهر الفرات نفسه، هو أكثر من مجرد ممر مائي، إنه شريان حياة للمدينة وسكانها، وقد حافظ على الزراعة وسبل العيش والحياة المجتمعية لأجيال.

من إحدى الضواحي القريبة من مدينة القورية، ينحدر محمد الرهاوي من عشيرة الشويط المجاورة. لقد حافظت كل من عشيرة القرعان والشويط، منذ فترة طويلة، على روابط قوية من الصداقة والتعاون. وفي منطقة تتعايش فيها عشائر متعددة، تتميز العلاقة بين القرعان والشويط

بدفئها واحترامها المتبادل. تاريخيا، تميزت علاقاتهم بالاحترام المتبادل والتنافس الودي في مختلف المجالات.

يتم التعبير عن هذا التنافس من خلال التعليقات المرحية وسرد الحكايات الخيالية والواقعية، ولكن معظم القصص التي يسردونها تتسم بحس الفكاهة وغالبا ما تحتوي على نوع من المبالغة إذ تستخدمها العشائر للمزاح والمرح. ومع ذلك، يعلم جميع الأطراف أن معظم هذه القصص هدفها التسلية فقط، وكان ذاك المزاح اللطيف يعزز الروابط الاجتماعية أكثر مما يفرقها ... ووراء هذا المزاح والتسلية، يكمن احترام وتقدير حقيقي يربط بين العشيرتين.

تتميز مدينة القورية بجمالها ومناظرها الطبيعية وأراضيها الزراعية الخصبة، وتحفها الكثير من الأشجار التي تضيف إليها مزيدا من الزينة والجمال. تنتشر في أراضيها الزراعية محاصيل مختلفة مكونة لوحة فنية موشحة باللون الأخضر الطبيعي ... ويعد القطن والقمح من بين أبرز المنتجات الزراعية الأساسية إضافة إلى الخضروات المختلفة.

تتميز بيئة المدينة بمناخها الموسمي، وتتغير الظروف المناخية مع كل فصل مما يعطي الربيع والخريف برودة منعشة، خلافا لحرارة الصيف وبرد الشتاء القارس.

فصل الربيع، يتميز عن غيره من ناحية الطقس والحياة الطبيعية حيث تنتزين الأرض المحيطة بالمدينة باللون الأخضر الزاهي، وتنبض الحقول بالحياة عبر المحاصيل المختلفة ... حتى المناطق الصحراوية أو البرية القريبة – نحو الغرب – تتحول بشكل كبير خلال هذا الموسم وتكتسي اللون

الأخضر. تعج هذه الأراضي البرية بأنواع متنوعة من النباتات، مما يثري جمالية المدينة ويعطي تباينا خلابا مع الحقول الزراعية القريبة منها.

الموقع الاستراتيجي للقورية وسط محافظة دير الزور جعلها تاريخيا مفترقا محوريا بين الشمال والجنوب. ويقدم هذا الموقع الجغرافي عددا من المزايا منها سهولة الحركة والتنقل، مما يتيح للسكان الوصول المريح ليس فقط إلى الحدود العراقية السورية القريبة، ولكن أيضا إلى وسط مدينة دير الزور وما وراءها من المحافظات السورية الأخرى. من دير الزور، تمتد الطرق إلى المدن السورية الكبرى بما في ذلك حمص وحلب ودمشق، وترتبط المدينة بشبكات وطنية أوسع للتجارة والتعليم والثقافة.

يحمل سكان القورية شغفا كبيرا لمدينتهم ولنهر الفرات الذي يتدفق بجانبها. هذا النهر ليس مصدرا للري فحسب، بل هو أيضا نقطة محورية للأنشطة الاجتماعية والترفيهية، خاصة خلال أشهر الصيف عندما توفر المياه الباردة نسبيا مكانا أكثر اعتدالا ضمن طقس المدينة الحار.

يساهم النهر في تعزيز البيئة الطبيعية والروح المجتمعية التي هي جزء لا يتجزأ من هوية سكان المدينة وحياتهم اليومية. وغالبا ما يعبر الكثيرون ممن غادروا القورية للدراسة أو العمل أو لأسباب أخرى، سواء إلى مدن سورية أخرى أو إلى خارج البلاد مثل دول الخليج العربي، عن حنين عميق لمسقط رأسهم.

والكثير منهم يعتز بذكريات الطفولة وما عايشوه في الماضي بما في ذلك المناظر الطبيعية الهادئة والمجتمع المتماسك وبساطة الحياة على ضفاف نهر الفرات. وعلى الرغم من تنوع وجهاتهم ومقاصدهم، إلا أن هناك توقا مشتركا بينهم للعودة إلى المدينة، والتواصل مع أقربائهم وأصدقائهم. يتحدث هذا الشعور عن الروابط العاطفية والثقافية القوية التي يحتفظ بها أهالي المدينة مع مدينتهم. إنه أكثر من مجرد مكان إقامة، إنه رمز للهوية والتقاليد والانتماء الذي يشكل نظرتهم للعالم ويستمر في التأثير على حياتهم، بغض النظر عن المكان الذي يذهبون إليه.

قبل اندلاع الثورة السورية في عام 2011، كانت مدينة القورية موطننا لنحو 60,000 نسمة من أبناء قبيلة القرعان. ازدهر هذا المجتمع النابض بالحياة عبر تراث زراعي غني تكمله أنشطة تجارية متواضعة، شكلت العمود الفقري لاقتصادها المحلي وأسلوب حياته.

كان اقتصاد المدينة في الغالب يعتمد على الزراعة، وكان غالبية سكانها يمارسون الزراعة والأنشطة المتصلة بها. ساهمت الأراضي الخصبة في المدينة في توفير مجموعة متنوعة من المحاصيل، مما مكّن السكان من إعالة أنفسهم والمساهمة في الأسواق المحلية والإقليمية.

إلى جانب الزراعة، تعمل المؤسسات التجارية الصغيرة مثل محلات البقالة والأسواق الصغيرة بشكل أساسي داخل منطقة السوق في المدينة، وتقدم هذه المؤسسات السلع والخدمات الأساسية، مما يسهل التجارة ويوفر احتياجات أبناء المدينة.

كانت الزراعة في القورية مرتبطة بشكل أساسي بالفصول، حيث يجلب كل فصل من العام مجموعة أنشطته الخاصة مصحوبة بالتحويلات الطبيعية الموسمية. وينظم التقويم الزراعي إيقاع الحياة في المدينة ويعزز الناتج الاقتصادي وكذلك العادات الاجتماعية والتجمعات بين أفرادها.

في مدينة القورية، تبدو ملامح الشتاء قبل برودته القارسة من خلال التحول الذي يطرأ على المناظر الطبيعية وكذلك الانتقال من محاصيل زراعية إلى أخرى مثل الإعداد لزراعة القمح. خلال هذه الأشهر الباردة، تفسح المساحات الخضراء المعتادة في المدينة المجال للون آخر تخفت فيه الحياة بعد أن شهدت تساقط أوراق الأشجار في فصل الخريف. ولكن رغم درجات الحرارة المنخفضة والطقس البارد الذي غالبا ما يقيد الأنشطة الخارجية في المساء، يتمتع الشتاء بسحره الخاص.

يجد سكان المدينة الدفء في هذا الفصل في الجلسات الداخلية داخل بيوتهم حول المدفآت ومشاركة بعض الوجبات والانخراط في محادثات تتراوح بين الشؤون المحلية والقضايا الاجتماعية، وغيرها. ساهم هذا الجانب المجتمعي في تعزيز قيمة وأهمية الحياة الشتوية وتوليد إحساس قوي بالتضامن والقدرة على التعايش مع كافة الظروف.

في هذا الموسم، تؤتي بعض أشجار الفاكهة، مثل التفاح والبرتقال، ثمارها مما يوفر مصدرا حيويا للتغذية وإضفاء لون جميل آخر للمناظر الطبيعية الخافتة في هذا الفصل. تثري هذه الثمار إنتاج المدينة الزراعي وتذكر، من جانب آخر، بدورات الطبيعة المستمرة وتواتر الحياة حتى في أقسى الظروف.

مع حلول الربيع، تمر المدينة بتحول ملحوظ، حيث يُبشر الموسم بعودة المساحات الخضراء النابضة بالحياة بعد أن بدأت الأشجار بالعودة التدريجية للحياة ونمو أوراق جديدة قبل دخول هذا الفصل، وفي هذا الوقت تبدأ المحاصيل التي تمت زراعتها في الشتاء بالنمو بشكل أسرع. في هذه الأثناء، تعود الخضرة إلى المدينة وتكتسي باللون الأخضر مرة أخرى.

الربيع هو موسم الخير والإنتاج، حيث تبدأ الأشجار المثمرة مثل العنب والتين والتوت والنخيل في عملية الإزهار وحمل الثمار التي ستنتج في الأشهر الأكثر دفئاً المقبلة. ويشجع الطقس المعتدل واللطيف السكان على قضاء المزيد من الوقت في الهواء الطلق والانخراط في الأنشطة الخارجية مثل المشي، خلافاً لما كان في فصل الشتاء وكذلك التواصل الاجتماعي والاهتمام بالأنشطة الزراعية.

ينعش مناخ الربيع اللطيف كل من الأرض والمجتمع ويزيد الإحساس العام بالتفاؤل والحيوية؛ لأنه الموسم الذي تبدأ فيه جهود الأشهر السابقة في إتياء ثمارها، حيث يعم المدينة الترقب لفصل الصيف الوافر.

عادة ما يكون الصيف في القورية هو ذروة الإنتاجية والوفرة الزراعية. وتتنزين المناظر الطبيعية للمدينة بمجموعة من الفاكهة الناضجة والمحاصيل المزدهرة، حيث ينضج العنب والتين والتوت والمشمش والخضار بشكل عام في جميع أنحاء المدينة.

إلى جانب زراعة الفاكهة، يعد الصيف وقتا مهما لزراعة مجموعة متنوعة من الخضروات، بما في ذلك الخيار والطماطم والبامية والبطيخ والكوسا والباذنجان وما إلى ذلك. تساهم هذه المحاصيل بشكل كبير في اقتصاد المدينة وسمعتها كمركز زراعي حيوي في المنطقة.

تساعد التربة الخصبة والظروف المناخية المواتية خلال أشهر الصيف في توفير حصاد متنوع ووفير، مما يضمن الأمن الغذائي والاستقرار الاقتصادي لسكان المدينة وغيرها من المناطق الأخرى.

بالنسبة لسكان المدينة، يعتبر الصيف والربيع على نطاق واسع أكثر المواسم متعة، حيث يمثل دفء الشمس وفضل الله تعالى وبركته في تلك المحاصيل فرصا جديدة للاستقرار وتأمين متطلبات الحياة في هذا الفصل والفصول اللاحقة له أيضا، ويعزز الجمال الطبيعي للمدينة.

في نهاية المطاف، يفسح أفول فصل الصيف المجال للخريف، عندها تشهد مدينة القورية انتقالا تدريجيا يتسم بتساقط أوراق الأشجار والاستعداد لفصل الشتاء القادم. يرمز هذا الموسم إلى دورة الحياة الطبيعية، وهي نهاية محاصيل، ولكنها في نفس الوقت مقدمة لبدايات أخرى. يتحول في هذا الفصل اللون الأخضر النابض بالحياة إلى ألوان صفراء وبرتقالية خافتة، لكنها تبقى على قدر من الجمال رغم أزوف ساعتها.

في الخريف، يجمع المزارعون بعض المحاصيل وما تبقى من ثمار ويبدؤون بإعداد أنفسهم وأراضيهم للأشهر الباردة المقبلة. كما يجلب الطقس البارد نسبيا وتيرة مختلفة للحياة اليومية، حيث تركز الأنشطة على الصيانة وتخزين المحاصيل والتخطيط للدورة الزراعية التالية.

يعتبر أهالي القورية فصل الخريف على أنه مرحلة حاسمة في دورة حياة بيئتهم ومجتمعهم. وتذكرهم الأوراق المتساقطة والحقول غير النشطة بالتقدم الطبيعي للفصول وكذلك العلاقة المستمرة بين البشر والطبيعة. في كل عام، يشهد سكان المدينة هذه الدورة بنوع من التناغم والاستعدادات المطلوبة لكل فصل من الفصول.

أما بالنسبة لتلك المجموعة من الطلاب، فقد كان صيف عام 1997 علامة فارقة في حياتهم بعد أن أتموا تعليمهم الثانوي. بعد عام حافل بالدراسة والتفاني والمثابرة، حصل هؤلاء الشباب أخيراً على شهادات المدرسة الثانوية، وهي لحظة من الإنجاز الكبير والراحة النفسية التي أشعرتهم بوصولهم إلى بر الأمان. ومع ذلك، كانوا يعلمون يقيناً أن ذلك الإنجاز لم يكن سوى بداية لفصل جديد، ورحلة ربما تحتوي على أنواع جديدة من الشدائد والمصاعب.

بالنسبة للكثيرين، كانت تلك المرحلة بمثابة جسر ينقلهم إلى منظومة التعليم العالي والأكاديمي، ناهيك عن التطور الفكري والأخلاقي والسعي وراء أهداف وتطلعات عظيمة.

مع الانتهاء من الاحتفال بالنجاح، سرعان ما صب الخريجون الجدد انتباههم على التخطيط للمرحلة التالية من حياتهم، مرحلة الدراسة الجامعية. كانت هذه الخطوة أكثر من مجرد تقدم أكاديمي ... لقد كانت قفزة نوعية نحو تكوين هويتهم وحياتهم المهنية.

بالنسبة للعديد من الطلاب سواء من القورية أو المناطق المحيطة بها، لم يكن الشروع في التعليم العالي خالياً من التحديات. لم يكن في دير الزور، محافظتهم الأم، جامعة في ذلك الوقت. وبالتالي

كان لزاما على جميع الطلاب السفر إلى وجهات مختلفة في جميع أنحاء سوريا لمتابعة أحلامهم الأكاديمية، مما ضاعف أعباءهم من الناحية الخدمية والمالية والنفسية.

يتطلب الانتقال إلى المدن البعيدة تأمين سكن خاص وتأمين تكاليف النقل ونفقات المعيشة اليومية مثل الطعام والمرافق. بالنسبة لمعظم الطلاب، كانت هذه التكاليف كبيرة، مما مهد لعقبة جديدة واجهت معظم أسرهم.

على الرغم من تلك المصاعب، لم يرغب أي منهم في التخلي عن رحلته التعليمية، لأن البديل الوحيد لذلك هو التخلي عن حلمهم الذي طالما انتظروه قبل وبعد تخرجهم من الثانوية ... لذا لم يكن هذا الخيار مطروحا لأي منهم.

للتغلب على تلك الصعوبات، اعتمد الطلاب بشكل كبير على دعم أسرهم، خاصة أنهم لم يكن لديهم أي عمل في تلك المرحلة من حياتهم وكان معظمهم قبل ذلك يساعدون ذويهم بالأنشطة الزراعية ... هذا يعني أن احتياجاتهم المالية كانت تلبيها أسرهم بالكامل. ويؤكد تحمل هذه الأعباء على الالتزام والتماسك الأسري والاهتمام بالتعليم والإيمان بإمكانية الأبناء عندما تتاح لهم الفرص.

من بين المؤسسات الأكاديمية المختلفة المتاحة في تلك الأيام، برزت جامعة دمشق كوجهة رئيسية للطلاب السوريين الذين يتطلعون إلى التعليم العالي، والتي تعتبر زهرة الجامعات السورية ودرتها والوجهة المفضلة بين معظم طالبي العلم في سوريا. تأسست جامعة دمشق في أوائل القرن العشرين، وتتميز بكونها أقدم وأعرق جامعة في البلاد. عزز تاريخها الطويل وإرثها الثقافي،

الذي يمتد لأكثر من قرن، سمعتها في التميز الأكاديمي إضافة إلى توفيرها لمجموعة واسعة من التخصصات.

يمثل موقع الجامعة في العاصمة السورية ميزة إيجابية أخرى وجعلها مركزا للطلاب من جميع أنحاء البلاد وخيارا طبيعيا للكثير منهم، بما في ذلك طلاب المحافظات البعيدة مثل دير الزور.

جامعة حلب، التي تأسست عام 1958، هي ثاني مؤسسة رئيسية للتعليم العالي في البلاد. تقع هذه الجامعة في حلب، المركز الاقتصادي والصناعي لسوريا الواقع في المنطقة الشمالية الغربية بالقرب من الحدود التركية، جذبت الطلاب المهتمين بالاستفادة من البيئة المتنوعة للمدينة.

ومن بين المؤسسات البارزة الأخرى جامعة تشرين في اللاذقية وجامعة البعث في حمص، وكلاهما مركزان تعليميان مهمان لخدمة الطلاب من مختلف مناطق سوريا. رغم أن معظم طلاب مدينة القورية التحقوا بجامعة دمشق وحلب، إلا أن الجامعتين الأخيرتين، مثلا خيارات مفضلة للعديد من الطلاب السوريين الذين يبحثون عن متابعة تحصيلهم الجامعي بالقرب من المناطق التي يعيشون بها.

بالنسبة لكافة الخريجين الجدد الذي أتموا دراستهم الثانوية في ذلك الصيف، يتطلب الانتقال من المدرسة الثانوية إلى الجامعة أكثر من مجرد استعداد أكاديمي. كان على الطلاب الاستعداد ماليا ونفسيا للتحديات المقبلة. من الناحية المالية، كان العبء كبيرا، إذ تتراكم عليهم النفقات الشهرية للإقامة والطعام والنقل وغيرها من التكاليف الدراسية، وكان جميعهم يعتمدون على موارد أسرهم، مما سبب أحيانا ضغطا على ميزانيات الأسر المعيشية.

من الناحية النفسية، كان الانتقال يعني ترك البيئة المألوفة والصداقات المعتادة وكان عليهم التكيف مع حياة المدن الجديدة والثقافات والمتطلبات الأكاديمية وصاحب هذا الشعور الحنين لمدينتهم التي اعتادوا العيش فيها. كانت هذه المرحلة تتطلب أيضا المزج بين عدة أمور على رأسها المرونة والتصميم على تجاوز كافة العقبات.

لعبت العائلات دورا مهما في هذه العملية، حيث قدمت التشجيع المعنوي إلى جانب الدعم المالي. وقد أثبت الجهد الجماعي للأسر والمجتمعات المحلية القيمة العالية التي يحظى بها التعليم باعتباره طريقا إلى التطور والحضارة والتنمية الشخصية والوطنية.

كما سلب تفاني هؤلاء الشباب في متابعتهم لتعليمهم العالي، رغم العقبات الجغرافية والمالية والاجتماعية، الضوء على أهمية التعليم في حياة السوريين عامة ومدينة القورية خاصة. وتعكس خياراتهم، لدراسة تخصصات تتراوح من الأدب إلى الفقه الإسلامي والطب والقانون، تنوع الاهتمامات والطموحات داخل المجتمع السوري.

لقد جسد هؤلاء الطلاب أمل وإمكانات جيل جديد كان على استعداد للمساهمة في مجتمعه وأمتة من خلال متابعة التعليم الجامعي وزيادة المعرفة والإصرار على التغلب على التحديات والعقبات من خلال بذل أقصى الجهود الممكنة... وتعد مثابرتهم وتجاربهم بمثابة شهادة على الأهمية الدائمة للتعليم والجهد الجماعي المطلوب لتحقيقه.

الفصل الثاني

الشروع بالمسيرة الجامعية

خريف وربيع 1998

بعد حصولهم على شهادات الثانوية العامة، استعد الطلاب للبدء في فصل جديد من حياتهم عبر الالتحاق بجامعات مختلفة، مستهلين رحلتهم الأكاديمية وفصلهم الدراسي الأول. كانت هذه الخطوة بمثابة مرحلة انتقالية مثيرة، تميزت بالطموح والعمل الجاد والشعور بالاستقلال والاعتماد على النفس.

بالنسبة للكثيرين، كانت هذه أول تجربة لهم خارج البيئة المألوفة لمدينتهم ولبينة التعليم الثانوي، إذ كان عليهم منذ تلك اللحظة مواجهة تحديات التعليم العالي في سوريا التي لم تكن سهلة في يوم من الأيام. كانوا يدركون تماماً أن الدراسة الجامعية تتطلب مستوى عال من الالتزام والانضباط والمثابرة مقارنة بتجاربهم السابقة ... والنجاح هنا يحتاج إلى جهد وتقان استثنائيين.

لم تكن هذه الخطوة مجرد انتقال من مرحلة دراسية إلى مرحلة أكاديمية، بل كانت بمثابة تغير عميق في طبيعة حياتهم. إنها انتقال إلى مرحلة أكثر تعقيداً والحاحاً وتبدأ بقرارات حاسمة يتخذها الطلاب لاختيار تخصصاتهم الجامعية والتي ستحدد مسار حياتهم فيما بعد. كان هذا الخيار بالغ الأهمية؛ لأنه سيعتري عليه آثار كبيرة ستصاحبهم مدى حياتهم من الناحية المهنية وكذلك في

مجال تطورهم الشخصي. بعد الانتهاء من اختيار تخصصاتهم، استمر الجميع بالتخطيط للمضي قدما في متابعة مسيرتهم العلمية. وقبل السفر إلى وجهاتهم الجديدة، التقى يوسف وعماد وأحمد العبدالله لمناقشة الترتيبات التي تتعلق في المرحلة القادمة.

"أتعلمون؟" سأل يوسف. "لم يكن اختيار التخصص سهلا كما كنت اعتقد في السابق".

"ما الذي حصل؟! سأل عماد.

"شعرت أن كل خيار كان يحفه عدد من المخاطر"، قال يوسف. "أي اختيار خاطئ، ربما سنندم عليه لفترة طويلة ... ربما إلى الأبد".

أحمد [أوما برأسه] "أنت على حق. لم يكن الأمر يتعلق فقط بما أحببته. كان الأمر يتعلق بما كنت أجيده".

"نعم، هو كذلك"، قال يوسف. "كان عليّ أن أفكر حقا في نقاط قوتي ... أعني ... قرار واحد خاطئ يمكن أن ينهي مسيرتك الأكاديمية بأكملها".

"وهذا ليس النوع من الخطأ الذي يمكنك إصلاحه بسهولة"، قال عماد. "تغيير التخصصات لاحقا ... إنه أمر معقد وفوضوي. أحيانا يفقد الطلاب الوقت والجهد وربما الدافع للدراسة نفسها".

"ناهيك عن تشويش أفكارك"، أضاف أحمد. "ضغوط الاختيار الثاني، والقلق حول التخلف عن الركب ... إنه لا يحتمل. شعرت بهذا الضغط بشدة. لم يكن الأمر يتعلق فقط بالالتحاق بالجامعة – بل كان يتعلق بتحديد المسار لبقية حياتنا".

"شعرت بذلك كثيرا"، قال يوسف. "الأمر لم يكن مجرد دخول الجامعة، بل يتعلق بحياتك كلها".

"كان الانتقال إلى مدينة جديدة تحديا آخر"، أضاف أحمد. "أشخاص جدد، إجراءات جديدة ... وفجأة أنت مسؤول عن كل شيء".

"كنت اعتقد أن مجانية التعليم العالي ستنتهي كل المشاكل"، قال يوسف. "لكن بمجرد مغادرتك للمنزل، تكتشف أن القصة مختلفة، وأن المسؤوليات تتراكم ... الإيجار والطعام والنقل ... كل ذلك يزيد من أعبائنا".

"ولا يمكنك التركيز فقط على الدراسة عندما تكون قلقا بشأن التكاليف التي عليك أن تتكبدتها"، أضاف عماد.

"بصراحة، شعرت أن الاختبار الحقيقي بدأ بعد امتحانات الثانوية النهائية"، قال أحمد. "كان وقع هذا الانتقال أقوى مما كنت أتوقع".

"لكن في نهاية المطاف، أعتقد أننا أنجزنا ما كان يجب علينا إنجازه"، أضاف يوسف. "لقد استفدنا من طريقة إدارة وقتنا ... قللنا المخاطر ... وما زلنا واثقين من قدرتنا على المضي لأبعد مما نحن فيه الآن".

"نعم أنجزنا ذلك"، قال عماد. "لكن بعد جهود مضيئة ... كان الأمر صعبا ... لكن لم يكن هناك خيار على الحقيقة، لأنه كان علينا المواصلة فقط ... وإلا لكان الفشل بانتظارنا".

اختتم أحمد الحديث بقوله: "والآن، علينا فقط أن نحقق ما نصبوا إليه في مرحلتنا التالية".

في ذلك الوقت، كانت دير الزور تفتقر إلى وجود الجامعات. نتيجة لذلك، اضطر طلاب هذه المنطقة إلى قطع مسافات طويلة للتسجيل واللاحق بمؤسسات التعليم العالي الموجودة في مدن أخرى. جامعة دمشق، على سبيل المثال، كانت على بعد نحو 500 كيلومتر من دير الزور، في حين كانت جامعة حلب أقرب من ذلك نسبياً، على بعد نحو 380 كيلومتراً من القورية.

يمثل السفر بين هذه الوجهات عقبة أخرى أمام الطلاب. كانت الحافلات هي الوسيلة الأساسية للسفر، وغالباً ما يتطلب حجز تذاكر السفر تخطيطاً مسبقاً وإعداد متطلبات السفر خاصة المالية. كانت هذه الحافلات تغادر ليلاً، حوالي الساعة 10 مساءً، أو في الصباح الباكر حوالي الساعة 8 صباحاً، إما من القورية مباشرة أو من وسط مدينة دير الزور، حيث تنطلق إلى مدن سورية مختلفة. كانت الرحلات الطويلة اختباراً لتحمل وتصميم الطلاب، مما يؤكد التزامهم بتطلعاتهم التعليمية.

مع اقتراب العام الدراسي الجديد، في سبتمبر، أزفت ساعة السفر وبدأت الحياة الجامعية الجديدة. جسد الطالبان، يوسف وعماد، تجربة الكثيرين من زملائهم حيث التقى الاثنان بانتظام لمناقشة وتخطيط متطلباتهما الأكاديمية القادمة والخدمات اللازمة للانتقال إلى دمشق.

وناقشا كذلك بعض القضايا المهمة مثل توقيت مغادرتهم وتحديد شركة النقل التي ستنقلهم إلى وجهتهم وتحديد أماكن الإقامة المناسبة في العاصمة. وإدراكاً لأهمية الوقت والعمل الفوري، قررا السفر إلى دمشق قبل بدء العام الدراسي الجديد لإتاحة الوقت الكافي لأنفسهم للاستقرار والاستعداد للفصل الدراسي الجديد.

حجز يوسف وعماد تذاكرهما وشرعوا في رحلتها نحو دمشق. عند وصولهم، استطاعوا الحصول على سكن صغير في حي دمر، وهي منطقة مرتفعة تقع في سلسلة جبلية في ضواحي دمشق ويفضلها العديد من طلاب الجامعات لعدة أسباب مثل انخفاض تكاليف الإيجار نسبيا وقربها من المؤسسات التعليمية المختلفة.

كانت الشقة التي استأجرها يوسف وعماد قريبة جدا من شقة زملائهم عبد الحميد وحمزة وأحمد الجاسم وآخرين الذين استأجروا شققا مماثلة في المنطقة المجاورة. كان لاجتماع هؤلاء الأقران مزايا كثيرة من ناحية التعاون وخفض التكاليف المعيشية وتقديم الدعم المعنوي خلال فترة التكيف مع البيئة الجديدة.

وقد أكدت التجربة الجماعية لهؤلاء الطلاب الشباب أن التحديات المتعددة المتأصلة في الانتقال من التعليم الثانوي إلى الحياة الجامعية في سوريا خلال تلك الفترة يمكن التغلب عليها من خلال التعاون والإصرار على تحقيق الأهداف.

كان على الطلاب خلال تلك المرحلة اتخاذ قرارات معقدة بشأن مستقبلهم والتفكير جيدا في كيفية مواجهة التحديات والتغلب عليها في بيئة جديدة بعيدة عن مدينتهم وأسرهم، وكان عليهم التكيف مع الأجواء الجامعية الجديدة لأن هذا هو السبيل الوحيد للنجاح ... وتلبية المتطلبات الصعبة للتعليم الجامعي.

كان يُنظر إلى دمر على نطاق واسع على أنها واحدة من المناطق السكنية الجذابة في شمال دمشق، وتقع على بعد خمسة عشر كيلومترا تقريبا عن وسط المدينة. ساهم موقعها الجغرافي وظروفها

المناخية بشكل كبير في زيادة جاذبيتها بين طلاب الجامعات الذين كانوا يبحثون عن بيئات معيشية مريحة تناسب متطلباتهم من ناحية الدراسة والراحة النفسية.

تميز الحي بمناخ معتدل مما وفر الراحة خلال صيف سوريا الحار، ولكنه كان شديد البرودة في أشهر الشتاء، مما خلق تباينا موسميا فريدا لم ينفر منه الكثير من السكان، بل وجدوه منعشا.

كانت دمر تتمتع بعدد من المزايا مثل بنية النقل التحتية. في ذلك الوقت، كانت خدمات النقل الفعالة والسهلة تربط دمر بكليات مختلفة في جميع أنحاء دمشق، مما سهل تنقلات الطلاب اليومية. كانت هذه الخدمات إحدى الجوانب الإيجابية إذ أنه رغم بعد الحي نسبيا عن قلب المدينة، إلا أن المسافة بينه وبين المؤسسات التعليمية لم تكن عقبة.

تعمل الحافلات الكبيرة والحافلات الصغيرة طوال النهار ولساعة متأخرة من الليل، مما يوفر خيارات مستمرة ومريحة للطلاب الذين يتنقلون بين منازلهم والحرم الجامعي. كانت سهولة المواصلات هذه تمثل عاملا مهما في التأثير على تفضيل الطلاب لدمر واختيارهم لها كمكان إقامتهم خلال سنواتهم الدراسية.

كانت الميزة الأخرى والفريدة إلى حد ما في المنطقة هي توافر الماء الطبيعي البارد. تقع دمر قريبة نسبيا من ينابيع عين الخضراء وعين الفيحة، وهما مصدران مشهوران للمياه العذبة في سوريا. كانت المياه التي تتدفق في المنازل عبر صنابير المياه باردة جدا وبشكل طبيعي، ولم يكن هناك حاجة للتبريد للحصول على الماء البارد.

كان هذا التبريد الطبيعي ملفتا للانتباه خاصة في أشهر الصيف، حيث يوفر للمقيمين مياه الشرب الباردة مباشرة من الصنابير دون الحاجة إلى تبريد إضافي. رغم أنها كانت ميزة صغيرة، إلا أنها ساهمت في زيادة جاذبية المدينة وشعبيتها. لقد كان كل واحد من الطلاب ينظر إلى دمر برؤية مختلفة.

"الموقع الاستراتيجي والمناظر الطبيعية والطقس اللطيف جعل الطلاب يختارون دمر لإقامتهم"، قال عبد الحميد.

لقد سلطت ملاحظته الضوء على الطبيعة الجذابة للمدينة. ويقدم كذلك الموقع الاستراتيجي للمنطقة تسهيلات أخرى مثل توفر الأسواق الرئيسية فيها وفي المناطق المجاورة لها إضافة إلى الراحة النفسية ويضفي مسحة جمالية للمدينة بشكل عام.

"الطقس لطيف في ثلاثة فصول"، قال يوسف. "وهذا يجعل دمر من المناطق المرغوبة في السكن رغم برودة الشتاء".

"نعم، الشتاء قارس"، أضاف عبد الحميد. "إلا أنه لم يمنع الطلاب من اختيار دمر كمكان للسكن لعدة فصول دراسية".

"الطقس جيد لأن المنطقة تقع على ارتفاع عال وتحيط بها الجبال من كل جانب"، قال أحمد الجاسم.

لقد ساهمت هذه التضاريس الجبلية في التأثير على درجات الحرارة إذ تنخفض كثيرا في الشتاء وتتساقط الثلوج في بعض الأحيان، مما خلق بيئة طبيعية مذهلة لم تكن شائعة في أجزاء أخرى كثيرة من سوريا.

أما فيما يتعلق بالطلاب القادمين من دير الزور، المدينة المعروفة بمناخها الصحراوي الحار – حيث قليلا ما يرى سكانها الثلوج حتى في فصل الشتاء، كانت تجربتهم في دمر مختلفة ومميزة إلى حد كبير ... وهذا من جهة أخرى يبرز التباين والتنوع في المناخ والمناظر الطبيعية والبيئة في سوريا.

تختلف مدن البلاد بشكل لافت حيث يقع بعضها في مناطق صحراوية قاحلة، والبعض الآخر يقع على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط إضافة إلى الغابات الكثيفة، والبعض الآخر يقع في سهول زراعية خصبة. يمتد هذا التنوع إلى ما هو أبعد من المناخ ليشمل الاختلافات في العادات المحلية والملابس التقليدية والممارسات الاجتماعية، مما يعكس النسيج الثقافي الغني لسوريا ككل. على الرغم من وجود أحياء أخرى أقرب إلى كلياتهم الجامعية، يختار الكثير من الطلاب الإقامة في دمر، وهذا التفضيل مدفوعا في المقام الأول بنوعية الحياة التي توفرها المنطقة علاوة على قربها النسبي من المؤسسات الأكاديمية.

بين العديد من الطلاب الذين سكنوا دمر، سرعان ما أصبحت المنطقة وجهة مفضلة لهم بعد أن ابتعدوا عن مدينتهم الأم. شعر يوسف، على وجه الخصوص، بارتباط كبير بهذا الحي وكان أشبه بارتباطه بمحافظة الجهاد، في دولة الكويت، التي سكنها عندما وصل الكويت لأول مرة.

بالنسبة ليوسف، كان هذا الشعور متجذرا ليس فقط في المزايا التي كان يتمتع بها هذا الحي، ولكن أيضا في الأهمية التي كان يحملها كمنطقة استقرار أولى له في العاصمة دمشق.

غالبا ما يجد الأشخاص الذين ينتقلون إلى مدن أو بلدان جديدة أنفسهم مرتبطين بالمكان الأول الذي يعيشون فيه؛ لذا كانت دمر هي ذلك المكان بالنسبة ليوسف في دمشق ... تماما كما كانت الجهراء في الكويت.

هذه الظاهرة – حيث تحتل المنطقة السكنية الأولى في بيئة جديدة مكانة خاصة في ذاكرة الشخص وهويته – ظاهرة شائعة بين الأفراد الذين يضطرون إلى الانتقال إلى أماكن أخرى سواء للدراسة أو للعمل. إن الشعور الأول بالانتماء والصدقات المبكرة التي تتشكل والاختلاط مع مجتمع جديد يخلق روابط تخلد في الذاكرة لفترات طويلة ... وربما مدى الحياة.

بالنسبة ليوسف وأقرانه، كانت دمر أكثر من مجرد حي مناسب للسكن ... لقد كانت رمزا لانتقالهم إلى مرحلة البلوغ والتعليم العالي، وهو المكان الذي وضعوا فيه حجر الأساس لطموحاتهم المستقبلية.

تسلط تجربة الطلاب، مثل يوسف وعبد الحميد وأحمد الجاسم، الضوء على أهمية مراعاة الجوانب العملية والراحة النفسية في خيارات سكن الطلاب. وتؤكد قصصهم كيف يمكن للجو العام أن يشكل تجربة رائعة ويترك انطبعا دائما يتجاوز السنوات التي أمضيت في الدراسة.

في إحدى الأمسيات، قال يوسف: "إذن ... ها نحن في الفصل الدراسي الأول. هل شعر أي منكم بالاستعداد الحقيقي له؟"

قال عماد [مبتسما]: "لا لم نكن كذلك. لقد كان وقع التحول من الثانوية إلى الجامعة أكبر مما كنت أتوقع. كانت المدرسة الثانوية تتميز بالتنوع من حيث المواد الدراسية ... لكن هذا مختلف تماما الآن؟ الآن عليك التركيز على عدد كبير من المواد التي تدور في نفس الفلك ... أقصد التخصص".

"بالضبط"، قال أحمد. "كنا ندرس في الثانوية مجموعة متنوعة من المواد بما في ذلك الأدب والفلسفة والعلوم والرياضيات ... لكن الآن، نحن مقيدون، كل شيء مركز ويتناول البحث في جوانب أكاديمية بحتة ... هذا أكثر تطلبا".

"خاصة بالنسبة لنا ... طلاب العلوم"، قال عبد الرحمن. "لم يعد الأمر مجرد معادلات بسيطة بعد الآن – إنه تطبيق واسع ونظريات متنوعة ... وبحث في مسائل معقدة ... هذا يتطلب تفكيراً وتركيزاً طوال الوقت. لا يوجد مجال للتخمين في هذا التخصص".

"وبالنسبة للتخصصات الأدبية، فهناك نوع آخر من المصاعب والتحديات"، أضاف يوسف. "على هؤلاء الطلاب القيام بتحليل النصوص بطرق متعمقة والغوص في تفسير المعاني والبحث عن الرموز ومناقشة وجهات نظر متعددة ... المسألة لا تتعلق بتقديم إجابات فقط، إنما تتعلق بعمق التفكير والتحليل".

"أتذكر أنني كنت أفكر كثيرا ... سأدرس بجد كما فعلت من قبل"، قال إبراهيم. "لكن هذا يتطلب منا طرقاً جديدة تماماً. لا يمكننا فقط الحفظ لتحقيق النجاح – علينا في الواقع أن ندرس ونفهم ونحلل ونتكيف باستمرار".

"هذا الفصل الدراسي ... إنه قاس"، تحدث أحمد الجاسم بصوت مرتفع. "بيئة جديدة، توقعات جديدة، أنظمة جديدة ... لقد كافحت فقط لأفهم كيف يريدونا أن ندرس ... وكيف نحقق النجاح".

"يراودني نفس الشعور"، أجابه عماد. "ستتخلف عن الركب إن اعتمدت على الأساليب الدراسية القديمة – قراءة كل شيء ... ومحاولة حفظ كل شيء بدون استراتيجية ... هذا لا يعمل هنا".

"كثافة المواد الدراسية لا تمنحك الكثير من الوقت للتكيف أيضا"، أكد إبراهيم. "الاستعداد للاختبارات يتطلب إدارة فعالة للوقت وعمل جاد منذ البداية".

"ويجب ألا نغفل عن مدى اختلاف أساليب التعلم"، قال يوسف. "ففي الأدب، يتعين على الطلاب القراءة بين السطور والفهم العميق للنظريات الأدبية وفهم السياق الثقافي والتاريخي لمختلف الأعمال الأدبية والمؤلفين أيضا".

"لكن الأمر ليس سهلاً"! أضاف يوسف. "أنت تتعامل أحيانا مع مفاهيم مجردة ... تشعر الشخص بالدوران".

"هذا صحيح"، أجاب تميم. "لكن نحن لدينا قواعد منظمة للاعتماد عليها ... أنتم، طلاب الأدب، تدورون في فلك غامض معظم الوقت".

"في كلتا الحالتين، إنه ضغط في كل مكان ... وبالنسبة لكثير من الطلاب، لا يقتصر الأمر على الضغط الأكاديمي فقط"، قال أحمد الجاسم بنبرة من الامتناع. "الابتعاد عن المنزل وتحمل ضغط وأعباء المعيشة ... هناك الكثير للتعامل معه".

"رغم مجانية التعليم، إلا أن كل شيء آخر يكلف كثيرا"، أضاف أحمد. "الإيجار والنقل والطعام ... في بعض الأيام، نقضي وقتا في وضع الميزانية أكثر من الدراسة ذاتها".

"نعم، ونشعر أحيانا بالإرهاق ... خاصة أننا لم نكن معتادين على التعامل مع كل شيء بمفردنا"، قال فلاح.

"لهذا السبب نجد طلاب السنة الأولى ما بين ناجح متميز وغارق بين الكتب يبحث عن قشة ليتعلق بها"، قال يوسف. "لا يمكنك الاعتماد على شيء واحد فقط ككثرة الدراسة أو الذكاء ... إننا بحاجة إلى المرونة والتعاون".

"بصراحة"، أجاب أحمد. "بدا ذلك الفصل الدراسي الأول وكأنه غربال. لقد أظهر حقا من كان مستعدا للحياة الجامعية ومن كان يحتاج إلى المزيد من التخطيط والعمل".

"بالنسبة لأولئك الذين لم يتمكنوا من التكيف ... فقد واجهوا مشاكل لا حصر لها وربما تسبب بعضها بتأخيرهم عن أقرانهم، وبعضهم ربما لم يتمكن من التعافي من تلك المشاكل"، أضاف فلاح.

"الدراسة وبناء المهارات المهمة ... التحليل وإدارة الوقت والتفكير ... الأمر لا يقتصر فقط على اجتياز الامتحانات، إنما يتعلق الأمر بالنجاح على المدى الطويل"، أضاف يوسف.

"هذه ليست مجرد أدوات أكاديمية"، قال عماد. "إنها ترسم من سنكون في المستقبل وفي سوق العمل أيضا".

"تماماً"، رد يوسف. "ذلك كان للتعاون وقعه الخاص ... مجموعات الدراسة مثلاً تساعد الطلاب عادة ... وكذلك تنظيم الوقت ومتى ندرس ومتى نأخذ قسطاً من الراحة".

"الضغط لا يزال كبيراً"، قال فلاح. "لكننا الآن نمضي قدماً بثقة أكبر".

"ربما هذا هو بيت القصيد"، أكد إبراهيم. "الجامعة لا تتعلق فقط بما نتعلمه في الفصل ... يتعلق الأمر بإدراكنا لكيفية التعامل مع الحياة".

خلال الفصول الجامعية الأولى، غالباً ما يجد الطلاب أنفسهم غارقين في كثافة المواد المطلوبة للدراسة، لكنهم مع بداية الفصل الجامعي الثاني، فإنهم يكتسبون خبرات كافية ورؤية أكثر شمولية عن حياتهم الجامعية وطبيعة سير الدراسة فيها من اختبارات وما إلى ذلك.

وقد ترجم التآزر بين هذه المجموعة من الطلاب أهمية العمل الجماعي ودوره في تحسين الأداء الأكاديمي وسهولة تحقيق التوازن بين الواجبات الجامعية والمتطلبات الشخصية. علاوة على ذلك، تحول الشك الذي كان يساورهم في الفصل الأول إلى شعور بالأمان والقوة والراحة النفسية، مما مكنهم من تنفيذ مهامهم بشكل أكثر كفاءة.

انقضى الفصل الدراسي الأول، وكان الطلاب على موعد مع عطلة ممتعة طال انتظارها في منتصف العام الدراسي. أتاحت هذه العطلة للطلاب فرصة حيوية للعودة إلى مدينتهم والتواصل مع العائلة والأصدقاء والراحة التي كانت بمثابة استعداد لانطلاقة جديدة في حياتهم الجامعية. كانت العطلة الشتوية، التي تستمر عادة لمدة شهر تقريباً فرصة قيمة للراحة والاستجمام.

أعطت هذه العطلة الطلاب فسحة للراحة النفسية وشحن مهاراتهم العقلية استعدادا لتحديات الفصل الدراسي الثاني. خلال هذه العطلة، حافظ العديد من الطلاب أيضا على روابطهم الاجتماعية من خلال الاجتماع بانتظام والاستمتاع بالمشي في مدينتهم التي اعتادوا عليها منذ الصغر. كانت لحظات الفرح والاسترخاء هذه مهمة للحفاظ على الروح المعنوية وتقوية أواصر الصداقة.

شهد الفصل الدراسي الثاني تحولا ملحوظا في رحلتهم الأكاديمية – رحلة تميزت بزيادة الثقة وزيادة الوعي حول متطلبات دراستهم الجامعية وتعزيز معارفهم وتطوير أساليب أكثر فعالية لإدارة الوقت والمواد الدراسية إضافة إلى الامتحانات التي بدأوا يعتادون عليها أيضا، مما جعل حياتهم الأكاديمية بشكل عام أكثر قابلية للإدارة.

بعد هذه الفترة من الراحة، عاد الطلاب إلى مساكنهم في دمر بطاقة متجددة وتصميم على تنفيذ المتطلبات الأكاديمية التي كانت بانتظارهم، مسلحين بالدروس المستفادة من الأشهر السابقة مما جعل الفصل الدراسي الثاني يشعرهم بثقة أكبر وإصرار أشد على تحقيق الأهداف.

شعر الكثيرون أن دراستهم أصبحت أسهل إلى حد ما مقارنة بالفصل الدراسي الأول، ويرجع الفضل في ذلك إلى حد كبير إلى معرفتهم المتزايدة بالنظام الجامعي والأساليب التي طوروها خلال دراستهم السابقة. مكنتهم الخبرة التي اكتسبوها من اكتشاف الحلول المناسبة للصعوبات والتحديات وابتكار استراتيجيات فعالة للتغلب عليها.

خلال إحدى الجلسات الطلابية في دمر، كان بعض الزملاء يناقشون مواضيع أكاديمية، وفجأة

سأل أحمد زميله عبد الحميد قائلا: "هل تعلم ماذا حدث لزميلنا علي؟"

هز عبد الحميد رأسه، وقال: "لا، لم أسمع شيئاً!"

قال أحمد: "كان علي نائماً في وقت مبكر واستيقظ فجأة مبتسماً ... فسألته عما حدث".

فقال لي: "لما كنت نائماً رأيت في منامي ورقة أسئلة اختباري القادم. لا زلت أتذكر بوضوح

السؤال الرئيسي، الأول" إنه سؤال مهم جداً، لأن 50 درجة من أصل 100 درجة مخصصة لهذا

السؤال ... بينما يتم تقسيم العلامات المتبقية بين سؤالين أصغر بمعدل 25 درجة لكل سؤال. لذلك

إذا لم يجب الطلاب على هذا السؤال الأول جيداً، فلن يكون لهم أي فرصة لاجتياز الاختبار.

أوماً أحمد برأسه، وقال: "كنت أمل أن يتحقق حلمه، وطلبت منه أن يدرس ويحفظ إجابة هذا

السؤال بشكل جيد".

فأجابه علي: "بالتأكيد ... أود أيضاً أن أخبر زملائي عن هذا لدراسة هذا السؤال وحفظ الإجابة

جيداً".

"في طريقه إلى الامتحان"، قال أحمد. "طلب علي من الجميع أن يركز على ذلك السؤال المهم،

فاستجاب له زملاؤه وقاموا بحفظ الإجابة جيداً".

"ومن شدة دهشة علي"، أضاف أحمد. "عندما استلم ورقة الامتحان ... كان ذلك السؤال هو الأول

— تماماً كما رآه في الحلم. كان سعيداً، لكن الصدمة الحقيقية جاءت عندما حاول كتابة الإجابة ...

لم يستطع أن يتذكر شيئاً. جميع زملائه كتبوا إجاباتهم بشكل جيد خاصة بعدما أكد لهم بأن ذلك

السؤال مهم جداً ... كلهم نجحوا ... إلا علي".

"هذا لا يصدق"، قال عبد الحميد. "كيف تم ذلك؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك ... على أي حال، يأتي الطلاب دائما بأشياء غريبة! تماما مثل وجبة منتصف الليل التي أعدها ياسر وفلاح ... ففي منتصف الليل جاء ياسر بفكرة عجيبة ... اقترح أن يطهو البامية ويصنع الثرود في ذاك الوقت المتأخر من الليل".

في ذلك الوقت المتأخر، قال ياسر: "هيا يا رفاق ... إنها الساعة 2 صباحا ... لنبدأ الآن بتحضير وجبتنا الشهية!"

رد عليه يوسف معارضا لفكرته: "لا أحد يأكل هذا النوع من الوجبات في هذه الساعة! عادة ما يفعل الجميع ذلك في منتصف النهار".

هز حمزة كتفيه وقال: "إنها فكرة غريبة ... لكنها قابلة للتنفيذ!"

"ليس لدينا وقت نضيعه"، قال ياسر بحماس. "لنبدأ التنفيذ الآن!"

صفق فلاح بيديه معا: "حسنا، ها نحن ذا ... سأبدأ في تحضير البامية".

هز يوسف رأسه، وقال: "هذه فكرة مجنونة ... لكن إذا كنتم ستفعلون ذلك، فمساعدكم".

بدأ ياسر وفلاح في تحضير المكونات، ثم انضم باقي المجموعة ... لإعداد الأواني وإشعال النار وتنظيم المطبخ. في وقت قصير، امتلأت الشقة بصوت التقطيع والأزيز ورائحة البامية التي لا تخفى على أحد.

بحلول الساعة 4 صباحا، تماما عندما تردد صدى أذان الفجر أصبحت تلك الوجبة جاهزة.

وبما أنهم كانوا معجبين بإنجازهم في الطهي ... خطرت لفلاح فكرة أخرى فقال: "دعونا نوقظ جارنا حسين – يجب أن يأكل معنا".

"فكرة جيدة"، قال ياسر ... وقد توجه بالفعل نحو غرفة حسين.

[طرق الباب مرارا] ... في الداخل ، تحرك حسين مستيقظا لكنه كان أيضا مرتبكا ومنزعجا. لم يطرق أحد بابه في مثل هذه الساعة. عندما فتح الباب كان لا يزال شبه نائم.

ابتسم ياسر ، وقال: "تعال معنا – لقد انتهينا للتو من طهي البامية وأعدنا الثرود!"

حرق حسين في وجهه ياسر وهو لا يستطيع أن يستوعب أو يصدق ما سمع. "أحقا تعني ذلك!"

قال حسين. "أيقظتني في الساعة 4 صباحا من أجل البامية؟ ما خطبكم أيها الطلاب؟"

بعد أن أتم كلماته، أغلق الباب وعاد إلى النوم.

جلس الطلاب معا، واستمتعوا بوجبتهم، وأدوا صلاة الفجر، ثم ذهبوا للنوم.

كان الوقت يمر سريعا ولم يشعروا به نتيجة الأجواء الطلابية المميزة التي كانوا يعيشونها. ومع حلول نهاية الفصل الدراسي الثاني، كان الطلاب قد أكملوا أول عام أكاديمي لهم، وهذا إنجاز مهم يرمز إلى تكيفهم مع الحياة الجامعية والتزامهم بأهدافهم التعليمية. كما استعدوا لمساعدة زملائهم الآخرين الذين سينضمون إليهم قريبا لاسيما محمد الرهاوي وغنام الساير وسعود الحميد.

ومع اقتراب العطلة الصيفية، كان هناك شعور عام بالارتياح والإثارة بشأن العطلة القادمة ... ممزوج بالترقب والفرح، غير أنه كان لزاما عليهم التفكير والإعداد لمعسكر التدريب الجامعي الذي كان يلوح بالأفق.

في سوريا، تم دمج برنامج التدريب العسكري مع المناهج الجامعية ليمثل مكونا إلزاميا في التعليم العالي. لم يكن الطلاب ليتخرجوا أو يحصلوا على شهاداتهم الجامعية دون إتمام سبع معسكرات تدريب جامعي موزعة على مدار فترة دراستهم.

ويشمل كل عام، باستثناء السنة الرابعة، دورتين من هذا القبيل: دورة مدتها أسبوعان في نهاية الفصل الدراسي الشتوي ودورة مدتها ثلاثة أسابيع في منتصف الصيف. كانت السنة الرابعة مختلفة قليلا، إذ كان على الطلاب حضور دورة شتوية واحدة لمدة أسبوعين فقط. وفقا لهذه المتطلبات، كان يجب على جميع الطلاب المشاركة في التدريب الجامعي المنتظم كجزء من مسؤولياتهم الأكاديمية.

كانت لهذه الدورات أهدافا مختلفة مثل تلبية المتطلبات الأكاديمية بالنسبة للطلاب والعمل كشكل من أشكال الخدمة العسكرية الإلزامية بالنسبة للسلوك العسكري. من خلال هذه المشاركة، كان النظام يلزم الطلاب الجامعيين بإتمام المستوى الأساسي المطلوب للإعداد العسكري قبل التخرج. في الوقت ذاته، كان لهذا التدريب تأثيرا على خدمة الطلاب العسكرية الإلزامية في مرحلة ما بعد التخرج. كان يتمتع جميع الذين أكملوا الدورات السبع بخدمة عسكرية إلزامية مخفضة بعد التخرج. على وجه التحديد، يطلب من الطلاب الذين استوفوا معسكرات التدريب الجامعي أن

يخدموا لمدة عامين فقط، على عكس الذين لم يشاركوا في هذه الدورات إذا كان عليهم أن يخدموا لمدة عامين ونصف.

كان تخفيض الخدمة مهما للطلاب لذلك كانوا يلتحقون بمعسكرات التدريب دون تردد لأنه يؤدي إلى تخفيض خدمتهم العسكرية اللاحقة بمعدل 6 أشهر وهي ميزة كبيرة نظرا لمتطلبات الخدمة اللاحقة وعدم الرغبة بالالتحاق بالخدمة العسكرية. بالنسبة للعديد من الطلاب، كان تخفيض الخدمة عاملا حاسما في استعدادهم للمشاركة في التدريب، حتى لو كان يُنظر إلى الدورات نفسها على أنها عبء إضافي خلال سنواتهم الدراسية.

ورغم الطبيعة الإلزامية للتدريب الجامعي، تعامل الطلاب مع هذه الدورات بدرجة من الفكاهة ... وحتى التناول أحيانا. بينما أدرك الكثيرون أن التدريب هو التزام ضروري – إذ لا يمكنهم التخرج واستلامهم شهاداتهم إلا بعد إتمامه – وجد البعض جوانب إيجابية في تلك التجربة.

من فوائد تلك الدورات التدريبية إتاحة الفرص للطلاب للقاء أقرانهم خارج البيئة الأكاديمية التقليدية، مما عزز الشعور بالصدقة والأهداف المشتركة في مساعدة بعضهم للمضي قدما في أهدافهم الأكاديمية والعملية. بالنسبة للبعض، كان التدريب بمثابة فرصة لاكتساب مهارات وخبرات جديدة أثبتت لاحقا أنها ذات قيمة، على الصعيدين الشخصي والمهني.

كما زود التدريب الجامعي الطلاب بمنظور مختلف حول الانضباط والعمل الجماعي والمسؤولية، وهي صفات تساهم في تعزيز تطورهم الأكاديمي.

استفاد الطلاب أيضا من هذه الدورات في زيادة معرفتهم عن جوانب الحياة العسكرية، إضافة إلى تحسين اللياقة البدنية والتدريب العسكري الأساسي وفهم الهيكل التنظيمي ومتطلبات القوات المسلحة. اعتبر البعض هذه الدورات كتجربة مفيدة تساهم أيضا في تجاربهم كأفراد ومواطنين، رغم مخالفة زملاء آخرين لهذا الرأي.

الفصل الثالث

صيف 1998

معسكر التدريب الجامعي – الأسبوع الأول

مع بلوغ فصل الصيف ذروته، بدأ الطلاب في الاستعداد لمعسكر التدريب الجامعي القادم – وهو برنامج يستمر لمدة ثلاثة أسابيع ويتطلب إقامة دائمة داخل مرافق المعسكر حتى نهاية المدة المحددة. خلافا لمعسكر التدريب الشتوي الذي يمنح الطلاب إمكانية العودة إلى منازلهم يوميا بعد إتمام الأنشطة المجدولة من الساعة 7:00 صباحا حتى 2:00 مساء، فإن المعسكر الصيفي يتضمن أنشطة مسائية وحضور كامل طوال الفترة المقررة.

منذ وصولهم، لم يسمح للطلاب بمغادرة المعسكر حتى إتمام البرنامج ... مما يعني أن الاستعدادات اللوجستية والشخصية ضرورية لإتمام المعسكر بسهولة.

بدأ الطلاب في تنظيم أنفسهم قبل أيام لتجنب أي عقبات ممكنة، وقاموا بإعداد احتياجاتهم الشخصية والمتطلبات الأساسية التي يحتاجونها خلال الأيام المقبلة.

كان من بين الاستعدادات المطلوبة التوافق حول وسيلة النقل للذهاب إلى المعسكر الذي يقع على بعد 50 كيلومتر تقريبا من مدينة القورية ... قرب مركز مدينة دير الزور على الضفة اليسرى لنهر الفرات. وإدراكا منهم لأهمية النقل والوصول في الوقت المناسب، اتفق الطلاب على تنسيق

مغادرتهم بشكل جماعي، بدلا من الاعتماد على وسائل النقل العام أو الترتيبات الفردية، فقرروا الاتفاق مع شخص معين ليقلهم إلى المعسكر.

أخذ حمزة زمام المبادرة للتعامل مع مسألة النقل، واقترح التواصل مع درغام، سائق حافلة معروف لدى الجميع ... يعرف على أنه شخصية محترمة في كافة أرجاء المدينة. كان لديه حافلة صغيرة بيضاء (ميكروباس - هيونداي) قادر على استيعاب كافة الطلاب دفعة واحدة. قبل اقتراح حمزة بموافقة فورية، خاصة أن كافة الطلاب كانوا يعرفون درغام شخصيا وكان يحظى بتقدير كبير بسبب احترامه والتزامه بالمواعيد وطبيعته المهذبة والمرحة.

دونها تأخير، تواصل حمزة مع درغام وناقش معه تفاصيل الرحلة ثم تواصل مع الطلاب لوضع اللمسات الأخيرة على جدول المغادرة ليكون مناسباً للجميع. ونظرا لانتشار الطلاب في مناطق مختلفة من المدينة، اقترح حمزة خطة تتضمن ثلاث نقاط تجمع رئيسية للمرور على كافة الطلاب بوقت قياسي. اتفقوا على أن كل مجموعة ستكون متواجدة في منطقة محددة حتى يمر درغام بهذه المناطق ويجمع الطلاب ليتجنبوا أي تأخير محتمل.

كان من المقرر أن تتجمع المجموعة الأولى بالقرب من الدوار المركزي، وهو معلم معروف في قلب المدينة ويقع بالقرب من منزلي درغام ويوسف. وافقت المجموعة الثانية على الاجتماع في القطاع الشمالي من المدينة، بينما خططت المجموعة الثالثة للتجمع في المنطقة الجنوبية. تألفت كل مجموعة من ثلاثة إلى أربعة طلاب، واستمروا بالتنسيق فيما بينهم لضمان تواجدهم في الوقت المحدد والمكان الصحيح.

في صباح يوم المغادرة، تم تنفيذ الخطة بدقة والتزم الجميع بالجدول الزمني المتفق عليه مما يعكس الانضباط والالتزام والتعاون بين أفراد المجموعة.

كان لدرغام دور حيوي في تنفيذ خطة النقل، محافظاً على سمعته من حيث الالتزام وضمان إنجاز المهام دونما تأخير. في ذلك اليوم، استيقظ الطلاب في وقت مبكر للتحضير لرحلتهم نحو المعسكر. وقام درغام بفحص الحافلة بدقة وتأكد من أنها جاهزة للانطلاق، ومن ثم اتجه نحو الموقع الأول. كان درغام على تواصل مع حمزة طوال عملية الاستعداد وحتى جمع الطلاب جميعاً، مما ساهم في سير العملية دون وقوع أي تأخير يذكر.

بعد المرور على المجموعات الثلاث، توجهت الحافلة إلى معسكر التدريب الجامعي. كانت الرحلة، التي امتدت لنحو 50 كيلومتر تتميز بالهدوء والسكينة مع قليل من المزاح الذي مزج بين الترقب والتصميم على إتمام المهام. كان الطلاب يعلمون أن الأسابيع المقبلة ستكون متطلبة وتحتاج إلى استعداد جسدي ونفسي ... وكان معظمهم جاهزين لتلك المرحلة.

وفقاً للوائح المعسكر، كان على جميع الطلاب أن يرتدوا الزي العسكري الرسمي الذي تم تسليمه لهم خلال معسكر التدريب الشتوي الأول في وقت سابق من ذلك العام. كان مظهرهم مميزاً وكانوا يبدون وكأنهم جنود نظاميون في الجيش السوري في ذلك الوقت، إذ يرتدون زي موحد يرمز في ظاهره إلى الانضباط والاحترام.

في سوريا وفي ذلك الوقت، كانت الخدمة العسكرية الإلزامية مسألة مثيرة للجدل. كان الزي الرسمي، على الرغم من أنه مطلوب لمعسكر التدريب، رمزا ينظر إليه العديد من المواطنين

بدرجة من النفور الصريح إذا يحاول كثير من الناس الابتعاد عنه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وتباينت المشاعر العامة تجاه الجيش نفسه بشكل كبير، إذ كان لدى العديد من الشباب مشاعر سلبية بشأن الانضمام إلى الجيش.

برزت هذه المشاعر نتيجة عدد من الأسباب الشخصية والسياسية وأخرى تتدرج بين الخلافات الأيديولوجية والمخاوف بشأن السلامة والحرية الشخصية والآثار الأوسع للانخراط في العمل العسكري وما صاحبه من فساد في تلك الأيام.

رغم كل هذه الاختلافات، استمر الطلاب بالتركيز على الهدف الأساسي من معسكرهم الصيفي وهو إتمام المدة التدريبية والعودة إلى منازلهم. كان التدريب يشبه الخدمة الإلزامية في الجيش من حيث الانضباط والروتين والتدريب، وكان أيضا يعتبر جزءا من الخدمة العسكرية الرسمية.

كانت رحلة الطلاب من مدينة القورية إلى المعسكر بداية فصل جديد ... فصل مليء بالترقب والقلق، ولكنه لم يخل من الفكاهة. استمر درغام والطلاب في رحلتهم إلى المعسكر، الواقع بالقرب من كلية الهندسة الزراعية، عبر سلسلة من المدن والقرى بما في ذلك محكان والميادين وبقرص ومو حسن، وغيرها.

كان الجو داخل الحافلة يمتاز بالمرح رغم ما ينتظر الطلاب من حجز كلي لمدة ثلاثة أسابيع في برنامج غير مرحب به بين كثير من الطلاب. منذ بداية الرحلة، تردد صدى الضحك في الحافلة وكان الطلاب يمزحون مع بعضهم البعض، ويسخرون من واقعهم الذي كانوا يسировون نحوه. كان مزاحهم بمثابة تسلية تبعدهم قليلا عن جدية التدريب الذي كانوا على وشك البدء به.

بينما كانت الحافلة تتقدم عبر الأراضي الخصبة لمحافظة دير الزور، أضاف المشهد الخارجي تباينا وأحيانا بعض الانسجام مع الأحاديث المفعمة بالحيوية داخل الحافلة. امتدت الأراضي الزراعية الشاسعة على جانبي الطريق، وتميزت بإطلالة خضراء نابضة بالحياة. تمايلت الذرة في حقولها الشاسعة مع هبوب نسيمات الرياح وبرزت صفوف مزارع الخضار لتبرز الجهود التي بذلت من أجل إعدادها وتكوينها على تلك الشاكلة إضافة إلى حقول الطماطم والخيار والبامية مما يضفي مزيدا من الجمال للمواقع الطبيعية المجاورة.

برزت حقول البامية، على وجه الخصوص، كواحدة من المحاصيل المميزة في المنطقة حيث يثير وجودها إحساسا بالإنجاز المحلي ... بينما وفرت الأراضي الخصبة المحيطة بنهر الفرات خلفية هادئة لتلك الرحلة.

لم يستطع درغام، الذي اتسم بالبهجة الدائمة وسرعة البديهة، تحمل الكثير من مسافة الرحلة دون حديث أو إضافة شيء من المرح إليها. بنبرة مرحة، التفت إلى الطلاب وقال مازحا: "مرحبا يا رفاق، استمتعوا بوقتكم في المعسكر! ستقومون بتجربة رائعة لا مثيل لها!"

رد نادر (مشككا)، "هل أنت متأكد من أننا سنستمتع به؟"

"بالطبع"، أجاب درغام بابتسامة. "أنتم لها، أنتم رجال المستقبل وحماة الديار! أنتم الجنود الذين سيحموننا عندما تأتي ساعة الصفر!"

[من مؤخرة الحافلة]، قال نادر بصوت عال: "نعم، تقصد الجنود المساكين ... الذين يتم جرهم إلى المعسكر جرا".

أضاف أحمد الجاسم، ساخرًا: "يا لنا من جنود عظماء حقًا! لدي شعور بأن هذا المعسكر المزعج سيستمر مدى الحياة. كل يوم ستشعر به وكأنه عام". [نفجرت المجموعة بالضحك].

على الرغم من أن مداخلاتهم كانت مليئة بالاستياء، إلا أنه كان من الواضح أنهم كانوا يستخدمون الفكاهة كوسيلة للتعامل مع الأعباء المتوقعة لمعسكر التدريب. كان مزاحهم شكلًا من أشكال التضامن – اتفاق ضمني على أنه إذا اضطرروا إلى المرور بهذه التجربة، فسوف يفعلونها على الأقل معًا وبقليل من الفكاهة.

أضفت شخصية درغام إشراقة جديدة إلى الرحلة، خاصة أنه اشتهر في المدينة ليس فقط بموثوقيته، ولكن أيضًا بذكائه، فقد استمر بمزاحه الخفيف التي رسمت البسمة على وجوه الكثير من الطلاب بعد عبوسها.

وبما أن درغام كان أحد أفراد العشيرة مثله مثل باقي الطلاب الآخرين، فقد كان لديه علاقات شخصية مع كل واحد منهم مما جعله يشعر بينهم بالألفة والثقة أكثر من مجرد سائق ... لقد كان جزءًا من دائرتهم، يشاركونهم تجاربهم ويقدم دعمه لهم بطريقته الفكاهية.

في محاولة لتخفيف حدة تشاؤم أحمد الجاسم، حاول عبد الحميد أن يشجعه قائلاً: "لا تقلق، أحمد! هذه الأسابيع الثلاثة ستمر بسرعة".

رد أحمد، وهو غير مقتنع تمام، قائلاً: "لا أعتقد ذلك! نحن نتحدث عن ثلاثة أسابيع وليس ثلاثة أيام! حتى لو كان المعسكر لمدة ثلاثة أيام فقد ... فإن ذلك طويل جدًا".

"اهدأ يا أأمد"، رد عبد الحميد بابتسامة. "فقط حاول ألا تفرط في التفكير في الأمر – ستنتهي الأمور على خير وبسرعة قصوى، إن شاء الله تعالى".

انضم عماد إلى المحادثة بنظرة إيجابية: "يا رجل! كل شيء سيسير بسلاسة. تحتاج فقط إلى التركيز على الجانب الإيجابي من الأمر كله".

أجاب أأمد، الذي لم يتأثر بكلام أي منهم: "الجانب الإيجابي؟ لا يوجد شيء إيجابي في هذه المعسكرات التدريبية. هل تعرف ماذا سنفعل هناك؟ لا شيء ذا أهمية ... إنه مجرد مضبعة للوقت والجهد".

رد باسل، أملا في المساهمة الإيجابية: "أأمد! إذا لم نذهب إلى المعسكر، فماذا سنفعل في هذا الصيف؟ تجلس في المنزل ... دون فعل أي شيء خلال موجة الحر هذه؟"

"أدركت ما تعني"، قال أأمد، وهو لا يزال محبطا. "لكن الحقيقة هي أنه ليس لدينا خيار ... علينا أن نذهب ونكمل معسكر التدريب ... سواء أحببنا ذلك أم لا".

تدخل عبد الحميد، قائلا: "هذا هو بالضبط بيت القصيد ... لذا من الأفضل ألا نفكر في الأمر كثيرا. أفضل طريقة لقضاء الوقت هي تقليل التفكير به. وفي يوم من الأيام، ربما بعد أن ننتهي من المعسكرات ودراستنا الجامعية، سيصبح كل ذلك من الذكريات الجميلة التي لا تنسى - شيء سنضحك عليه وسنتذكره بشكل إيجابي في المستقبل".

تلقى الطلاب هذه الكلمات بالقبول وبدا أن صدى تلك الكلمات أخذ حيزا في تفكير كل واحد منهم مما يعكس التفاهم المشترك بأن الأمور التي لا نرغب بها الآن قد تتحول إلى أشياء جميلة يسرنا تذكرها في المستقبل. في الوقت الحالي، قد يستأوون من الالتزام بمدة المعسكر، ولكن مع مرور الوقت يمكن أن تأخذ تلك التجربة معنى مختلفا. في وقت لاحق، غالبا ما تتطور مثل هذه اللحظات خاصة تلك التي تتم مشاركتها مع الأقران إلى قصص قيمة تعبر عن المرونة والصداقة والنضج الشخصي.

مع استمرار الحافلة في رحلتها وعبورها المدينة تلو الأخرى واقترابها من وجهتها، ظل نهر الفرات رفيقا دائما، يتدفق بثبات بجانبهم. كان الطريق أمامهم يرمز إلى أكثر من مجرد مسار نحو معسكر التدريب ... إنه يمثل انتقالا من الراحة إلى التحدي، ومن الروتين المألوف إلى الجداول الزمنية الصارمة، ومن أيام الصيف الهادئة إلى تجربة تدريب منظمة لا يمكن لأي منهم التنبؤ بما سيحدث بها في قابل الأيام.

على الرغم من شكواهم واحتجاجهم، إلا أن تألف الطلاب وروح الدعابة والتجارب المشتركة أعطت الرحلة شعورا مغايرا. أصبحت المسافة الفاصلة بين مدينتهم ومعسكر التدريب أكثر من مجرد مسافة ليقطعوها بعد أن تحولت إلى فرصة للتواصل والضحك والاستعداد الذهني لما هو آت. مع وجود درغام، المفعم بالحيوية، ودعم بعضهم البعض، عبّر الطلاب إلى تجربة جديدة ... تجربة من شأنها حتما أن تشكل ذكرياتهم، وربما حتى شخصياتهم.

عندما وصل الطلاب إلى معسكر التدريب الجامعي، كان واضحا عليهم الاستعداد الجسدي والنفسي لخوض تجربة المرحلة القادمة. لقد آتى التخطيط والتنسيق الدقيق ثماره، مما مكّن الطلاب من الوصول في الوقت المحدد، وبروح معنوية جيدة. كانت الرحلة دليلا ليس فقط على أهمية التنظيم والتعاون، ولكن أيضا على قوة الروابط المجتمعية التي نشأت بين المجموعة.

ما بدأ كتحد لوجستي بسيط أصبح تجربة مشتركة عززت الاحترام المتبادل والثقة والمسؤولية الجماعية، وهي صفات من شأنها أن تخدم من يتحلى بها في الأوقات الصعبة المقبلة.

عندما توقفت الحافلة قرب مدخل معسكر التدريب الجامعي، اجتاحت الطلاب موجة من المشاعر المختلطة... مشاعر تتدرج بين الإثارة والشك والشعور بانعدام الراحة لما ينتظرهم. وقف درغام بجانب الحافلة وقال لهم بابتسامة تعلو وجهه: "حسنا يا رفاق، ها نحن ذا! استمتعوا بمعسكر التدريب الجامعي. سأعود إليكم بعد 21 يوما".

في هذه الأثناء، جمع الطلاب حقائبهم واستعدوا لدخول المعسكر.

منذ تلك اللحظة، عِلّم الطلاب أنهم قد دخلوا مكانا لا خروج لهم منه حتى نهاية المدة المحددة... ولن يكون هناك متسع للراحة ولا زيارات ولا فرصة لمغادرة المعسكر، حتى لو لبضع ساعات. خلال الأسابيع الثلاثة المقبلة، كان عليهم أن يستمروا في البرنامج، ملتزمين بكافة الجداول الزمنية الموضوعية لهم دون أي استثناءات.

عند وصولهم، تم الترحيب بهم من قبل طاقم المعسكر. وفي تلك الأيام، كان على رأس قيادة المعسكر العقيد إسماعيل والرائد حسين وعدد من الملازمين والجنود الذين يشرفون على عمليات التدريب اليومي.

منذ الوهلة الأولى، بدأ الضباط في تنظيم الطلاب في مجموعات وتوزيعهم على الخيام المترامية على أطراف المعسكر. تم تخصيص خيمة قماشية على الطراز العسكري لكل مجموعة وكانت بمثابة سكن لهم طوال مدة التدريب.

كان يوسف وحمزة وعماد وفلاح والعديد من أصدقائهم المقربين محظوظين لأنهم أقاموا بنفس الخيمة، وتم توزيع ما تبقى من الطلاب على الخيام المجاورة، مما أبقى المجموعة قريبة بما يكفي للحفاظ على الشعور بالوحدة والتواصل المستمر. على الرغم من أن الخيام كانت مخصصة لتكون سكنهم في تلك الفترة، إلا أنه لم تمض سوى ساعات حتى تكيف الطلاب مع الواقع الجديد وخاصة الطقس.

كانت حرارة أواخر الصيف مرتفعة، خاصة داخل الخيام التي كانت تحتفظ بالحرارة. نتيجة لذلك، سرعان ما اتخذ الطلاب إجراءات فردية واستخدموا الخيام فقد لوضع متعلقاتهم ... كانوا ينامون في الخارج ليلاً في الساحة المقابلة لخيامهم. وفي النهار، اعتادوا الاستراحة تحت ظل الأشجار العالية المحيطة بالمعسكر من كل الاتجاهات.

أصبحت المساحة المفتوحة بين الخيام ملجأهم الليلي، من خلال وضع فرشهم مباشرة على الأرض، للاستمتاع بالنسمات المسائية الباردة. كانت السماء فوقهم صافية بشكل لافت للنظر –

خالية من التلوث الضوئي للمدن والبلدات – مما رسم فوقهم لوحة مرصعة بعدد لا يمكن حصره من النجوم والكواكب.

في المساء، غالبا ما يجد الطلاب أنفسهم تحت هذه السماء المضاءة بالنجوم، وهم يفكرون أو يتحدثون أو فقط يستمتعون بالهدوء. في تلك اللحظات، يتلشى الإرهاق الجسدي الذي علاهم خلال النهار ويحل محله تأمل لهدوء وسكون الطبيعة في الليل خاصة عندما ينام معظم الناس.

لقد بدأت الأنشطة التدريبية رسميا في اليوم الثاني، وتم وضع جدول يومي صارم مع شيء من الرتابة والتكرار في التدريب والأنشطة. كانت قيادة المعسكر تأمر الطلاب بالاستيقاظ باكرا بحلول الساعة 6:00 صباحا، إيدانا ببداية أنشطتهم ومحاضراتهم التدريبية الصباحية. شغلت التدريبات البدنية والتمارين العسكرية والروتين الذي يركز على الانضباط الساعات الأولى من كل يوم. وبعد انتهاء بعض الأنشطة، يتناول الطلاب وجبة فطور متواضعة تليها استراحة لمدة ساعة واحدة للراحة قبل البدء بالأنشطة والمحاضرات مجددا.

يأتي الوقت المتأخر من الصباح بجولة أخرى من التدريب تستمر حتى الساعة 2:00 ظهرا. تنوعت هذه المحاضرات ما بين التدريب على استخدام بعض الأسلحة والأساليب العسكرية ... وغالبا ما تقام تحت ظل الأشجار الكبيرة المحيطة بساحة المعسكر. رغم كل التحديات، عمل الطلاب على إعداد أنفسهم لتلبية التوقعات، مدركين أن الوقت سيمر بسرعة أكبر إذا لم يفرطوا في التفكير فيه.

في الساعة 2:00 ظهرا، يسمح الجدول الزمني للمعسكر باستراحة أطول تستمر 3 ساعات. كان معظم الطلاب يستفيدون من هذه الاستراحة للراحة أو المشاركة في محادثات جماعية أو حتى أخذ قيلولة قصيرة ... كان بعضهم يلعب الورق أيضا لقضاء الوقت.

بحلول الساعة 5:00 مساء، كان عليهم أن يستأنفوا التدريب لمدة ساعتين. وغالبا ما تضمنت المحاضرات المسائية تدريبات عملية أكثر وأنشطة جماعية هادفة.

عند الساعة 7:00 مساء، تنتهي الأنشطة الرسمية لكل يوم. في هذه الأوقات عادة ما يكون لدى الطلاب متسعا من الوقت يمتد حتى الصباح القادم ... بينما تكون الأيام مرهقة ورتيبة للغاية، تختلف عنها الأمسيات تماما لأنها تقدم شعورا جيدا ووقتا للهدوء والسكينة. خلال هذه اللحظات، وجد الطلاب طرقا مختلفة لرفع معنويات بعضهم البعض وجعل التجربة أكثر راحة.

رغم أن العديد من المحاضرات كانت مرهقة جسديا وتجعلها الرتابة مملة أكثر، إلا أن الطلاب تمكنوا من إدخال حس الفكاهة والمرح في روتينهم اليومي. لقد كانوا يقضون وقتهم بالمزاح وسرد القصص وتسليية بعضهم البعض بسرد بعض القصص الهزلية. أنشأت هذه التفاعلات إحساسا قويا بالصدقة تجاوز صعوبة وتعقيدات معسكر التدريب.

بالنسبة لمعظمهم، كانت التجربة مختلفة عن أي شيء عرفوه من قبل. كانت البنية الشديدة والمطالب الصارمة والشعور بالعزلة عن العالم الخارجي تحديات جديدة. مع ذلك، وضمن هذه القيود، اكتشفوا في أنفسهم المزيد من المرونة على الصعيدين الفردي والجماعي.

العلاقات التي تشكلت خلال تلك الأسابيع الثلاثة، والتي عززتها المصاعب المشتركة وحس الفكاهة خلقت روابط سيتذكرها الكثير منهم بعد انتهاء المعسكر.

رغم أنهم دخلوا المعسكر بشعور من التردد وغالبا ما أعربوا عن إحباطهم من الروتين، إلا أنهم بدأوا في التكيف. وبمرور الوقت، أصبح التدريب أقل تركيزا على الامتثال للأوامر ... وركز على قوة التحمل والتكيف.

هكذا، مضت الأيام، واحدا تلو الآخر، وتميزت التدريبات بالانضباط إضافة إلى لحظات من الراحة والمرح والهدوء والتأمل تحت النجوم. ربما لم يكن المعسكر مكانا للراحة أو الاختيار، لكنه أصبح مساحة للنمو والنضال المشترك، وربما الأهم من ذلك، ذكريات دائمة.

في اليوم الثالث من المعسكر، عندما بدأت الشمس بالتلاشي خلف الأفق، اجتمع الطلاب لحضور مقرر التدريب المسائي. كانت الساعة حوالي 6:00 مساء، واجتمع الطلاب في المنطقة المفتوحة المخصصة، مستعدين – إن لم يكونوا متحمسين – لجولة أخرى من التعليمات العسكرية. كان المدرب المسؤول عن تلك الجلسة هو الرقيب روني، وهو رجل متسامح معروف باحترامه للآخرين وانضباطه.

مع بدء الجلسة، بدأ الرقيب روني في شرح مفصل لبعض التكتيكات العسكرية وتحدث بشغف، مؤكدا على أهمية التركيز والانتباه والانضباط. كانت لهجته حازمة وتهدف إلى غرس الشعور بالمسؤولية في المتدربين الشباب.

مع ذلك، وفي منتصف حديثه، قاطعه أحد الطلاب برفع يده، كما لو أنه فاتته شيء مهم وأراد استدراكه. بدت الجدية ترتسم على وجه ذلك الطالب.

قال الطالب: "لدي سؤال سيدي الرقيب".

توقف روني لوهلة، منزعاً قليلاً من المقاطعة، وقال: "هل يتعلق الأمر بالموضوع الذي نناقشه الآن؟"

أجاب الطالب: "ليس تماماً. إنه اقترح أكثر من كونه سؤالاً".

تفوس حاجب الرقيب، وقال: "اقترح؟ لي؟"

"نعم سيدي"، أوماً الطالب برأسه بثقة.

"حسناً إذن"، قال روني – الذي بدا مشككاً بما لدى الطالب: "دعنا نسمعه".

ابتسم الطالب بخبث، وقال: "اسمك روني، أليس كذلك؟"

قال الرقيب: "نعم، هذا صحيح".

"حسناً"، قال الطالب. "أقترح أنه إذا تزوجت وأنجبت ولداً ... أن تسميه إلكت".

تبع ذلك ثواني من الصمت المطبق، ثم سأل روني، وهو مرتبك بشكل واضح، "لماذا أسميه هكذا؟"

"لأنه بعد ذلك سيكون اسمه ... إلكتروني!" قال الطالب بصوت مرتفع.

لمجر ثانية أو اثنتين، صمت الطلاب جميعا ... ثم انفجروا بالضحك الذي عم الساحة كلها ... لم يستطع كثير من الطلاب السيطرة على أنفسهم من شدة الضحك. حاول بعض الطلاب كتم أصواتهم، لكنهم لم يفلحوا ولم يستطع آخرون احتواء أنفسهم. لقد كان وقع التلاعب بالألفاظ كبيرا على أسماع الطلاب ... واخترق الجو الجاد لجلسة التدريب العسكري صوت الضحك الذي علا فوق كل اعتبار وتعليمات عسكرية.

لم يجد الرقيب روني النكتة مسلية تقريبا، بل شعر بالحرج.

"كفى!" صرخ روني. "اخرس! اخرسوا جميعكم!"

ارتفع صوته فوق الضحك، مخترقا الضوضاء التي حدثت. ثم ببطء، هدأ الطلاب، وقد كافح الكثير منهم لإزالة الابتسامة من على وجوههم ... من الواضح أنه بينما كان الطلاب يحاولون استعادة رباطة جأشهم، كانوا يكافحون لكبت روح الدعابة التي دفعتهم للضحك دفعا.

وفي محاولة من روني لاستعادة النظام، واصل الجلسة والحديث عن نفس الموضوع ... لكن بعض الطلاب ما زالوا مطأطئين رؤوسهم ويضحكون بهدوء لأنهم لم يتمكنوا من السيطرة على أنفسهم بعد.

"استمعوا جيدا"، حذر روني الجميع وأصبح صوته أكثر حزما. "أنتم في معسكر تدريب. هذا ليس بناد للتسلية. نتوقع منكم أن تكونوا قدوة لغيركم وأن تتبعوا التعليمات وتتصرفوا بشكل مناسب. إذا لم تلتزموا في ذلك فستكون هناك عواقب وخيمة. لا تختبروا صبر الإدارة!"

وضعت نبذة تحذيره حدا للضحك، واستشعر الطلاب التوتر المتزايد للرقيب، وأعادوا انتباههم بسرعة. على الرغم من الفكاهة، فقد فهموا طبيعة بيئة المعسكر. عندما استأنف الرقيب محاضراته شعروا بالهدوء، وأعادوا النقاش حول الموضوع السابق وتحدثوا عن أهمية التدريب وقيمه.

رفع فلاح يده ليستفسر عن أمر آخر.

سيادة الرقيب، قال فلاح: "هل لي أن أطرح سؤالاً؟"

أعطى روني إيماءة بقبول السؤال. "تفضل".

"هل هذه الدورات التدريبية مفيدة حقاً؟" سأل فلاح.

عبست ملامح روني، وأجاب بنبرة فيها الكثير من الثقة: "نعم بالتأكيد. هذه الجلسات مهمة لعدة أسباب. أولاً: تعزز القوة البدنية والعقلية للمتدربين وكذلك الانضباط والمرونة. ثانياً: تزيد المعرفة العسكرية الأساسية – المهارات التي قد تخدمك في وقت لاحق من حياتك، خاصة إذا تم استدعاؤك للخدمة فيما بعد. وبعد إكمال هذه الدورة، ستكون أكثر استعداداً وأكثر دراية بالبيئات العسكرية وأكثر قدرة على التعامل مع التحديات".

رفع طالب آخر يده، ثم قال مشككاً: "سيدي الرقيب، مع كل الاحترام. إذا تعلمنا شيئاً الآن فإننا سننساه بعد فترة وجيزة، ألا يجعل هذا التدريب عديم الفائدة؟"

هز الرقيب روني رأسه، وقال: "لا، على الإطلاق. قد تنسى تفاصيل محددة، هذا صحيح، لكنك لن تنسى كل شيء. تبقى بعض الدروس معك – ليس فقط الحقائق، ولكن العادات والمواقف وطرق التفكير. ستحمل هذه معك سواء أدركت ذلك الآن أم لا".

كان هناك صمت للحظات بينما كان الطلاب يفكرون في كلماته ... وبقي البعض غير مقتنع ... وأوماً البعض بالموافقة. لقد بدت البيئة على الرغم من صرامتها بأنها تقدم بعض الفوائد ولم تكن مجرد قواعد وروتين، بل كانت تساهم في النمو الشخصي للطلاب وتعزز خبراتهم وتجاربهم المشتركة.

أخيراً، نظر روني إلى ساعته وقال للطلاب: "حسناً، انتهت الجلسة. إذا لم يكن لديكم المزيد من الأسئلة، فأنتم أحرار ... يمكنكم المغادرة".

أجاب الطلاب في انسجام تام: "شكراً لك سيادة الرقيب، لا أسئلة".

ربما أزعجت تلك النكتة الرقيب روني في ذلك الوقت، إلا أن الجلسة أكدت جانبين مهمين، هما: احترام القواعد والضوابط مع تسليط الضوء على قوة روح الدعابة وتخفيف الضغط والتوتر خلال المحاضرات التدريبية.

عندما غادر الطلاب الجلسة، ارتفع صوت قهقهتهم مرة أخرى عبر الساحة لأن آثار تلك النكتة لا تزال شديدة الوقع عليهم. بعد ذلك، استمر الطلاب في سرد النكتة مرات ومرات قبل وبعد انتهاء معسكر التدريب الجامعي. ورغم صرامة الجدول الزمني وجدية التدريب، كان الطلاب دائماً

يجدون أو يصنعون لحظات من المرح، مما يعني أنه حتى في أكثر البيئات تنظيماً وقساوة فإن الفكاهة والمرح يجدان مكانهما هناك.

الفصل الرابع

صيف 1998

معسكر التدريب الجامعي – الأسبوع الثاني

تسلل ضوء الصباح الباكر من خلال أغصان أشجار الكينا والسرو الشاهقة، وألقى أنماطا متناثرة من الظل على الأرض في الأسفل. في هذه الأثناء، جلس أربعة من الشباب – يوسف وحمزة وفلاح وعبد الحميد – بالقرب من بعضهم تحت ظل الشجر، ولا تزال أجسادهم منهكة قليلا من جلسات التدريب العسكرية المكثفة في الصباح.

بدأت حرارة النهار بالارتفاع تدريجيا، لكن ظل الأشجار العالية والكثيف وفر بعض الراحة ولطف من حرارة الجو، مما سمح لهم بالاستمتاع بلحظات وجيزة من السكون في بيئة تعمها الرتابة.

على بعد أمتار قليلة فقط، وقف جندي كان مكلفا بالحراسة ... لم يكن وضعه مطمئنا أبدا ... لم يكن مرتاحا ولا قلقا ولا في حالة تأهب ... بدا أمره غريبا ... كأنه لم يكن يقف في المكان المناسب ... شاب يتأرجح ما بين الغموض والارتباك. أطلق عليه الطلاب اسم بطوط، وهو لقب ظل عالقا به ولم يذكر أحد اسمه الحقيقي خلال فترة المعسكر ... أو ربما لم يعرف أحد اسمه الحقيقي. اعتاد الطلاب على هذا الاسم وكانوا ينادونه به ... لم يحاولوا أيضا التأكد إن كان له اسم آخر أم لا.

وقف بطوط وبندقيته، كلاشينكوف AK-47، معلقة على كتفه. كان هذا النوع من السلاح مخيفاً، فهو أكثر من مجرد أداة توضع بين يدي الحرس للفت الانتباه إليهم ... ربما كان يرمز – بين يدي شخص مثل بطوط – للقوة ومحاولة السيطرة وكذلك الخطر المائل أمام الطلاب لما يمكن أن يحدث فجأة.

لقد درس الطلاب عن هذا النوع من السلاح ما فيه الكفاية أثناء تدريبهم ... هم يعلمون أن هذه البندقية تعمل على وضعيتين لإطلاق النار: وضعية شبه آلية، ووضعية آلية بالكامل. ويستوعب مخزنها المقوس ما يصل إلى ثلاثين طلقة ... في الوضع الآلي الكامل، يمكنها إفراغ كل مخزنها في بضع ثوان فقط. إنها أداة قاتلة – سهلة الاستخدام لكنها مميتة ومرعبة عندما تكون في اليد الخاطئ ... عندما رأى يوسف بطوطاً على تلك الحالة، بدأ في التفكير.

على الرغم من أن بطوطاً لم يُظهر أبداً أي علامات واضحة تدل على العنف، إلا أنه كان هناك شيء مقلق يبدو من هيئته. لم يكن مجنوناً، لكنه بالتأكيد لم يكن على ما يرام أيضاً ... لكن هناك شكوك حول قدراته العقلية جعلت الطلاب يبتعدون قليلاً عنه.

بينما كانوا جالسين يتحدثون عن أنشطة الصباح ويتكهنون ببقية جدول اليوم، انحنى يوسف فجأة إلى الأمام، وعبس وجهه وتجعد جبينه من الفضول ... ممزوجاً بومضة من القلق.

"هل تعتقدون أن بندقية بطوط مخررة؟" سأل يوسف بصوت منخفض، أعلى بقليل من الهمس.

لفت السؤال انتباه الثلاثة الآخرين على الفور.

هز فلاح كتفيه. "لماذا لا يكون؟ إنه حارس!"

"لكنه بطوط"، رد يوسف. "هل تثقون به حقا وهو في جواركم؟"

اتكأ حمزة على الشجرة، وطوى ذراعيه. "ربما يعبثون معه فقط. إعطائه بندقية فارغة ... فقط ليجعلوه يشعر بأهميته".

أوما يوسف برأسه، قائلا. "سأكتشف ذلك".

تحدث إلى بطوط بهدوء مع ابتسامة عريضة. "بطوط"، قال يوسف.

التفت بطوط نحوه بسرعة، وقال. "ماذا تريد!"

"هل بندقيتك مذكرة؟" سأل يوسف مباشرة.

بدا بطوط مندهشا من السؤال لكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه. "بالطبع، إنها مذكرة بالكامل.

أعطتني القيادة طلقات كثيرة هذا الصباح!"

رفع يوسف حاجبيه متظاهرا بأنه يشك بما قال. "لا أعتقد ذلك. أعتقد أنهم يخبرونك بذلك فقط.

لماذا يعطونك ذخيرة حية؟"

عبس بطوط، وقال: "لماذا لا يفعلون؟"

"يا رجل"، قال يوسف ضاحكا. "أنا لا أحاول إهانتك، لكن هذا لا معنى له. هل تعتقد حقا أنهم

يثقون بك حتى يعطوك ذخيرة حية؟"

رفع بطوط رأسه وأمسك ببندقيته بشكل أكثر صرامة. "نعم، إنهم يثقون بي. قلت لك، إنها مذكرة".

تابع يوسف الحديث. "إذا كنت واثقا من نفسك، فأثبت ذلك. انزع المخزن عن البندقية حتى نرى ... بعد ذلك سنصدقك".

ازداد التوتر للحظات، وحقق بطوط في يوسف ثم بدأت عيناه تضيقان قليلا، محاولا التأكد إذا ما كان يتعرض للسخرية أم لا. حبس الآخرون أنفاسهم. لقد كانت لعبة خطيرة ... لقد تم إثارة شخص مثل بطوط بينما كان يحمل بندقية يحتمل أن تكون م ذخرة.

"لماذا يجب أن أريك؟" سأل بطوط ليدافع عن موقفه.

"لنتثبت أنك صادق"، أجاب يوسف بهدوء. "هذا كل شيء. فقط أرنا المخزن وسنتوقف عن السؤال".

تردد بطوط لبضع ثوان، ثم في حركة واحدة سريعة، نزع المخزن من البندقية، ورفع المخزن بيده منتشيا بالنصر المزوج بنوع من الفخر. وجه بطوط المخزن نحو الطلاب ليتمكنوا من رؤية الرصاص المشع بألوان حمراء تميل إلى الصفرة وهي تملأ المخزن.

"أترى؟" قال بطوط. "إنه ممتلئ، تماما مثل ما قلت لك".

خيم الصمت على الجميع وأذهل مشهد الذخيرة كل من رآه. لم يكن أحد يتوقع مثل هذا الأمر. إنها ثلاثين رصاصة حية وقاتلة بين يدي رجل مشكوك في قدرته على التمييز والتعامل مع الظروف المحيطة ... هذا أقل ما يقال فيه.

ضحك فلاح، محاولاً تخفيف التوتر الذي حدث. "يا رفاق، من الأفضل أن نراقب كلماتنا من الآن فصاعداً. بطوط ليس جندياً فحسب ... إنه مسلح وبعثاد كامل!"

ابتسم عبد الحميد وعينيه على المخزن. "لا مزاح في هذا الأمر. إذا غضب بطوط، حسبت الناس كلهم غضاباً ... ولن يكون لدينا حتى وقت للهرب".

تمتم حمزة وقال: "إنها معجزة ... لم يحدث شيء بعد".

أوماً يوسف برأسه، وتحول من الفضول إلى عدم الارتياح. "نعم ... ربما لم يكن علي أن أسأل".

أعاد بطوط المخزن إلى البندقية ووقف بنفس المكان ... بدا راضياً بشكل غريب، كما لو أنه فاز للتو باختبار صغير ... لكنه ذي مغزى. أسند بطوط البندقية الآن إلى صدره مرة أخرى، وبدأ أنها تشكل تهديداً وشيكاً لكل من كان حول بطوط.

تبادل الطلاب النظرات لكنهم لم يقولوا شيئاً أكثر من ذلك. استطاع بطوط إسكاتهم ووضع حد لمضايقته بأسئلتهم المتكررة ... خاصة بعدما رأوا الرصاص بأعينهم.

لقد كانت الحياة في المعسكر منظمة، ولكن داخل هذا النظام تواجدت ثغرات ومتغيرات لم يمكن التنبؤ بها مثل بطوط. أما بالنسبة للضباط والعسكريين فهم من الرجال المدربين ولديهم خبرات كافية نتيجة عملهم لفترات طويلة وكذلك التدريب العسكري المكثف الذي خضعوا له.

وقد حدد القانون العسكري السوري بعض الاستثناءات المتعلقة بالتجنيد الإلزامي، حيث يتم إعفاء الشاب إذا كان من أسرة لديها ولد واحد فقط، بغض النظر عن وجود بنات أم لا. وعادة ما يتم

أيضا إعفاء الأولاد الذين يعانون من مشاكل صحية مزمنة. لكن بالنسبة للبقية، بمن فيهم هؤلاء الطلاب، كان معسكر التدريب هو واقعهم الحالي والخدمة العسكرية الإلزامية بانتظارهم في وقت لاحق.

في هذا الإطار، أصبح بطوط جزءا من جند المعسكر، ولا أحد يعلم كيف انتهى به المطاف هناك وكيف وصل إلى الخدمة ... لا أحد يعلم إذا ما تمت متابعة حالته قبل الوصول إلى المعسكر أم لا. لقد تواجد في المعسكر مثل شبح مسلح ببندقية ... ممثلا لغزا يرتدي الزي الرسمي.

منذ ذلك اليوم فصاعدا، لم يسأله أي من الطلاب عن بندقيته مرة أخرى.

وعلى الرغم من أنهم استمروا في الجلوس تحت أشجار الكينا والسرو كل صباح، إلا أنهم لم يشعروا بالهدوء الذي اعتادوه فيما قبل.

بعد ظهر أحد الأيام، وتحت أغصان شجرة بلوط قديمة متمايلة، جلس سبعة طلاب – يوسف وحمزة وعماد وعبد الحميد وفلاح وأحمد الجاسم ونادر وباسل – بالقرب من بعضهم البعض بحثا عن ملجئ من أشعة الشمس. كانت استراحة ما بعد الظهر أطول فترة راحة في اليوم خلال المعسكر ... كانت تستمر لنحو ثلاث ساعات.

كانت تلك الاستراحة تمنح الطلاب وقتا للراحة والاستعداد للجلسات التدريبية القادمة التي تتطلب المزيد من الجهود البدنية ... لكن بالنسبة للطلاب الذي يسكنون في القرى القريبة من المعسكر، كان الأمر مختلفا ... لم تكن مجرد استراحة – بل هي فرصة للهروب من الواقع ... والخروج من المعسكر.

رغم أن ذلك كان مخالفا تماما للوائح المعسكر، إلا أنهم اعتادوا خلال هذه الفترة الطويلة نسبيا أن يتسللوا إلى الخارج ويهربون إلى المنزل لتناول وجبة الغداء ... وربما يقضون ساعة أو ساعتين مع عائلاتهم، ثم يتسللون مرة أخرى إلى المعسكر قبل الساعة الخامسة مساء بقليل ... قبل بدء التدريب المسائي.

لقد كانت محاولاتهم خطيرة ... لكنهم أتقنوها ونفذوها بإحكام وانتظام ... لقد أفلتوا من العقاب عدة مرات.

كانت الحيلة في تحركاتهم تعتمد على التوقيت المناسب وإيجاد الثغرات عندما يكون الحرس منهكين في فترة الظهيرة ... عندما لا تكون الحراسة مشددة كباقي الأوقات. في هذه الأثناء، لا يكون بعض الحرس مثل بطوط حذر بما فيه الكفاية. اعتمد الطلاب على غفلة الحرس والمواضع التي يصعب ملاحظتها للتسلل إلى خارج المعسكر ... مع اقتراب الساعة 2:30 ظهرا، بدأ التوتر على بعض الطلاب وكان القلق يعلو محياهم.

بدأوا في مراقبة ومسح محيطهم بحذر ... وقاموا بالتأكد من مواقع الحرس، خاصة بطوط – الجندي الذي لا يمكن التنبؤ بأفعاله وتصرفاته ... وهو حارس على أطراف المعسكر بشكل شبه دائم – عند الزاوية الجنوبية الشرقية ... هو الحارس الحاضر الغائب ... الذي يمكن أن يؤذيهم بأي لحظة خاصة عندما يراهم يخالفون التعليمات العسكرية التي تلقاها.

لم يكن من السهل عبور سور المعسكر فقد كان الجدار يبلغ ارتفاعه نحو مترين وتعلوه ثلاثة لفائف من الأسلاك الشائكة. لم يكن التسلل بالأمر السهل ... وكان على الطلاب أن يتحركوا بخفة

وأن يحافظوا على هدوئهم وأن ينتبهوا لكل خطوة، فأى خطوة خاطئة يمكن لها أن تلفت الانتباه ... والأسوأ من ذلك، يمكن أن ينتهي بإصابة خطيرة.

بدأ الطلاب التسلق، وساعد بعضهم بعضا ليرتقوا فوق الجدار ... ووقف آخرون يشاهدون. يجب أن تكون العملية سريعة وسلسة. عندما وصل عدد من الطلاب إلى أعلى الجدار، سُمع صوت واضح، ينادي: "بطوط! إنهم يهربون!"

صاح اسم بطوط في الهواء ولفت انتباهه، ثم استدار على الفور ونظر بعينين واسعتين علتها الدهشة مما رأى ... هو بين مصدق ومكذب لما يحدث أمام ناظريه ... تجمد الطلاب، الذين ما زالوا على الأرض، بينما حبس الطلاب الذين لا يزالون فوق الجدار أنفاسهم.

"ماذا أفعل؟" صرخ بطوط، وهو يمسك ببندقيته.

أجاب حمزة، بنبرة من المزاح أو في محاولة لاختبار بطوط، "لقم بندقيتك بسرعة!" تبع ذلك صوت التلقيم المميز للبندقية.

سأل بطوط مرة أخرى، وبصوت أعلى، "ماذا الآن؟" "ماذا أفعل!"

صرخ يوسف، متابعة للمزاح الذي بدأه حمزة: "نار! أطلق النار على الجميع!"

في لحظة واحدة ... تغير كل شيء.

نفذ بطوط كلمات يوسف حرفيا ... التفت إلى المخالفين وفي غضون ثانية واحدة ضغط على الزناد.

تصاعد صوت الرصاص وعلا فوق كل صوت آخر ... وسرعان ما تحول هدوء المعسكر إلى فوضى. كان الرصاص يطلق بشكل عشوائي – باتجاه الطلاب والأشجار ... باتجاه الطلاب الذين تسلقوا الجدار ... باتجاه أولئك الذين كانوا لا يزالون تحت الأشجار.

في لحظة واحدة، تحول المعسكر إلى ساحة تعمها الفوضى كمشهد من معركة حقيقية. ارتفع صراخ وصيحات بعض الطلاب ... وركض بعض الطلاب في اتجاهات مختلفة ... يتخبطون ويتساقطون أحيانا.

قفز بعض الطلاب بالقرب من الجدار هربا من وابل الرصاص ... فقد أولئك الذين كانوا أعلى الجدار توازنهم وسقطوا – هبط بعضهم بقوة داخل المعسكر، والبعض الآخر سقط خارج الجدران، حيث كان بانتظارهم النباتات الشوكية على الجانب الآخر والأرض الوعرة وما تحويه من صخور وأحجار ... أصيب عدد قليل منهم بكدمات وجروح طفيفة.

على الرغم من الفوضى، سيطر إيقاع غريب على المشهد، ففي غضون لحظات من توقف إطلاق النار، عاد معظم الطلاب إلى أماكنهم ... تلاشى الذعر بالسرعة التي اندلع بها، وعاد الهدوء قبل وصول الضباط – الذين كانت مكاتبهم على بعد نحو 200 متر، بالقرب من الجهة الشمالية الغربية من المعسكر – إلى مكان الحادث.

عندما توقف بطوط عن إطلاق النار، وقف ساكنا والبندقية بين يديه ... يتنفس بصعوبة ... وعيناه تراقبان حوله كما لو أنه كان يستيقظ من كابوس مرعب، بينما ساد الصمت بين الطلاب الذي لم يصدقوا أعينهم لما رأوه للتو.

لكن ... ذلك الهدوء لم يدم طويلا.

عندما وصلت قيادة المعسكر، بدا الغضب الشديد على وجوههم. لقد انتشر صوت إطلاق النار وتردد صده في مكاتبهم وكان ذاك المشهد الفوضوي غير مقبول أبدا بالنسبة لهم.

ربما ينتشر هذا الخبر حتى خارج المعسكر مما يهدد بفضيحة كبرى ... كيف يطلق أحد الجنود النار على الطلاب لأسباب بسيطة! وإذا خرجت هذه القصة إلى العلن فستحتاج إلى إجابات وتفسيرات لما حدث وهذا أمر غير مرغوب به.

تحرك الضباط بسرعة ودعوا إلى اجتماع طارئ ... دعوا إليه جميع الطلاب وطاقم المعسكر. بدأ تحقيق على الفور، وبدأ التوتر على كافة أفراد المعسكر فقد أدرك الجميع أن ذلك الحادث كان يمكن له أن يتسبب بمأساة وفضيحة عسكرية كبرى.

تم احتجاز بطوط على الفور، بعد اتخاذ بعض الإجراءات الوحشية ضده حيث قام الضباط بصب جام غضبهم عليه وبدأوا بتعذيبه وضربه على مرأى الطلاب. الشاب الذي كان قبل وقت قصير يبدو كجندي حراسة ... ينعم بالهدوء عند الزاوية الجنوبية الشرقية من المعسكر أصبح الآن في قلب العاصفة ... يتقلب بين الضرب والركل الذي كان تنهال عليه من كل صوب.

لقد ضربوه بلا رحمة أمام الطلاب وأمام الحرس ... دون حتى أن يعلموا سبب إطلاق النار. لم يكن هناك شيئا سوى الغضب.

"كيف تجرؤ على إطلاق النار على الطلاب!"

"ما الذي كنت تفكر فيه أيها المعتوه؟ هل أنت مجنون!"

"من أعطاك الحق في إطلاق النار!"

لم يكن لدى بطوط أي إجابات. اختلط صوته عندما كان يصرخ من الألم بصوت الضباط الغاضبين وهم يضربونه بأيديهم ويركلونه بأرجلهم والضربات تنهمل عليه من كل جانب. توسل إليهم الرحمة وتوسل إليهم أن يتوقفوا لكن لم يعره أحد أي اهتمام. تم دفعه وركله وصفعه وضربه بأعقاب البنادق ... لا شيء سوى العقاب.

تكشف تلك الواقعة كيف كان يتعامل الجيش السوري في كثير من الأحيان مع مثل هذه الأزمات. هناك تركيز على أمر واحد ... القاء اللوم على الحلقة الأضعف. كان هذا هو القانون غير المعلن ... بغض النظر عما حدث، يجب أن تكون القيادة قد فعلت شيئا منطقيا وعادلا ... لكن ما يهم الجيش في تلك الأيام هو الحفاظ على المظاهر والحفاظ على الانضباط والحفاظ على سمعة جيدة غير مشوهة ... إذا كان هناك شخص سيسقط فسيكون هذا الشخص دائما هو الأقل رتبة أو الأكثر ضعفا.

بعد دقائق من الضرب والإهانات والإذلال، تم سحب بطوط بعيدا ولم يتم تقديم أي تفسير ولم يتم الإعلان رسميا عن أي أسباب أو مسببات ولم يتم إعلان أي نتائج للتحقيق. فقد كان من الواضح أن القيادة قررت دفن الحادث تماما مثلما يتم عادة دفن الماضي وحوادثه.

كانت خطة القيادة بسيطة: احتواء الحادث وإبقاؤه داخل حدود المعسكر والتأكد من عدم تسريب أي كلمة عنه ... على الأقل خلال الأيام القليلة المقبلة.

وكان من السهل التحكم بهذا خلال المعسكر الصيفي لأنه لا يسمح للطلاب بمغادرة المعسكر على أي حال، مما أعطى الضباط ميزة ولو كانت مؤقتة. كل ما كان عليهم فعله هو إبقاء الجميع هادئين حتى انتهاء البرنامج التدريبي، وبعد مرور بعض الأيام سيفقد الحادث قيمته ويصبح من الماضي كما أصبحت كذلك أشياء كثيرة.

كان تعرض بطوط للتعذيب الجسدي الشديد والإساءة اللفظية يعتبر كجزء من التحقيق، إذ اتهمه الضباط وزملاؤه الجنود بمحاولة إلحاق الأذى المتعمد بالطلاب أو قتلهم ... على الرغم من عدم وجود أي دافع أو تفسير مؤكد في تلك المرحلة المبكرة.

لم يكن هذا النمط بعيدا عن سلوك الجيش السوري، إذ كانت هناك عقيدة غير رسمية أو غير معلن عنها تنص على حماية القيادة وإعطاءها الحصانة ضد أي تهمة أو حتى لوم لا سيما أثناء الحوادث التي تقع في أنحاء البلاد.

عندما تحدث انتهاكات جسيمة، غالبا ما ينطوي الرد الافتراضي على تحديد شخص واحد وهو الأضعف في تلك السلسلة التي شهدت الحادث وبعد ذلك يحملونه المسؤولية الكاملة. مكنت هذه العقيدة كل أفراد القيادة أو النظام من الحفاظ على صورتهم التي لا تهزها الحوادث ... ولا الكوارث البشرية ولا حتى الطبيعية! في جوهر هذه العقيدة، لا شيء يهم أكثر من الحفاظ على الذات المؤسسية ... ولا أهمية أبدا للشفافية والعدالة التي لا تتعدى كونها شعارات ترفع ما بين الحين والآخر ... أو كلما دعت الضرورة.

مع استمرار التحقيق الداخلي، تعرض بطوط لجولات متكررة من العقاب الجسدي والإهانات وكان هدف القيادة هو ضمان بقاء الحادث محصورا داخل أسوار المعسكر.

لقد نجحت القيادة على ما يبدو في التحكم بسير الأحداث وساعدها على ذلك عدد من الأمور مثل الحجز الكلي للطلاب. ونجحت أيضا في حل المسألة، رغم تداعياتها الفوضوية والعنيفة، ولكن عن طريق الاحتواء والإغفال المتعمد لا عن طريق حل منطقي يجنب المعسكر مشاكل مماثلة قد تحدث فيما بعد.

يشير الحادث إلى مسألة أكبر داخل المؤسسة العسكرية والأمنية وهي التضحية بكبش فداء ... غالبا ما يتم التضحية بالمسألة من أجل التحكم والاستمرار في تجميل الصورة. بدلا من التحقيق الشفاف، تعتمد مثل هذه الأنظمة في كثير من الأحيان على القوة والقمع وإعداد كبش فداء لتحميله كافة الأخطاء والمصائب ... والتغلب على الأزمات بهذه الطريقة.

بناء على ذلك، يصبح الأفراد مثل بطوط – سواء كانوا مذنبين أم لا – بيادق في استراتيجية أكبر تهدف إلى حماية القيادة وتأكيد عصمتها عن أي خطأ.

تكشف هذه الحادثة وعواقبها أيضا عن نافذة واقعية حول الأساليب التي تستخدمها المؤسسة العسكرية للتعامل مع الفوضى الداخلية. كان من الممكن احتواء الأزمة قبل وقوعها، لو لم تكن الدولة تفتقر إلى المتطلبات الأساسية لبناء دولة حقيقية مثل الشفافية وعدم إساءة استخدام السلطة والمساءلة.

في اليوم التالي من أيام المعسكر، جلس عدد من الطلاب مرة أخرى تحت أشجار البلوط القديمة، ومنهم يوسف وفلاح وحمزة وأحمد الجاسم وعبد الحميد وعماد ونادر وباسل. خيم الصمت في البداية ... وبدأ أن كل منهم كان يفكر بما حدث في الأمس. لا يزال صدى إطلاق النار يتردد بصوت خافت في أذهانهم، ولم يستطع الطلاب نسيان بطوط الذي اعتاد الوقوف بجانبهم وإصبعه على الزناد.

كسر فلاح الصمت، قائلاً: "يوسف"، وهو يستدير نحوه بوجه يعلوه الدهول، "لماذا طلبت من بطوط إطلاق النار علينا؟"

مسح يوسف بيده على وجهه وقال: "أنا ... لم أقصد ذلك على هذا النحو. لم أتوقع أنه سيفعل ذلك، أعني! من سيأخذ ذلك على محمل الجد؟"

نظر إليه فلاح بشك. "أأنت جاد؟ أنت تعرف من هو بطوط! لقد علمت أنه غير متزن. وطلبت منه أن يطلق النار؟"

"أنا أعرفه، نعم"، أجاب يوسف. "لكن قل لي – إذا طلبت منه إطلاق النار على نفسه، هل سيفعل ذلك؟ بالطبع لا! لم أكن أعتقد أنه سينفذ الأمر حرفياً".

عم الهدوء مرة أخرى لكن في الحقيقة لم يتوقع أحد هذا ... لكنه حدث بالفعل.

لقد كان الحادث كثرة بركان مفاجئة وعنيفة وغير متوقعة تماماً. تطاير الرصاص في الهواء، وكان صوت الإطلاق المتواصل يصم الأذان كأنها انفجارات في ساحة حرب. فر الطلاب في كل

اتجاه، وهم لا يعلمون إذا ما كانوا مستهدفين أو ما إذا كان كل ذلك مجرد خطأ ... لقد فعلها بطوط ... وضع بندقيته على وضعية إطلاق النار الآلية ... وضغط على الزناد ... ساد الذعر للحظات ... وبعدها ساد الهدوء.

أصبح صوت يوسف أكثر هدوء عندما تحدث مرة أخرى وقال: "أنت تعلم ... لقد كنت أفكر في الأمر من زاوية مختلفة. من المفترض أن نتدرب لنصبح جنودا – أو على الأقل شبابا مستعدين، أليس كذلك؟ لكن تأمل في استجابتنا أو رد فعلنا. هل كان ذلك معقولا؟ ألا يجب أن نستجيب بشكل أفضل؟"

رفع أحمد رأسه بعد سماع هذه الكلمات وعقد حاجبيه وقال: "أي تدريب؟ كله عديم الفائدة. بمجرد سماع دوي الرصاص من تلك البندقية، ركض معظم الطلاب ... كأنهم أطفال شتتهم عاصفة رعدية".

رد حمزة قائلا: "ليس كلنا. بقي البعض منا ... البعض فعل كما تعلم في المعسكر – استلقى على الأرض لتفادي الرصاص وهذا ما يفعله الجنود المدربون".

"نعم"، قال أحمد، وهو يهز كتفيه: "لكن معظمهم؟ ذهب ... هرب".

انحنى فلاح إلى الأمام، وفرك يديه، ثم قال: "لأكون صادقا، حدسي قال لي أن شيئا كهذا سيحدث. لم أكن أتوقع ذلك، لكن كان لدي شعور سيء في اللحظة التي رأيت يدي بطوط ترتعش ... دخلنا في فوضى حقيقية. لكن الحمد لله لم يقتل أحد. فقط بعض الإصابات الطفيفة ... كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير".

حرق عماد في الأرض، وهز رأسه ببطء وقال: "ما زلت في حالة صدمة. لا أصدق أن ذلك حدث بالفعل. من يفعل ذلك؟ تطلب من شخص ما إطلاق النار، وهو يقوم بذلك فعلا؟ هذا الرجل غير سوي. أتوقع أننا لن نراه مرة أخرى ... تذكروا كلامي هذا".

قال عبد الحميد، الذي حافظ على هدوئه حتى اللحظة: "إنه ليس شريرا – إنه مجرد شاب مسكين. لم يدرك حتى ما كان يفعله. وأنا متيقن أن معظمنا كان مهتما لمعرفة ما سيحدث له، لكن في أعماقي ... أشعر بالحزن عليه. أعتقد أننا جميعا آسفون من أجله ... إنني كذلك".

أوما باسل برأسه بالموافقة. "بالضبط. إنه ليس وحشا. إنه شخص لم يكن ينبغي له أن يأتي إلى هذا المكان ... من جاء به هنا هو المسؤول الحقيقي عما حدث. ولكن السؤال هو: كيف أعطته القيادة بندقية مذكرة؟ هذه هي الكارثة".

أردف نادر قائلا: "إنهم لا يهتمون. هذا هو بيت القصيد ... لم تكلف القيادة نفسها عناء التحقق من حالته العقلية. لم يطرحوا أسئلة عن وضعه الصحي ... ولم يبحثوا عن علامات للتأكد من سلامته. فقط سلمته سلاحا وأطلقت عليه اسم جندي".

نظر حمزة حوله إلى المجموعة بإحباط وقال: "اعتقدنا جميعا أنه كان يُمثّل ... فقط يمثل دور إنسان غير سوي كي يتجنب بعض المهام ... هكذا بدا الأمر لعدة أيام. كان يعرف ما يدور حوله أو هكذا اعتقدنا. لكننا الآن عرفنا الحقيقة – لم يكن لائقا للخدمة العسكرية منذ البداية".

دخلت المجموعة في صمت آخر بعد أن أيقنوا أن المشكلة لم تكن تتعلق فقط ببطوط – بل كانت تتعلق بنظام كامل ... النظام الذي سمح له بحمل بندقية م ذخرة، ومن ثم طلب منه الوقوف كحارس على مئات الطلاب.

بعد الحادث، اتخذت القيادة بعض الإجراءات السريعة التي لم يتوقعها أي شخص. هرعوا إلى مكان الحادث، ليس للتحقيق بشفافية، ولكن للسيطرة على الأمور. تصرفوا بغضب وسحبوا بطوط بعيدا وضربوه وعذبوه ... لم يهتموا بحديثات أو بفهم ما حدث وما كان وراءه ... ركزوا على وجود كبش الفداء ... الذي سيتحمل المسؤولية كاملة.

لم يسألوا الطلاب أبدا عما حدث ... لم يتم جمع أي شهادات، ولم يتم الإعلان عن نتائج التحقيق. لم يكن الضباط مهتمين بالحقيقة ... كانوا مهتمين بالحفاظ على صورتهم ... هذه كانت الأولوية. كان التعذيب هو معالجتهم لما حدث ... ومن ثم السيطرة والترهيب والاحتواء.

تم حجب بطوط عن الأنظار ويفترض أنه تمت معاقبته بينما لم تصدر القيادة أي تعليمات أو بيانات رسمية حول الحادث. وبعد الحادث مباشرة، استؤنفت الحياة في المعسكر كما لو لم يحدث شيء ... استمر التدريب ... استمرت الجداول على حالها ... لكن في أعماق كل واحد في المعسكر ... تغيرت الأشياء ولم تعد كما كانت.

يتذكر الجميع ما حدث ... كانت لحظات صعبة ... اخترقها صوت إطلاق النار وعدم التصديق والتدافع من أجل السلامة والأمان ... ثقة الطلاب في قيادة المعسكر الهشة أصلا ... لقد تحطمت تماما الآن.

أما بالنسبة لبطوط، فقد اختفى تماما لمدة ثلاثة أيام ... لم يره أحد أو يسمع عنه شيئا. انتشرت التكهّنات بين الطلاب ... قال البعض إنه سجين واعتقد آخرون أنه تم إبعاده عن الطلاب.

لكن في اليوم الرابع ... الجميع شعر بالصدمة والذهول لما رأى ... عاد بطوط.

لم تكن هناك علامات واضحة للتعذيب أو الضرب الذي تعرض له ... لا كدمات ولا إصابات ولا ضمادات. كان الأمر كما لو أن شيئا لم يحدث. لكن شيئا ما تغير ... بدا بطوط أكثر حزما الآن، وأكثر يقظة.

لم يعد سلوكه مشتت كما كان من قبل ... لم يعد ذاك الشاب شارد الذهن ... يتحرك الآن بهدف ويمسك بندقيته بقوة أكبر ... وينظر إلى من حوله بعين ثاقبة ... بنظرة شخص مرّ بشيء ما أو مصيبة كبيرة فخرج منها أقوى وأشدّ عزيمة.

لقد عاد بطوط حتى إلى مهامه في الحراسة.

ومرة أخرى ... كان مسلحا.

نظر إليه الطلاب بمزيج من الإعجاب وعدم التصديق والشفقة. لم يجرؤ أحد على المزاح معه بعد ذلك الحادث ... لم يصرخ أحد باسمه، ولم يختبره أحد.

ظل صوت تلك الطلقات النارية يتردد في الأسماع لفترة طويلة ... حتى بعد ما تلاشت أصدائه الأولى.

عاد بطوط إلى موقع جديد حاملا بندقيته، وحاملا معه إحساسا متجددا بالقوة والسلطة. كانت هيئته تبدو أكثر حزما وصوته أعلى ووجوده أكثر تأثيرا. بدا الأمر كما لو أن ذلك الحادث تم مسحه من الذاكرة – أو على الأقل تم دفنه بالقوة. أولئك الذين شهدوا معاناته السابقة ... لم يفهموا ماذا حدث بالضبط.

أثار ظهور بطوط على تلك الصورة العديد من الأسئلة. هل أعيد تأهيله أو أجبر على الصمت أو أعيد دمج مع أقرانه ببساطة بموجب أوامر عليا؟ ... لا يزال من غير الواضح ما إذا كان صمته طوعيا أم مفروضا.

بعد ظهوره في حلته الجديدة بدا أقوى، لكنه متجهم الوجه ... لا يمزح مع الطلاب ووقف منتصباً وكأنه حصل على إحساس بالسلطة المطلقة ... كان الأمر كما لو أنه أعيد بناؤه ... أعيد تشكيله من قبل نفس النظام الذي خذله.

لم يستطع الطلاب فهم ذلك. كيف يمكن لشخص مثله ... بعد كل ما حدث ... أن يُسمح له باستئناف مهامه الخطيرة؟ هل عوقب على الإطلاق؟ أم أن القيادة قررت ببساطة استعادة وهم السيطرة من خلال إعادته إلى الزي العسكري؟

كان هناك شيء واحد مؤكد: لم تكن قيادة المعسكر مهتمة بالتغيير أو المساءلة. كان شاغلهم الوحيد هو تجاوز العاصفة ... العمل على احتواء الفضيحة.

في هذه الأوقات بدت الأمور هادئة وطبيعية ... ولكن ربما لا يكون هذا الهدوء إلا ذاك الذي يسبق العاصفة.

الفصل الخامس

صيف 1998

معسكر التدريب الجامعي – الأسبوع الثالث

كان صباحا مثل أي صباح آخر في المعسكر، ولكن ظهور بطوط أضفى إليه شيئا من البهجة والسرور. جلبت عودته المفاجئة موجة من المشاعر بين الطلاب: بالنسبة للبعض، كان الأمر أشبه برؤية بطل غاب فترة طويلة من الزمن ثم عاد فجأة إلى الوجود. وبالنسبة لآخرين كان ظهوره أشبه بانتصار ساحق... والبعض رآه على أنه الشخصية المألوفة التي مرت بمحنة مرعبة... وتحمل تعذيبا لا يمكن تصوره، وهو الآن يقف أمام ناظرهم، فآثار وجوده مزيجا من الإعجاب والتعاطف.

مع عودته الميمونة، اتخذت قيادة المعسكر قرارا سريعا: تم إعادة تموضع وأماكن تواجد بطوط، حيث سيبقى وفق الخطة في مكان بعيد نسبيا عن الطلاب. بدلا من العودة إلى مكانه السابق بالقرب من الطلاب تم نقله ووضع على مسافة أبعد.

ارتأت القيادة أن تجعله حارسا على البوابة الرئيسية للمعسكر، ليبقى معزولا عن الطلاب ولا يمكنه التفاعل المستمر معهم كما حدث من قبل. كان الأمر واضحا... يجب أن يكون بطوط معزولا وبعيدا عن الطلاب لمنع حدوث أي مشاكل أخرى. وفقا للقيادة، كانت هذه طريقتهم المثلى

لحل مشكلة كادت أن تتسبب بأحداث مميتة ... اعتقدت القيادة أن هذا الإجراء سيحافظ على سلامة الطلاب وباقي أفراد المعسكر.

كانت تداعيات الحادث الذي كاد أن يزهق العديد من الأرواح لا تزال حاضرة في عقول الجميع. ومع ذلك، وعلى الرغم من تغيير مكان بطوط لا يزال بعض الطلاب يجدون لحظات للاقترب منه بهدوء والمحادثة معه. لم يكثر الكلام بعد الحادث الأول، لكن سلوكه الهادئ وعينه الثاقبتان روتا ألف قصة غير مروية.

بدا مختلفا الآن ... يمكن للطلاب أن يروا التغيير على هيئته من خلال الطريقة التي أمسك بها ببندقيته. كان الأمر كما لو أن السلاح أصبح أكثر من مجرد أداة ... لقد أصبح جزءا منه. عندما مر بجوار الطلاب، لاحظوا مدى حرصه وشغفه بذلك السلاح ... كأب يحمل طفله.

لم يجرؤ أحد على السؤال عما إذا كانت البندقية مذكرة! لم يرغبوا في معرفة ذلك. في الواقع، منذ أن تم وضع بطوط بعيدا عن روتينهم اليومي، شعر الطلاب تدريجيا براحة أكبر. لم يعد هناك سبب يدعو للقلق بشأنه بعد الآن ... أو على الأقل كما يبدو. تلاشى وجوده بعد نقله من مكانه المميز بالقرب من الطلاب ... إلى الهامش ... ولكن هذا الهامش يكون هامشا فقط لقيادة المعسكر ... أما بطوط فيجعل الهامش هو المركز!

علاوة على ذلك، كان ظهور بطوط بطوليا. في اللحظة التي رآه فيها الطلاب مرة أخرى. انفجروا في التصفيق. صفق البعض بأيديهم بحماس وصرخ آخرون "نرفع القبعات لك يا بطوط"! ... "حييت من بطل" ... لقد اجتاحت موجة من الإعجاب المعسكر بأكمله ... إنها عودة أسطورية.

استمر الطلاب بالثناء على بطوط ... المنتصر ... وقال بعضهم: "لا تقلق بطوط، الزمان يشفي كل الجراح".

بعد ذلك، لم يره الطلاب كضحية، بل كمقاتل شرس. بالنسبة لهم، كان بطوط بطل المعسكر ورمز المرونة. لم يعد إلى العمل فحسب، بل عاد بشكل أقوى ... مرتديا الزي العسكري ويحمل بندقيته مرة أخرى. لقد كانت صورة خالدة في مؤسسة اعتادت منح الخلود لقادتها ... بطوط، الشاب الذي تعرض للتعذيب، عاد الآن إلى وضعه العسكري الذي لا يقهر ... وإن تعرض لانتكاسات.

ما أثار إعجاب الطلاب هو أن بطوط لم تظهر عليه علامات الصدمة ... نعم، لقد غاب قليلا ... لكنه عاد أكثر ثقة من أي وقت مضى. تغيرت ملامحه ... بدا عليه الجد الذي لم يترك مكانا للهزل ... لم يؤثر عليه شيء حتى التعذيب الذي تحمله.

لم يدرك الطلاب إذا ما كانت تلك الثقة نابعة من الشجاعة الحقيقية ... أو من الثناء الكبير الذي حصل عليه من الطلاب. ربما تمكن من تجاوز الألم والتعذيب ... ربما جعله إعجاب الطلاب يشعر بأنه لا يقهر. في كلتا الحالتين، كان هناك بريق في عينيه وشدة في نبرته وبدا مستعدا للمهام العظام ... طالما كانت بندقيته بين يديه.

لعل ما تحدث به الطلاب من مدح وثناء جعله يشعر كما لو أنه هو الأمر الناهي في المعسكر ... وربما ما وراء المعسكر أيضا. لقد قال له بعضهم: "بطوط، أنت البطل المغوار!"

وقال أحدهم مبتسما بإعجاب: "أنت رجل عملي، وتتصرف في الوقت المناسب، لا شك في ذلك".

"بصراحة، أنت رجل أفعال لا أقوال"، أضاف آخر بنبرة يشوبها المزاح.

حتى أن البعض قال: "أنت تستحق أن تكون قائد المعسكر، بطوط! أنت رجل المهام العظام. أنت قائد بالفطرة".

كان الطلاب يقابلون بطوط بين الفينة والأخرى خلال ساعات النهار وبعد الانتهاء من بعض الأنشطة التدريبية لأن دوره الجديد عند البوابة الرئيسية للمعسكر يبعد عنهم قليلا. الآن، لا يرونه كما كانوا يرونه من قبل، إلا أنهم يلوحون له أحيانا بأيديهم ويتبادلون معه بعض الكلمات العابرة. قبل الحادث، كان بطوط أقرب بكثير إلى الطلاب، وكان يمثل حضورا مألوفا بينهم ... جزءا من حياتهم اليومية. انقطع هذا الاتصال في اللحظة التي اتخذت فيها القيادة قرارها ... خوفا من تكرار ذلك الحادث الخطير، فأنشأت القيادة عمدا مسافة بين بطوط والطلاب.

لقد فهم الطلاب كيف يمكن للأحداث المؤلمة أن تغير شخصية شخص ما، وأحيانا بشكل دائم. تساءلوا عما إذا كان بطوط لا يزال نفس الرجل الذي عرفوه ... أو ما إذا كان هناك شيء بداخله قد أعيد تشكيله بشكل دائم ... هكذا شاهدوا الأمور ... لقد كانوا يتابعون باهتمام بالغ كل لقاء قصير مع بطوط وكل كلمة وكل نظرة يلقيها.

في البداية وقبل الحادث، كانت الحقيقة أنهم لم يروه ويتحدثوا معه كثيرا بما يكفي لاستخلاص استنتاجات حقيقية. وبعد الحادث لم يعد جزءا منتظما من حياتهم. فلا يمكن أن تتعرف تماما على شخص تراه من مسافة بعيدة، لن تعرفه جيدا، وسيبقى في ناظريك شخصا غريبا.

كانت هناك فرص أقل للتحدث، ولحظات أقل لمراقبة مزاجه أو ردود أفعاله. لقد أصبح لغزا إلى حد ما ... لا يزال يحظى بالإعجاب ... ولا يزال محترما ... لكنه غير مفهوم تماما.

اعتقد بعض الطلاب أنه قد تغير ... قليلا فقط. أصبح خطابه أكثر حدة، وسلوكياته أكثر صرامة ... ابتسامة تكاد تكون معدومة ... ويعتقد آخرون أنه لم يتغير على الإطلاق ... على الأقل ليس بطرق يمكن ملاحظتها. لكن شيئا واحدا اتفقوا عليه جميعا: ظل بطوط لا يمكن التنبؤ بأفعاله.

حتى لو كان سلوكه هادئا في الغالب، كان هناك دائما شعور بأن شيئا ما يمكن أن يتغير في أي لحظة ... كالبركان يسكن لأوقات طويلة، ولكن لا أحد يعلم متى ينفجر.

لم يكن الخوف هو الذي شعروا به ... على الأقل ليس بشكل علني ... بل نوعا من الاحترام الحذر. لم يتمكنوا من نسيان ما حدث من قبل. كان الحادث الأول صادما بما يكفي لترك بصمة لن ينساها الجميع. هكذا، بينما أعجبوا ببطوط واستمروا في تكريمه بطريقتهم الخاصة، لم ينسوا أبدا ثورانه البركاني.

كان هذا جزء مما جعله رائعا للغاية ... مرونته وغموضه ... والشعور بأن شيئا قويا لا يزال يتحرك في الخفاء.

أصبح بطوط رمزا للاستمرارية والقوة وعدم اليقين. وعلى الرغم من أن القيادة قد أبعدته، وعلى الرغم من تساؤل اتصاله اليومي بالطلاب، إلا أن حضوره لا يزال باقيا في المعسكر.

كان بطوط جزءا من قصة المعسكر، والآن أصبح شخصية مركزية في فصل لن ينسوه. ربما لم يعرفوه جيدا في البداية ... أو من كان؟ ... أو ما كان يفكر به! لقد أثر بهم ما تحمله من التعذيب ... بالنسبة للكثيرين، كان هذا كافيا لتحيا أسطوره لوقت طويل.

مع مرور الوقت، ربما تتغير الأمور مرة أخرى ... ربما تقل المسافة ... ربما سيعاد بطوط للاندماج في عالم الطلاب. أو ربما سيبقى في الهامش ... فهو لا يزال يراقب ولا يزال يحرس البوابة ويحمل بندقيته وأعباء ماضيه.

في الوقت الحالي، وقف وحيدا ... ليس جزءا من عالم الطلاب ... ولا بعيدا عنه تماما. حارسا ... أو حتى سؤال لا يمكن لأحد الإجابة عليه.

لكن هناك شيء واحد مؤكد ... ترك بطوط انطبعا استثنائيا بين الطلاب. قصة ستستمر لفترة طويلة بعد تلاشي التصفيق ... بعد فترة طويلة ... بعد كيل الثناء له ... قصته لم تنته بعد.

بعد مرور أيام قليلة وبعد عودة الهدوء إلى المعسكر ... كان هذا النوع من الهدوء، على الرغم من أنه لم يكن مريحا تماما، إلا أنه منح الطلاب وقتا للاطمئنان مرة أخرى ... والنوم دون خوف وممارسة روتينهم دون النظر إلى من حولهم بعين الحذر.

في صباح اليوم التالي، اجتمع عدد صغير من الطلاب للصلاة وأمّ حمزة المصلين وكانت السماء لا تزال مظلمة قليلا. كان المعسكر يغشوه الهدوء والسكينة ... ثم، واحدا تلو الآخر، انضم المزيد من الطلاب إلى الصلاة. في نهاية الصلاة، نظر حمزة إلى الخلف وأدرك أن عددا كبيرا من الطلاب قد انضموا إليه، لقد كانت لحظة هادئة وجميلة مع بزوغ الفجر.

بعد فترة وجيزة من شروق الشمس، استدعى الرائد حسين الطلاب لاجتماع فوري.

كانت تعابيره غير واضحة المعالم وصوته مترددا، كما لو كان يتمنى ألا يضطر إلى قول ما كان على وشك أن يقوله. أبلغ الطلاب أن صلاة الجماعة مخالفة للأنظمة العسكرية وهي ممنوعة تماما.

لم يكن هذا مجرد اقتراح ... لقد كان قانونا مضمنا في هيكل الخدمة العسكرية. كانت صلاة الجماعة والصلاة عموما انتهاكا لتلك القوانين.

وقف الطلاب في صمت، متحملين ثقل الرسالة.

ومع ذلك، لم تكن نبيرة الرائد حسين قاسية. في الواقع، بدا غير مرتاح لتطبيق ذلك القانون ولم يوبخ الطلاب أو يهدد بالعقاب. بدلا من ذلك، قدم حلا وسطا بهدوء تام. قال: "إذا رغب الطلاب في الصلاة، فسيسمح لهم بذلك داخل خيامهم بمفردهم ودون تجمع". وشدد على أن الهدف هو عدم لفت الانتباه من خلال صلاة الجماعة التي قد تثير تساؤلات أو تؤدي إلى مشاكل مع الرتب العليا.

كانت كلماته نوعا غير مباشر من الإذن ... التطبيق الجزئي للقواعد دون خرقها تماما. رغم أن اللوائح العسكرية تحظر جميع الصلوات، سواء كانت جماعية أو فردية، إلا أنه كان يحاول إيجاد حل وسط.

وأوضح أن هذا لم يكن ترخيصا لخرق القواعد، بل كان تساهلا شخصيا ... كان بإمكانه فرض تنفيذ اللائحة حرفيا، لكنه بدلا من ذلك ترك الباب مفتوحا قليلا.

أوما الطلاب برؤوسهم، مشيرين إلى أنهم فهموا فحوى رسالته. كانوا يعلمون أنه كان يخاطر بشيء ما حتى من خلال تقديم هذا الإذن الصغير. فقد كانت القيادة العسكرية صارمة، وتتابع حتى الضباط بشكل دقيق. إذا وصل الأمر إلى كبار المسؤولين بأن الرائد حسين كان متساهلا للغاية، فيمكن النظر إليه على أنه يشجع الطلاب على مخالفة القوانين العسكرية ... وربما تقويض السلطة العسكرية أيضا.

فهم الطلاب المخاطر المترتبة على ذلك وكانوا يعلمون أنه بالنسبة للضباط، يمكن اعتبار السماح بالصلاة العامة كسلوك مرفوض يتعارض مع القانون العسكري. لذلك، قبلوا الحل الوسط وبدأوا يصلون في خيامهم بعيدا عن أعين أولئك الذين قد يبلغون عنهم.

في ذلك اليوم، وعندما بدأت الشمس في الغروب بينما كانت أشعتها الذهبية تتسلل إلى الطلاب عبر الأشجار الطويلة التي تحيط بالمعسكر من جميع الجهات، وحركت نسائم الهواء نواغم أغصانها واتسم الجو بهدوء غير عادي في بيئة عسكرية قاسية ... حدث أمر جلل.

كان ذلك بعد الساعة 5:00 مساء بقليل، حيث تجمع الطلاب في منطقة مفتوحة للجلسات التدريبية المسائية. كان هذا هو الوقت المميز لكثير من الطلاب ... عندما تبدأ حرارة الجو بالتلاشي وتحل محلها نسائم تحمل شيئا من البرودة التي كان الكثير يتطلعون إليها وينتظرونها.

أصبحت هذه الجلسات جزءا منتظما من روتين الطلاب التي تستمر تحت إشراف مدربيهم حيث كان بعضهم يستمع والبعض الآخر يفكر ... استوعب البعض دروسا في الانضباط وأساليب التكيف مع الحياة العسكرية والبقاء على قيد الحياة أثناء الأزمات والتفكير الاستراتيجي.

كانت تلك الجلسة التدريبية في الهواء الطلق في ساحة محاطة بأشجار طويلة شكلت نوعا من الحدود الطبيعية ... ساهم هذا في فصل المعسكر عن المناطق المحيطة به ... وجعل الطلاب يشعرون بمزيد من الهدوء. كانت لحظات بأهمية خاصة بسبب اعتدال حرارة الجو ومنظر الأشجار العالية المحيطة بالمعسكر.

في بعض الأمسيات، خاصة خلال نهاية الأسبوع، كانت قيادة المعسكر تدعو شخصيات بارزة ... مسؤولين رفيعي المستوى من القطاعات العسكرية أو الأمنية أو الحكومية لإلقاء محاضرات في معسكر التدريب الجامعي.

كان الغرض منها زيادة معلومات الطلاب خاصة بالقضايا التي تهتم بها الحكومة ... وتذكيرهم بأهميتها ... والقضايا التي يجب عليهم خدمتها إضافة إلى تعزيز قيم الواجب واحترام التسلسل الهرمي واحترام القيادة بشكل خاص. كما عملت المحاضرات على تعزيز الثقافة العسكرية والالتزام بالأوامر مهما كانت.

لكن ذلك المساء لم يسر وفقا لخطط قيادة المعسكر.

بينما كان الطلاب يستمعون إلى مدربيهم، كان بطوط متركزا عند البوابة الرئيسية للمعسكر. لقد تلقى تعليمات محددة للغاية من قبل رؤسائه: "لا يجوز لأحد أن يدخل المعسكر دون إذن صريح من الضابط المسؤول - بغض النظر عن هويته".

بالنسبة لمعظم الحرس المنتظمين، يتم فهم هذه الأنواع من التعليمات على أنها بروتوكول روتيني. لكن الجميع كانوا يعلمون أنه إذا جاء مسؤول رفيع المستوى، وخاصة ضيوف القيادة، فإن الحرس وبشكل تلقائي يفتحون البوابة ويحيون الضيف خاصة إذا كان ضابطا بالجيش، وبنفس الوقت يخطرون القيادة بقدوم الضيف.

كان هذا هو السلوك المتوقع عند التعامل مع شخص يرتدي الزي العسكري الذي يحمل شارة السلطة.

لكن بطوطا لم يكن يوما مثل الحرس الآخرين ... بطوط يتمتع بعقليته وفلسفته الخاصة. بالنسبة لبطوط، لم يكن هناك فرق بين شخصية حكومية أو جنرال أو وزير ... أو جندي نظامي. جميعهم أفراد ومواطنين في هذا الوطن ... والقانون قانون. الألقاب والرتب وإشارات الأركان اللامعة ... لا تعني شيئا لبطوط. الأوامر أوامر. عندما يكون بطوط هو الحارس لا يمكن لأحد أن يتخطاه، رئيسا كان أم مرؤوسا ... لا شيء يتخطاه بعد أن تلقى تعليمات من القيادة ألا يسمح لأحد بالدخول ... لا دخول دون إذن مسبق ... ولا واسطة ولا استثناءات ... الناس لديه سواسية كأسنان المشط.

في ذلك المساء المشؤوم بالنسبة للسلطة العسكرية ... وصل ضيف من السلك العسكري برتبة عميد ركن. وصل في سيارة بيجو بيضاء واقترب ببطء من البوابة. كان الرجل يرتدي الزي الرسمي الكامل وعلى كتفيه وصدره شارات كثيرة تلمع تحت أشعة الشمس الخافتة بسبب قرب حلول المساء. كان العميد يتوقع، كما يتوقع جميع العسكريين في رتبته، أن تفتح البوابة بسرعة وأن تؤدي له التحية وأن يشعروه بالاحترام ... لأن احترامه من احترام السلطة وإهانته هي إهانة للسلطة.

مع تقدم العميد، لم يتحرك بطوط.

تقدم أكثر إلى الأمام، وصمد بطوط دون أن يكثر له ... بدأ بطوط بصوت هادئ، ولكنه حازم وهو يخاطب الضابط، قائلاً.

"توقف، قف مكانك".

عبس العميد وبدا عليه الامتناع ... لكنه بقي في سيارته. ربما كان يعتقد أن بطوط لم يكن جادا ... أو الأسوأ من ذلك، جاهلاً بالرتب العسكرية أو لم ير الرتبة بشكل جيد. استمر في التقدم بسيارته إلى الأمام، ولكن بشكل بطيء جدا لترك المجال لبطوط حتى يفسح له الطريق ويفتح البوابة ... بعد أن يحيه على مقدمه الميمون.

بطوط لم يفعل ... ولم يتحرك. وعندما اقتربت السيارة أكثر، زمجر بطوط "توقف مكانك"!

"توقف! لا تتحرك بعد الآن". أطلق بطوط التحذير تلو الآخر ولم يستجب العميد ... وربما هز العميد اكتافه ليساعد بطوط على رؤية الرتبة ... لم يعلم بأن رتبته لا تساوي شيئاً عند بطوط. غضب بطوط لأن ذاك الرجل لم يستجب لتحذيراته ... ووضع يده على بندقيته. لم يستوعب العميد حركة بطوط ... فقد اعتاد أصحاب الرتب العسكرية على ازدراء المجندين ... ولم يقيموا لهم أي وزن أو اعتبار أو اهتمام.

استمر تجاهل العميد ... وكذلك تحذيرات بطوط لثوان معدودة.

لم يستطع بطوط التحمل أكثر ... فقد تجاهله ذاك الرجل كثيراً ... تحركت يد بطوط بشكل تلقائي نحو بندقيته ... صوبها نحو العميد الذي ازداد استغراباً ... في هذه اللحظات وضع بطوط بندقيته على وضعية إطلاق النار الآلية (رشاً).

صاح بطوط بصوت أعلى: "ابق مكانك! لا تتحرك!"

لكن السيارة واصلت تقدمها البطيء.

بالنسبة للعميد، كان من غير المبرر أو المعقول أن يجرؤ جندي على التحدث معه بهذه الطريقة ... ناهيك عن رفع السلاح في وجهه. كان العميد يعتقد أن الرتبة العسكرية مقدسة ... لا يمكن لأحد أن يتحداها.

لكن بطوط لم يهتم. لقد تلقى أمراً مباشراً، هذه الأوامر تبقى سارية ... وإن كان لا بد من الحرب فهو لها طالما كانت البندقية حاضرة بيده.

عندما وصلت السيارة على بعد أمتار قليلة من البوابة، وجه بطوط تحذيرا أخيرا ... لكن العميد تجاهله أيضا.

في اللحظة التالية، وصل توتر بطوط إلى أوجه ... كيف يتحدى ذلك الرجل التحذير تلو الآخر وأصر على اقتحام المعسكر الذي يحرسه بطوط ... بطوط الذي حفظ المعسكر ومنع الطلاب من الهروب لن يسمح لمتطفل على اقتحام المعسكر.

مع إطلاق التحذير الأخير، لقم بطوط ببندقيته ووجهها نحو سيارة العميد، ومع ذلك لم يتوقف العميد.

انفجر بركان بطوط مرة أخرى ... هذه المرة بعنف أكبر، بعد تحذيره الأخير أطلق بطوط وابلا من الرصاص على سيارة العميد.

اخترق صوت الرصاص هدوء المعسكر ... وأقلق راحته.

لقد هشم الرصاص مقدمة سيارة العميد ... لقد مزقها ... وانهارت مقدمتها تحت وابل الرصاص الذي أطلقه بطوط ... طارت شظايا معدنية وزجاج محطم من المصابيح الأمامية في الهواء ... بعضها ارتفع فوق الأشجار العالية التي تحيط بالمعسكر.

داخل السيارة، تجمد العميد. لم يستطع أن يفتح الباب من هول الصدمة ... لم يستطع الحركة. جلس في الداخل، مشلولا من الخوف، غارقا في الهزيمة ... مع إدراك مذهل أن سلطته لا تعني شيئا

في تلك اللحظة. كانت البندقية والرجل الذي يقف وراءها هي السلطة الحقيقية ... كانت بندقية بطوط في تلك اللحظة أهم من كل الشارات الموجودة على كتفي العميد.

من موقع التدريب، سمع الطلاب صدى إطلاق النار عبر الأشجار ... صاح معظمهم: "فعلها بطوط مرة أخرى!"

دون انتظار الأوامر، بدأ الطلاب في الجري نحو أرض الحدث عند البوابة الرئيسية ... عندما وصلوا شاهدوا أمرا عجيبا ... كأنه جزء من فلم رعب ... إنه مشهد من الفوضى. تصاعد القليل من الدخان من مقدمة السيارة، وتناثرت قطع معدنية وزجاجية عند مدخل المعسكر وملأت رائحة البارود التي لم ينكرها أحد ساحة التدريب.

كان الضرر في سيارة العميد كبيرا ... اخترق الرصاص مقدمة السيارة وهشمها ... وجعلت كثافة الرصاص أجزاء السيارة تتطاير في الهواء مثل قصاصات من الورق تلعب بها الرياح.

هرعت قيادة المعسكر إلى مكان الحادث حيث كان صدى مصيبة جديدة يتردد حولهم ... عندما وصلوا إلى البوابة، وجدوا العميد لا يزال داخل سيارته ... شاحبا ومرتجفا وفي حالة يرثى لها ... كان يعاني من صدمة كبيرة. لم يصب الرجل بجروح جسيمة، لكنه اهتز بشكل واضح ... سُحق نفسيا بسبب ما حدث للتو.

ساعده الضباط على الخروج من السيارة ورافقوه إلى مكاتب القيادة محاولين تهدئته. لم يكن الأمر سهلا. "إنها صدمة بطوط" كما أطلق عليها الطلاب مازحين ... إذا ثار البركان فالعواقب ستكون حتما وخيمة. لقد فعلت صدمة بطوط فعلتها في السلك العسكري ... أكثر من مجرد إتلاف سيارة

... فقد أخضعت رجلا قويا أمام الجميع وأرسل صدى رصاصه موجات صادمة في المعسكر
بأكمله وبما ورائه.

لم ينج بطوط من العواقب ... هذه المرة أحدث انقلابا عسكريا ... حيث أصبح الجندي هو الأمر
والعميد هو المأمور.

هذا الحادث الثاني والأكثر عنفا من الأول، لا يمكن تجاهله أو تجاهل تداعياته. مرة أخرى، تجاوز
بطوط خطأ أحمر – خطأ لم تستطع القيادة أن تغفره. أوامر أم لا، كان إطلاق النار على ضابط
كبير أمر لا يمكن تصوره.

في أعقاب ذلك، تم سحب بطوط بعيدا، ومن ثم كان عليه أن يتحمل جولة ثانية من العذاب ...
العقوبة الوحشية ... أسوأ بكثير من معاناته في المرة الأولى. كانت هذه الرحلة الجديدة إلى العذاب
أكثر حدة وسرية وأوسع ضررا. لم يسمع الطلاب سوى همسات حول ما حدث له.
وبعد ذلك - لا شيء.

اختفى بطوط!

لم تكن هناك معلومات رسمية عن مصيره. لقد رحل! مرت الأيام ... لكن الطلاب لم يروه مرة
أخرى. لقد اختفى تماما، مثل ظل أزاله وضح النهار.

سألوا عنه، لكن لم يكن هناك أي إجابة. انتشرت الشائعات وكثرت التكهّنات ... لكن لم تظهر أي حقائق. أصبح بطوط شبّاحا ... ذاكرة ... اسما لا يزال يتردد صده في المعسكر، يتحدث عنه الجميع بإعجاب.

بالنسبة للطلاب، انتهت قصة بطوط في ذلك اليوم عند البوابة الرئيسية، مع عاصفة من الرصاص والدخان.

لكن في أذهانهم ... بقيت الأسطورة ... لن يرحل ذلك الشاب ... الشاب الذي لا ذنب له إلا أنه شخص مسكين اتبع أوامر ظالمة ... لكنه تحدّى الرتب ... وأذل السلطة العسكرية ... واختفى قبل أن يتمكن أحد من فهمه.

بعد الحوادث المأساوية التي وقعت على يد بطوط، عاد المعسكر تدريجيا إلى حالة من الهدوء الحذر. استؤنف الإيقاع اليومي للحياة العسكرية ... استمرت الدورات التدريبية والتدريبات والأنشطة المجدولة كما لو أن شيئا لم يحدث على الإطلاق.

كانت القيادة حريصة على استعادة النظام وحاول الطلاب التكيف بطريقتهم الخاصة. مع ذلك، ظل شعور طويل الأمد بالغياب يجول في خواطرهم.

على الرغم من أن الأمور بدت طبيعية، إلا أن الطلاب لم يستطيعوا إلا التفكير في بطوط. لقد أصبح أكثر من مجرد حارس زميل. لقد كان رمزا لشيء أعظم ... رجل ثبت على مواقفه ... تحدّى السلطة ... ثم اختفى دون أن يترك أثرا.

لم يره أحد منذ الحادث الأخير ... لم يتم تقديم أي شيء عنه ... ولا كلمة واحدة من القيادة. كان الأمر كما لو أنه قد تم محوه من سجلات المعسكر إلى الأبد ... أو مجرد حلم.

مع ذلك، فقد عاش في محادثات الطلاب وذكرياتهم. وغالبا ما تحدثوا عنه خلال محادثاتهم في وقت متأخر من الليل، وسردوا افتراضات حول ما قد يحدث له، على أمل أن يكون بخير ... أو ربما تم نقله إلى مكان آخر ... الكل يتمنى ألا يحدث له مكروه ... ولكن الصمت المحيط بمصيره زاد الغموض حدة.

لقد افتقده الطلاب ... ليس فقط لجرأته، ولكن لأن بطوطا جسد شيئا لم يفهموه تماما حتى رحيله: المقاومة والشجاعة وعدم القدرة على التنبؤ بما سيفعل. علمتهم الحياة أن كل شخص في المعسكر قد مر بحالات يسر وعسر ومرونة وشدة. لكن بالنسبة لبطوط، بدا أن المعسكر لم يقدم له إلا العسر والشدائد ... كانت أيامه مليئة بالمعاناة والعزلة والعقاب، ومع ذلك حمل نفسه بروح لا تتزعزع ... كل هذا جعله لا ينسى.

ومع اقتراب نهاية المعسكر، شعر الطلاب بمزيد من الراحة والطمأنينة. أيام التدريب الطويلة بدأت تمضي أسرع، أو هكذا كانوا يظنون ... وتمضي معها أحداث وظروف استثنائية ستكون جزءا من الذاكرة قريبا. كان شعورهم في الأيام الأخيرة كما لو أن الوقت تعاطف معهم ... حتى الرياح التي كانت تتسلل إليهم عبر الأشجار بدت مختلفة ... إنها أقل قسوة مع قليل من الحنين إلى الماضي ولما هو آت.

بعد ظهر أحد الأيام الأخيرة، طلب يوسف بهدوء من بعض زملاءه الانضمام إليه في صلاة جماعة. لم يكن ذاك طلبا جماعيا إنما كان لبعض الأصدقاء لعدم لفت الانتباه. في البداية، انضم عدد قليل فقط ليوسف في الصلاة التي كانت تحت ظل الأشجار، قرب ساحة التدريب المفتوحة. كان الهواء هادئا والأجواء يعمها الهدوء، لكن الشمس كانت تتوهج فوق الأشجار.

بدأ يوسف في إمامته للصلاة، ومن ثم حدث ما لم يكن يتوقعه ... تماما كما حدث في أول صلاة جماعة قبل أيام حين كان حمزة يوم الطلاب وانضم إليه المزيد أثناء الصلاة ... واحدا تلو الآخر، تشكلت صفوف من المصلين خلف يوسف.

ما إن انتهت الصلاة حتى رأى يوسف خلفه حشد من الطلاب.

مشهد لعشرات الطلاب وهم يصلون معا، هذا ما يمكن رؤيته من خارج المعسكر. مثل هذا الأمر ليس من المتوقع أن يمر مرور الكرام. كان ذلك مرة أخرى انتهاكا واضحا للقوانين العسكرية – خرقا جديدا للأنظمة التي تحظر الصلاة وإقامة الشعائر الدينية أثناء الخدمة العسكرية.

بعد الصلاة مباشرة، استدعى الرائد حسين الطلاب لاجتماع آخر.

كانت نبرته جادة أكثر هذه المرة، وإن لم تكن قاسية ... لقد خاطبهم من قبل حول نفس المسألة، والآن وجد نفسه يفعل ذلك مرة أخرى.

لقد ذكّر الطلاب مرة ثانية بأن الصلاة ممنوعة منعاً باتاً في الجيش السوري ... ولم تكن مسألة رأي أو تفضيل شخصي – إنه قانون. وأوضح أنه حتى الصلاة داخل الخيام ممنوعة، ولكنه لم يستجوب أي أحد صلى منفرداً أو داخل خيمته.

"لا تصلوا في الساحة"، حذرهم مراراً. "نحن لا نفتش عن النوايا ... ولكن هذا النوع من العمل العلني يمكن أن يخلق العديد من المشاكل – ليس فقط لكم، ولكن لإدارة المعسكر والمعسكر بأكمله. أنا لا أطلب منكم التخلي عن الصلاة ... أطلب منكم فقط حماية أنفسكم وعدم التسبب بمشاكل لا داعي لها".

استمع يوسف والآخرين بعناية ... لم يجادلوا لأنهم يعلمون جيداً عواقب مخالفة الأنظمة العسكرية، ثم إنهم لا يريدون أن يسببوا المشاكل أو أي مكروه للرائد خاصة أنه كان متعاوناً معهم. كان من الواضح أن الرائد حسين كان يعالج الموضوع بشكل معتدل فقد كان بين نارين – تطبيق القانون العسكري واحترام الشعائر الدينية.

لم يكن يهددهم، ولم يكن يضايقهم. بدلاً من ذلك، كان يحاول إيجاد حل وسط ... ومساحة صغيرة من التفاهم في بيئة قاسية لا تعرف الرحمة.

أوماً الطلاب برؤوسهم بالموافقة.

لقد كانوا يدركون المخاطر، وقدرُوا أسلوب الرائد في التعامل مع ذلك الموضوع الحساس. على الرغم من أنهم كانوا يعلمون أن يديه مقيدة بالقوانين نفسها التي كان عليه أن يطبقها، إلا أن طريقة معاملته للطلاب جعلتهم يكونون له الاحترام.

في اليوم التالي، أصبح الطلاب في يومهم الأخير في المعسكر ... وقد ازدادت بهجتهم أكثر. كان اليوم الأخير دائما هو المفضل لديهم لأنه لم يكن عليهم الانتظار حتى نهايته، بل كان يسمح لهم بالمغادرة منذ الظهر.

خارج بوابة المعسكر، وقف شخص مألوف بانتظارهم ... إنه درغام، سائقهم المفضل، وكان على استعداد لنقلهم إلى منازلهم. جمع الطلاب حقائبهم ومتعلقاتهم ... وودعوا المدربين وزملائهم الآخرين ... نظروا حولهم للمرة الأخيرة في أرجاء المعسكر ... المكان الذي شهد أحداثا لا تنسى ... وأثر عليهم وترك فيهم ذكريات أصبحت جميلة منذ لحظة خروجهم من المعسكر.

على الرغم من المصاعب والمخاوف ولحظات الفوضى، فقد غادروا المعسكر ... ليس بمرارة، ولكن بشعور بالنضج. ما مروا به هناك تجاوز آثار التدريب العسكري ... لقد كانت دروسا مكثفة في الطبيعة البشرية والانضباط والمرونة ... والتعامل مع الظروف التي لا يمكن التنبؤ بها.

لقد مروا بلحظات من الإثارة، ولحظات من الخطر ... ولحظات لا معنى لها ببساطة. كان هناك خوف وضحك ومرح وألم. كانت هناك قواعد أجبروا على اتباعها وقواعد لم يقتنعوا بها أصلا.

وفي صميم ذلك، كان هناك أشخاص مثل بطوط وأفراد آخرين ... كل يعمل ويتصرف وفق طريقته وقدرته العقلية مبينا الانسجام بين الطباع البشرية تارة ... والاختلاف تارة أخرى ... لكن في النهاية، يؤكد سلوكهم بأن الإنسانية لا تزال موجودة داخل نظام حاول في كثير من الأحيان تجريدتها.

عندما ابتعدت الحافلة عن المعسكر وتلاشت الأشجار من خلفهم ... حمل الطلاب معهم أكثر من مجرد متعلقات وشهادة بإتمام معسكر التدريب ... لقد حملوا معهم قصصا وذاكرات ودروسا ستبقى معهم خارج حدود المعسكر ... ربما إلى الأبد.

الفصل السادس

إدارة الأزمة في المعسكر

يعكس النهج الذي اتبعته قيادة المعسكر في إدارة الأزمة الإخفاقات المتتالية الأوسع نطاقا للنظام نفسه. من القمة إلى القاعدة، كان النظام بأكمله يعج بالفساد ... فساد متعمق الجذور يستحيل معالجته إلا بذهاب نظام بأكمله، إضافة إلى البيروقراطية المنتشرة في مفاصل الدولة والرشوة والواسطة والمحسوبية والقمع السياسي والظلم وعدم الكفاءة وغيرها مما لا يعد ولا يحصى.

لم تتغلغل هذه المصائب في الحياة المدنية فحسب، بل تغلغت في كل ركن من أركان الدولة بما في ذلك الحكومة والجيش والمؤسسات الأمنية والعامة ... حتى معسكر التدريب الجامعي لم يسلم منها، وخير شاهد على ذلك الأحداث التي وقعت فيه والتي تعد رمزا للفشل الإداري.

بطوط، الشاب الذي كان يعاني من بعض المشاكل الصحية ... ربما كانت مشاكل نفسية أو عقلية أو غيرها ... مثل هذا الشاب لم يكن عليه أن يصل ذاك المكان. وفقا للقانون العسكري في سوريا، تم تحديد العديد من الإعفاءات من الخدمة العسكرية الإلزامية بشكل واضح.

تشمل هذه الإعفاءات كل شاب وحيد لعائلته ... والهدف من هذه الإعفاءات هو مساعدة الأسر من خلال إعفاء الذكر الوحيد في الأسرة ليساهم في إعالة أسرته.

تشمل تلك الإعفاءات أيضا كل الذين يعانون من أمراض مزمنة، بما في ذلك الاضطرابات العقلية أو النفسية. وفقا لتلك القوانين كان يجب أن يكون بطوط مؤهلا للإعفاء نتيجة المشاكل الصحية التي كان يعاني منها.

ولكن في ظل أي نظام فاسد ... تفسد القوانين ولا يكون لها قيمة. يجب أن تحمي هذه القوانين الأفراد الضعفاء مثل بطوط، ولكن تطبيق هذه القوانين لا يتم بالشكل الصحيح عندما ينتشر الفساد والرشوة.

حتى تتمكن عائلة من تأمين إعفاء لأحد أفرادها يجب أن تسعى ليس فقط عبر تقديم الوثائق المطلوبة، إذ أن في معظم الحالات إذ لم ترتبط بصلات شخصية بمسؤولين ذوي نفوذ أو من خلال دفع الرشاوي لضمان منح الإعفاء ... فالإعفاء لا يمنح بالسهولة التي يجب أن تكون متاحة لمستحقه. بالنسبة للمواطن السوري العادي الذي ليس لديه ما يدفعه، فإن تحقيق هذا ليس بالأمر السهل خاصة إذا كانت الأعراض خفية نوعا ما، أو لا تظهر بشكل دائم كحالة بطوط.

ربما كانت تلك هي الحالة المأساوية لعائلة بطوط أو لأي سبب آخر يجهله الجميع. وهذا مثال من أمثلة كثيرة عن كيفية تضحية النظام بالفقراء والضعفاء في كثير من الأحيان لأن الإعفاءات تمنح عادة لأصحاب الامتيازات.

حتى لو كانت هناك محاولات لجمع أدلة طبية لمثل حالة بطوط، فمن غير المرجح أن تسير الأمور بسهولة في غياب النفوذ والعلاقات السياسية أو القدرة المالية. ربما كان ذلك وراء إرسال

بطوط إلى المعسكر ... المكان الذي لم يكن ليصلح له ... لا يصلح لأي شخص يعاني ما يعانيه بطوط.

في إحدى الأمسيات وبعد انتهاء معسكر التدريب الجامعي، خاطب يوسف زملاءه، قائلاً: "ما يجعلني حقا أسف لبطوط هي الشكوك التي تساورني حول حالته وقدرته العقلية". في لحظة وجيزة بدا أنه بخير تماما ولا يعاني من أي شيء ... ومن ثم ... في اللحظة التي تليها ... بدا الأمر كما لو أنه كان يعاني من مرض عضال.

"هذا النوع من السلوك غير المنتظم قد يكون له أسباب كثيرة"، قال غنام الذي التحق بكلية الطب في جامعة دمشق في السنة التالية. "قد يكون مرتبطا بمشاكل نفسية خطيرة. لكن بدلا من تقييمه من قبل أشخاص مختصين، دفعوه إلى المعسكر مثله مثل أي شخص آخر ليس لديه مشاكل".

"لم يفكر أحد ... لا قائد ولا طبيب ... في التوقف والسؤال"، قال مظفر. "هل بطوط بخير؟"

"هذا ليس مجرد فشل للنظام ... إنه فشل لكل من حوله في المعسكر"، أضاف يوسف. "القادة والجنود والطلاب ... الكل رأى شيئا، لكنهم تجاهلوه ... أو لم يكثرثوا لما رأوا".

"بدلاً من التعامل مع بطوط كشخص يحتاج إلى المساعدة ... الكل تعامل معه على طريقته، مما جعله يبدو كأداة وليس شخصاً"، قال حمزة. "أما النظام، فكان ينبغي أن يحميه! ... تخلى عنه بعد أن وضعه في قلب العاصفة".

"الأمور ساءت أكثر عندما بدأ الطلاب في إعطائه الأوامر مباشرة"، قال محمد. "أعتقد أنهم كانوا يمزحون في البداية، لكنه لم يتردد ... هذا الرجل سيفعل أي شيء تطلبه منه. ربما ظن أنه طالما تواجد داخل المعسكر فعليه تنفيذ كل أمر يسمعه ... بغض النظر عن الأمر".

"عندما نادوه باسمه، ركض نحوهم كما لو أنها كانت مسألة حياة أو موت"، قال مظفر. "قالوا: لقم بندقيتك ثم فعل ذلك دون تردد ... ثم من سيئ إلى أسوأ ... ما سمع الأمر بإطلاق النار حتى نفذ مباشرة".

"دون تفكير، ولا تردد"، تساءل غنام. "اتبع الأوامر كرجل آلي ... ثم كانت النتيجة مرعبة".

"هذا النوع من الطاعة العمياء يثير الكثير من الأسئلة"، قال محمد. "هل هو لم يستطع التمييز بين الأوامر الحقيقية والأوامر المصطنعة ... لا تمييز، لا شيء آخر!"

"بالضبط"، أجب مظفر. "لم يكن قاتلا أو يود القتل ... لقد كان شخصا فقد القدرة على التركيز أو فهم ما كان يحدث من حوله. أعتقد أنه تصرف بدافع الخوف والارتباك وليس بدافع الضرر".

"هذا يجعلك تتساءل ... لو أي شخص رآه ... فقط فكر قليلا به، لاحظ ما كان يمر به ... ولو فعلوا ربما لم يكن ذلك ليحدث"، أضاف يوسف.

من الناحية العملية، يمكن لأي شخص أن يتساءل إذا ما كانت تصرفات بطوط خارج إطار الواجبات الموكلة إليه أم لا. بما أنه جزء من أفراد الأمن في المعسكر، فإن مسؤوليته الأساسية هي حفظ النظام والأمن وضمان عدم دخول أو خروج أي فرد بشكل غير قانوني.

من هذا المنظور، كان بطوط يفعل ما يمليه عليه الواجب وما تم تدريبه على القيام به ... وهو الرد على الانتهاكات الأمنية المحتملة. لسوء الحظ، أدى تفسيره للموقف، جنبا إلى جنب مع حالته العقلية غير المستقرة وتدخل الطلاب، إلى إساءة استخدام سلطته. شخص مثله لا بد أن يكون سأل نفسه ... لماذا أعطوه سلاحا وبذخيرة كاملة؟ هل ليلتقط معه الصور؟ بالنسبة له هذا السلاح أعطي له ليدافع عن المعسكر ضد أي اختراقات... وقد حصل الاختراق!

هذا يثير أسئلة أبعد ومقلقة للغاية حول مساءلة المتورطين. هل كان بطوط مخطئا تماما، أم أنه كان مجرد حلقة أخيرة في سلسلة طويلة من الإخفاقات المؤسسية؟ الطلاب الذين حرضوه – هل كانوا يستنفرونه عمدا؟ يستنفرون شخصا يتوقعون أن يكون غير مستقر عقليا؟ وماذا عن قادة

المعسكر الذين فشلوا في إدراك عدم ملائمة بطوط للخدمة العسكرية! أو النظام الذي دفعه إلى هناك في المقام الأول!

يتحمل كل من هؤلاء جزءا من المسؤولية، لكن نصيب الأسد يقع على عاتق النظام والمؤسسة العسكرية. ساهم فشل الحكومة في تنفيذ قوانينها العسكرية، وإهمالها للتقييمات الطبية المناسبة، واعتمادها على المحسوبية والرشوة، في وقوع تلك الحوادث التي كادت أن تؤدي بحياة بعض الطلاب وآخر من السلك العسكري نفسه.

من نواح كثيرة، كان بطوط ضحية وكبش فداء وليس جنديا ... عالقا في شبكة فاسدة تعاني من الخلل الوظيفي الممنهج. كان من الممكن تجنب هذه المهزلة لو تم تطبيق القوانين فقط بإنصاف ودون تمييز.

لو تم تقييم حالة بطوط بشكل صحيح، لكان قد تم إعفاؤه من الخدمة وربما تلقى الرعاية الطبية التي يحتاجها ... لو كانت قيادة المعسكر قد أولت اهتماما أكبر لسلوكه، فربما أنقذوه قبل أن يوضع في موقع المسؤولية ... لو كان الطلاب قد تصرفوا بحكمة أكثر مع ضبط النفس، لكان من الممكن تجنب الحوادث.

في نهاية المطاف، تكشف أحداث المعسكر عن التأثير المدمر لنظام فاسد لم يول يوما للإصلاح والعدالة أي اهتمام. إنها تكشف عدم اكتراث المؤسسات لسلامة المواطنين ... عندما تسوء الأمور إلى هذا الحد فإنها قد تدمر الحياة.

لا تتعلق قصة بطوط بانهيار رجل واحد فحسب ... إنها شهادة قاتمة على ما يحدث عندما يتم استبدال العدالة بالمحسوبية، وعندما يتم تجاهل الصحة، وعندما يتم التخلي عن الأفراد من قبل المكلفين برعايتهم.

إن أزمة المعسكر ليست حادثة منفصلة عن الواقع، بل هي انعكاس للفشل الرسمي نتيجة الإهمال والفساد والغياب التام للاحترام المتبادل ... كل من هذه المشاكل كانت موجودة في المعسكر، تماما كما كانت موجودة في جميع الهياكل السياسية والاقتصادية والإدارية الأوسع للبلاد.

لم تكن المأساة الحقيقية فقط ما حدث لبطوط ... فقد حدث الكثير من المآسي لآخرين مثله ... استمروا في المعاناة في صمت غير مرئي وغير مسموع في نظام مصمم ليس لخدمة المواطن وإنما للسيطرة عليه.

فكر مظفر ذات يوم في الحادثة الأولى، فقال: "تلقى بطوط أوامر من الطلاب ونفذها ... لم يكن عاقلا بما فيه الكفاية للتمييز بين ما يجب فعله وما يجب تركه".

تجسد كلماته لب المأساة ... شاب، من الواضح أنه يعاني من عدم الاستقرار العقلي أو أي مشاكل أخرى، تم وضعه في موقع المسؤولية والضغط دون توجيه أو تدريب حقيقي لأنه لو تم ذلك لاكتشفوا أنه غير لائق للخدمة العسكرية أصلا.

ردد غنام شعورا مماثلا، مشيرا إلى أن "الحاجز بين الأمرين أربك بطوط، مما دفعه إلى التصرف بعنف ... هذا يؤكد أن بطوط لم يكن سليما عقليا بما يكفي لاتخاذ قرار عقلاني".

في الواقع، ما تكتشف بعد الحادث كان أكثر من مجرد سوء تقدير. لقد كان فشلا منهجيا في التعرف على الأزمة النفسية للشباب والاستجابة لها، مما أدى إلى عواقب كادت أن تكون وخيمة.

ذهب يوسف إلى أبعد من ذلك، وأثار سلسلة من الأسئلة المثيرة قائلًا: "انتهى الحادث الأول بتعذيب شديد. لكن هل استحق بطوط حقا مثل هذه العقاب؟ كيف سمحت قيادة المعسكر لشخص مثل بطوط بحمل بندقية مذكرة؟ هل كان هذا إهمالا متعمدا أم شيئا آخر؟ لماذا لم تستطع القيادة اكتشاف مشاكله العقلية أو النفسية في الوقت المناسب؟ كل هذه التساؤلات لم تتم الإجابة عليها ... وربما تم تجاهلها عمدا ... في نظام نادرا ما تنتقل فيه المسألة إلى الرتب الأعلى.

ما يجعل الموقف أكثر حيرة هو أن الطلاب كانوا قادرين على اكتشاف أن شيئا ما لم يكن طبيعيا في بطوط منذ البداية. لاحظوا أنه لم يكن مستقرا عقليا ... غير مستقر بما يكفي للوثوق به وتسليمه سلاح مذكر.

إدراكا لهذا الخطر، ابتكر الطلاب اختبارا بسيطا للتحقق مما إذا كانت بندقيته مذكرة أم لا. لقد اختلقوا سيناريو لخداع بطوط وإقناعه بنزع مخزن بندقيته. أثبتت هذه الاستراتيجية البسيطة والعفوية، التي ابتكرها الطلاب، أنه حتى العين غير المدربة يمكنها رؤية ما فشلت القيادة في رؤيته.

إذا كان بإمكان الطلاب فهم خطورة حالة بطوط، فلماذا لم تستطع القيادة؟ لا يزال هذا السؤال يطارد أولئك الذين شهدوا الحوادث. هل حقا لم تكن القيادة على دراية بحالة بطوط؟ أم أنها ببساطة غير مبالية؟

طرح حمزة سؤالاً آخر، متعجباً: "كيف يمكن للقيادة، بكل خبرتها وسلطتها، أن تفشل في التعرف على حالة بطوط؟".

تكهن بعض الطلاب بأن القيادة قد لاحظت، في الواقع، العلامات التحذيرية لكنها آثرت تجاهلها. وتحدث آخرون عن التناقض في سلوك النظام الذي ربما كان السبب الرئيسي وراء كلما حدث.

في بلد كانت تدعي فيه الحكومة أنها تعرف كل شيء عن مواطنيها ... ربما نعم ... من خلال شبكاتها من الجواسيس والمخبرين ... لكن السؤال كيف يمكن أن تفشل في إدراك حالة بطوط وأنه غير لائق للخدمة العسكرية؟ هل كان هذا فشلاً حقيقياً؟ أم أنه حدث لأن بطوط ببساطة ليس بذئياً أهمية بالنسبة للنظام ... نظام لا يعطي أي قيمة لحياة الضعفاء!

ثم يأتي السؤال الأكثر إيلافاً على الإطلاق: من يستحق العقاب حقاً على ما حدث؟

هل كان بطوط هو الذي نفذ الحادث من تلقاء نفسه؟ أم كانت قيادة المعسكر هي التي سلحته ببندقية مذبذبة وأعطته مسؤوليات تتجاوز قدرته العقلية؟ أو ربما كان الطلاب هم الذين رأوا عدم استقراره ولم يكثر ثواله ... بل دفعوه نحو سلوكه غير المسؤول، وأعطوه في النهاية الأمر بإطلاق النار؟ أم أن اللوم النهائي يقع على عاتق النظام نفسه ... نفس النظام الذي قام بتجنيد بطوط في الجيش؟

لا توجد إجابات بسيطة ... قام بطوط بالضغط على الزناد، لكن النظر إليه على أنه الجاني الأوحيد هو تجاهل لشبكة المسؤولية الأكبر. لم يتصرف بمفرده، كان محاطاً بأشخاص أكثر ... طلاب أججوا حالته العقلية من خلال المزاح والتشجيع ... وضباط فشلوا في واجبهم.

البندقية التي كان يحملها مذخرة وجاهزة، لا ينبغي أن تكون بين يديه. هذا القرار لم يتخذه بطوط ... تسليم سلاح لشخص لديه علامات واضحة على عدم الاستقرار النفسي أو العقلي ... هذه كارثة بكل ما تحمله الكلمة من معنى ... قرار اتخذه مسؤولو المعسكر.

في أعقاب الحادث الأول، تحمل بطوط وحده العواقب. تعرض للتعذيب الشديد، وأصبح جسده شهادة مدوية على فشل النظام. ولكن بينما عوقب بقسوة وعلى رؤوس الأشهاد ... فإن أولئك الذين شاركوا في المسؤولية ذهبوا دون أن يمس أحد منهم بسوء.

لم تكن هناك مساءلة للقيادة التي سلحته ... لا توبيخ للطلاب الذين أعطوه الأمر. لم يتم طرح أي أسئلة على النظام الذي تجاهل الأعلام الحمراء الواضحة وسمح للوضع بأن يتفاقم مرار وتكرار. أصبح بطوط كبش فداء ... تم التضحية ببطوط لحماية الصورة المزعومة للنظام والسلطة. في معاناته، لم يتحمل الذنب عن أفعاله فحسب، بل تحمل وعانى عن الجميع.

لقد حمل عبء أفعاله ونتائج إهمال القيادة ولامبالاة الطلاب وقسوة النظام.

لقد كان، إلى حد ما، مدافعا عن الجميع ... يعاقب من أجل أن يرتاح ويضحك الجميع ... حتى تظل صورة الآخرين جميلة. كانت عقوبته بمثابة خاتمة ملائمة لحادث لم يرغب أحد في التحقيق فيه بطريقة إنسانية.

في نظر النظام، كان تعذيب بطوط أسهل من مواجهة الحقيقة غير المقبولة مطلقا وهي فشل الجيش وقيادة المعسكر والنظام ومن ورائهم الطلاب جميعا.

لو تم تحقيق عادل، ولو تم إجراء تحقيق شامل؟ لكانت المسؤولية قد توزعت على الجميع ...
وعندها سيتحمل بطوط الجزء الأصغر ... وربما يتم إعفاؤه من المسؤولية كاملة ومن ثم علاجه
بدلاً من عقابه.

كان من الممكن أن تحاسب القيادة على إهمالها ... كان من الممكن توبيخ الطلاب على سلوكهم
المتهور ... وربما كان على النظام مواجهة تناقضه ... النظام الذي يدعي أنه يعرف كل شيء عن
مواطنيه، لكنه لم يستطع أو لا يدرك الخطر الذي وضعه في يدي شاب مضطرب الحالة النفسية.
بدلاً من ذلك، ساد صمت غريب ... وظلت الأسئلة دون إجابة. كان الألم الذي عانى منه بطوط
يصاحب كل الأصوات التي تم إسكاتها ... بالخوف وبالتهديد الذي يبثه نظام يعاقب الضعفاء
لحماية الأقوياء.

في هذا الصدد، قال يوسف: " لم يكن الحادث الأول مع بطوط مجرد خطأ من جانبه ... كشف
عن أشياء أكبر بكثير ... نظام معطل ... تهرب من المسؤولية ... تجاهل الصحة العقلية والنفسية
... والظلم يستتر وراء كلمة – الانضباط".

"بالضبط"، قال مظفر. "ما حدث لم يكن مجرد رجل واحد يتصرف بهذه الطريق ... لقد كان
فشلاً ذريعاً في الضمير والمساءلة ... شاهد الكثير من الطلاب بأمر أعينهم كيف حدث ذلك".

"حاولت القيادة التصرف، محاولة أن تفعل شيئاً ذا معنى بعد ذلك"، أضاف حمزة. "إنهم شرعوا
بتحقيق للنظر في سبب إطلاق النار على الطلاب. بدأ الأمر جيداً ... لكن انتهى الأمر بالتحقيق
ليكون فقط للحفاظ على المظهر اللائق".

"هل سمع أي شخص عن نتائج التحقيق؟" سأل يوسف. "أي نتائج؟ التقارير؟ أي شيء؟"

"هذا هو بيت القصيد"، قال مظفر. "التحقيق لا قيمة له ... أو الأسوأ من ذلك، ربما أنهم اكتشفوا

شيئاً وأخفوه لحماية صورتهم ... مهما كان الأمر، لم يكن للطلاب أن يعلموا شيئاً أبداً".

"المفاجأة عندما تدرك أن الهدف الحقيقي لم يكن لحل المشكلة"، قال أحمد العطية. "فقط الحفاظ

على الهدوء ... الماضي قدما والتظاهر بأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق".

"لكن أسوأ ما في الأمر"، رد يوسف. "لقد أعادوا تسليح بطوط. ما الذي كانوا يفكرون فيه؟ كان

قد أطلق النار على الطلاب! كان الجميع يعلم أنه لم يكن مستقراً ... وأعطوه بندقية م ذخرة مرة

أخرى!"

"شعرت بأن كل ذلك كان ضرباً من الخيال ... هل حدث ذلك الأمر حقاً؟" سأل محمد. "أم كان

هناك شيء خاطئ؟ من توقع أن مثل هذا الأمر قد يحدث؟"

"هذا يخالف كل قاعدة من قواعد الأمن والسلامة"، قال يوسف. "يخالف المنطق العسكري، ومع

ذلك منحوا بطوط السلاح ... كأنهم يقولون له اصنع ما شئت ... ولن يحدث شيء سوى جولات

من التعذيب".

"لم يحاولوا حتى فهم ما كان يحدث له"، أضاف مظفر. "لا تقييم لحالته ... لا قلق حقيقي حول

صحته ... مجرد حلول متسرعة ... نقله إلى مكان آخر ... هذا هو الحل العبقري الذي توصلوا

إليه بعد جهد جهيد ... أليس كذلك؟"

"نعم، نقلوه من الجانب الشرقي من المعسكر إلى البوابة الرئيسية"، قال محمد. "كما لو أن تغيير المواقع من شأنه أن يصلح كل شيء بطريقة سحرية".

"والمكان الذي نقلوه إليه"، رد أحمد مستغربا. "نعم كان معزولا أكثر عن الجانب الشرقي حيث يتواجد الطلاب ... لقد أصبح بعيدا عن خيام الطلاب، لكنه أصبح على اتصال مباشر مع كل من يدخل أو يخرج. لقد أصبح زعيم البوابة الرئيسية".

"لم يكن قرارا سيئا فحسب، بل كان خطيرا"، قال محمد. "هذا الإجراء لم يحل المشكلة ... بل نقلوا المشكلة من مكان إلى آخر على أمل ألا يواجهوا أي مصاعب أو مشاكل فيما تبقى من أيام المعسكر".

من خلال نقله إلى البوابة، اعتقدت القيادة أنها وجدت حلا وحيدا لا ثاني له ... أي أنهم وضعوا حدا للمشاكل من خلال منع احتكاك بطوط واتصاله بالطلاب.

وفقا لحساباتهم، لم تكن المشكلة في بطوط نفسه، ولكن كانت في المكان الذي وضع فيه ... قربه من المحرضين ... تلك هي المشكلة، أما إذا أبعد بطوط فسيعم السلام.

بالنسبة للعديد من الطلاب، لم ينظروا إلى نقل بطوط على أنه إجراء احترازي أو تأديبي أو حتى عقوبة ... في الواقع، بدا وكأنه ترقية. وضعه في مكان جديد أكثر أهمية وأكثر راحة له ... عند البوابة في موقع استراتيجي مهم ليكون مسؤولا عن كل من يدخل أو يخرج من المعسكر. لم ينظر الطلاب إلى ذلك الإجراء على أنه تهميش أو تخفيض لمنزلة بطوط، بل نظروا إليه كمكافأة ... أو ربما تكريم.

إنه تناقض صارخ ... كيف يمكن لشخص أن يتعرض للتعذيب والمكافأة في نفس الوقت؟ بعد كل شيء، واجه بطوط عقابا قاسيا بعد الحادث الأول وعانى من مرحلة وحشية من التعذيب ... ومن ثم تمت مكافأته!

إذا اعتقدت القيادة حقا أنه ارتكب شيئا خاطئا، فلماذا أعيد إلى الواجبات العسكرية وفي موقع أكثر أهمية، وتم تسليحه بنفس البندقية؟ وإذا كانوا يعتقدون أنه فعل شيئا صحيحا، فلماذا عذبوه بشدة؟ كان ذلك التناقض في معاملة بطوط الغامضة يمثل المنطق الفوضوي للنظام نفسه ... النظام الذي يعاقب ويكافئ ليس على أساس العدالة، ولكن على أساس المصلحة ... مصلحة النظام نفسه فقط. لم تكن إجراءات القيادة تتسم بالرشد أو حسن الخلق والمعاملة أو التعامل مع الأحداث وفقا لمعطياتها أو الفهم الدقيق للمشاكل ... بل اتسمت بالخوف من المساءلة.

وكما هو متوقع، لم يحل نقل بطوط المشكلة، إنما نقلها إلى موضع جديد.

عند البوابة، اندلع "بركان بطوط" مرة أخرى ... ولكن هذه المرة، كانت العواقب أكثر دراماتيكية، وكان الهدف مختلفا. لم يعد بطوط على اتصال بالطلاب، ووجد نفسه الآن على اتصال بأفراد السلك العسكري رفيعي المستوى. عندما تم تسليم السلاح والذخيرة لشخص غير مستقر، وبعد مده بالسلطة اللازمة لحماية البوابة الرئيسية من كل شر محتمل ... كان لابد من لحظة الانفجار ... انفجار قد يتردد صده في مناطق أوسع وأهم مما تردد في الحادث الأول.

هذه المرة، لم يكن ثورانه موجها ضد الطلاب ... كان موجها ضد السلطة نفسها مما أحدث انقلابا على السلطة العسكرية. كانت المواجهة بين بطوط وضابط رفيع المستوى برتبة عميد ركن. ما حدث صدم الجميع هذه المرة أكثر من سابقتها.

عندما رفع بطوط بندقيته، لم يكن الشخص غير المستقر عقليا هو الذي ظهر في تلك اللحظة، بل كان رجلا مختلفا ... لثوان عابرة ... في تلك اللحظات امتلك بطوط قوة أكبر من النظام الذي خذله.

تجمد العميد وبدا مشلولاً من الخوف ... ذاك الضابط الذي كان يحدث الجنود عن الشجاعة والإقدام في المعارك وألا يهابوا الموت ... الضابط الذي كان يجسد قوة الجيش ... بزيه الرسمي القيادي المزخرف ... أصبح فجأة صامتا وبلا حراك أمام قوة بطوط الضاربة.

أعطت البندقية بطوط صوتا وحضورا وقوة لا يمكن لأحد تجاهلها. في تلك اللحظات القليلة، حدث انقلاب في التسلسل الهرمي. لم تعد السلطة تنتمي إلى الرتبة، ولكن لمن يحمل البندقية.

للحظات كان الصمت يصم الأذان ... لم يجرؤ العميد على فتح باب سيارته ... لم يصرخ بالأوامر أو يطالب بالاحترام. لقد جلس هناك ببساطة ... لاهثا وعاجزا. لقد أصبح هدفا لجندي لا يعرف الرحمة ... يعرف فقط تطبيق الأوامر العسكرية التي تلقاها.

لقد كانت لحظة ترمز إلى حقيقة أكبر بكثير ... النظام نفسه: السلطة في سوريا لا تكمن في العدالة أو القانون أو الفكر ... إنها تكمن في فوهة البندقية.

كانت هذه الحادثة المثيرة نتيجة مباشرة للقرارات السابقة لقيادة المعسكر ... لقد سلحوا بطوط ...
لقد نقلوه إلى موقع أكثر أهمية. لقد اختاروا تجاهل حالته العقلية. والآن، هم في مواجهة عواقب
أعمالهم، أثبتوا فشلهم مرة أخرى.

في النهاية، عادت القيادة إلى العمل ... قاموا بنزع سلاح بطوط، ووضعوا حدا لاستعراضه
القصير والمرعب للقوة. تم "إنقاذ" العميد من نهاية كادت أن تكون مأساوية.

ولكن بحلول ذلك الوقت، كان ضرر كبير قد حدث بالفعل ... ليس جسديا، ولكن رمزيا. كان
بطوط قد أهان ضابطا كبيرا من ضباط الجيش ... الجيش الذي كان يفتخر بالانتصارات العظيمة
... وإن كانت في جوهرها زائفة ... كشف بطوط ضعف أولئك الضباط الذي يتبجحون ويدعون
الشجاعة زورا وبهتانا ... كشف عن مدى هشاشة السلطة والوهم التي كانت تعيشه.

لكن ما أعقب ذلك ... كان جولة أخرى من التعذيب. بمجرد نزع سلاحه، فقد بطوط درعه الوحيد
... بندقيته. بدونها، تم تحجيمه وتهميشه مرة أخرى ... وتحويله إلى شخصية عاجزة، تقبع تحت
رحمة نفس القيادة التي مكنته قبل كل حادث.

هكذا بدأت رحلته الثانية من الألم ... إنها رحلة أكثر وحشية بكثير من الأولى، لأنه هذه المرة لم
يهاجم الطلاب، بل أذل السلطة نفسها.

من نواح كثيرة، تعد مأساة بطوط نموذجا مصغرا للخلل الوظيفي الأكبر في سوريا. وتكشف
قصته كيف كانت السلطة تضع الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب ... تم تسليم رجل
غير لائق للخدمة العسكرية سلاحا فتاكا ليس مرة واحدة، بل مرتين.

تمت معاقبته وترقيته في نفس الوقت. تم تجاهل تصرفاته حتى تحولت إلى أزمات خطيرة كادت أن تؤدي بحياة من حوله. وعندما لم يعد النظام قادرا على احتوائه ... انقلب عليه بعنف متجدد.

لقد كانت المفارقة قاسية ... عندما كان لدى بطوط سلاحا ... كانوا يخشونه ويطيعونه ويحترمونه ... حتى من قبل كبار الضباط. لكن عندما نزع سلاحه، تعرض للضرب والتعذيب والإهانة.

هذا أيضا يعكس حالة النظام الحقيقية ... لا يتم اكتساب السلطة عبر الطرق التي تمتاز بالنزاهة أو الكفاءة، لكن من خلال قوة السلاح فقط.

لم يكن بطوط مجرد رجل يعاني من مشاكل نفسية. لقد أصبح رمزا للانهييار الممنهج للنظام الذي يتجاهل قوانينه وقواعده ... ويتعامل بوحشية مع أولئك الذين يفشل في فهمهم. إن رحلته من الضحية إلى الجلال ومن ثم إلى الضحية مرة أخرى تكشف التناقضات المتأصلة في الحكومة التي تدعي أنها تحافظ على النظام ... لكنها تخلق الفوضى من خلال قراراتها الفاشلة.

لم تخدم عقوبته الثانية وكذلك العقوبة الأولى أي غرض سوى إخفاء فشل القيادة ... لم يفعل بطوط سوى ما دربه النظام على القيام به: اتباع الأوامر وحمل بندقية والحفاظ على الأمن. لقد فعل ذلك بشكل فعال للغاية.

ما تبقى هو إرث تقشعر له الأبدان: شاب لم تحطمه الحرب، ولكن حطمه أولئك الذين ادعوا أنهم قادته. شاب كشف في حديثين عنيفين حقيقة لم تجرؤ أي لجنة على كتابتها في تقريرها: أن الصمت في سوريا يفرضه من يكون بيده السلاح.

تحدث تميم ذات يوم عن مصير بطوط المأساوي بعبارات مؤثرة قائلا: "تعرض بطوط للتعذيب الشديد بعد الحادث الثاني. في كلا الحادثين ضحى من أجل الجميع ... الطلاب وقيادة المعسكر وظلم النظام الذي أجبره على الخدمة العسكرية ... رغم أنه كان يستحق الإعفاء".

سلطت كلماته الضوء على الظلم المحيط ببطوط. كان رجلا محاصرا في نظام فاسد غير مبال ... وتحمل عبء الفشل الجماعي والقسوة.

"في البلدان الفاسدة، لا يكون تنفيذ القوانين متسقا أبدا"، قال عبد الرحمن. "يتم تطبيق القوانين بشكل صارم على الفقراء بينما يتمتع الأغنياء وذوي العلاقات الجيدة بإعفاءات لا نهاية لها".

كانت قصة بطوط انعكاسا مثاليا لهذا النظام. تم حرمانه من الإعفاء الذي يمكن تأمينه بسهولة للعديد من الآخرين ذوي العلاقات الأفضل أو الثروة الأكبر.

أضاف محمد بأن قصة بطوط المؤلمة فاقمتها عدة أمور أخرى: "لأنه كان فقيرا، كان عليه الانضمام إلى القوات المسلحة. كان من المتوقع أن يفهم كل شيء ويؤدي واجباته بالضبط كما أرادت القيادة. ولكن عندما لم يستطع فهم تعقيدات الانضباط العسكري أو الطبيعة الحقيقية لدوره، تم إلقاء اللوم عليه. دفعه فهمه المحدود إلى تنفيذ الأوامر دون سؤال ... عندما جاءت هذه الأوامر من الطلاب نفذها حرفيا".

لم يتم تدريب بطوط للتحقق من الأوامر، كما أنه لم يكن مستعدا عقليا للتعامل مع المسؤوليات الموكلة إليه. بعد الحادث الأول – عندما أطلق النار بعد أن أمره الطلاب – اتضح بالفعل أنه غير لائق للخدمة. ومع ذلك، لم يتم اتخاذ أي إجراء واقعي.

اختارت قيادة المعسكر عدم إعادة تقييم دور بطوط أو إبعاده عن أي مهام خطيرة ... لم يحققوا في حالته العقلية ولم يبحثوا عن حل فعال. بدلا من ذلك، ضاعفوا من أخطائهم، وأعادوا تسليحه ووضعوه عند البوابة الرئيسية.

كان تفكيرهم واضحا ... على الرغم من قصر النظر. كانوا يعتقدون أن إبعاده عن الطلاب من شأنه أن يزيل المخاطر ... ولكن أدركوا متأخرين بأن القرب لم يكن المشكلة الأساسية، بل كانت المشكلة تكمن في حالة بطوط الصحية.

بعد الحادث الثاني، لجأت القيادة مرة أخرى إلى العنف بدلا من التفكير. تعرض بطوط لجولة أخرى من التعذيب، هذه المرة أكثر وحشية من ذي قبل. لم يتوقف أحد ليسأل: كيف يمكن أن يحدث هذا مرة أخرى؟

ولم يتحمل أحد من القيادة مسؤولية إعادة تسليحه أو رفضهم إعادة تقييم الوضع بشكل صحيح بعد ظهور أول علامة تحذير. وبدلا من ذلك، عادوا إلى سياسة النظام النموذجية المتمثلة في إلقاء اللوم والوحشية دائما إلى الطرف الأضعف في القصة.

كان يجب على القيادة أن تدرك حالة بطوط، على الأقل، بعد إطلاق النار الأول ... كانت هناك علامات واضحة. لم يتصرف بدافع الاعتداء، ولكن نتيجة الارتباك وعدم الاستقرار العقلي.

كان من المفترض أن يؤدي سلوكه إلى إعادة تقييم فوري لدوره في المعسكر. ولكن بدلا من ذلك، اختار النظام ... المبني على أساس الإهمال وعدم المسؤولية ... تجاهل كل العلامات التي كانت تشير إلى الخطر.

لم تكن قراراتهم فريدة من نوعها. لقد عكست السياسة الحكومية التي فشلت باستمرار في التعامل مع المشاكل الحقيقية... لم يتم إعداد بنية النظام أبدا لحماية أفراد مثل بطوط، بل لاستغلالهم. وبالتالي، لم تكن الحادثة الثانية مفاجأة أو لا يمكن التنبؤ بها... لقد كانت نتيجة حتمية للإهمال. عندما هاجم بطوط عميدا - يمكن القول إنها واحدة من أخطر الجرائم التي يمكن أن يرتكبها جندي وفقا لعقلية النظام - فإن اللوم الأكبر يقع على عاتق أولئك الذين سلموه السلاح بعد أن شهدوا عدم استقراره.

على الرغم من خطورة خطأه الثاني، لم يكن بطوط يستحق التعذيب الذي أعقب ذلك. وبالتأكيد، لم يكن للقيادة الحق في إلقاء كل اللوم عليه.

عوقب بطوط، الذي كان يعاني من ظروف نفسية أثرت على فهمه وإدراكه للأمور، كما لو أنه كان يتحكم بشكل كامل بكل أفعاله. لم تمكنه حالته العقلية من التعلم أو الاستفادة من الحادث الأول. لم يكن يمتلك الاستقرار النفسي لمواجهة الصدمات والتفكير في الأحداث وتغيير السلوك.

في الواقع، كان كل من بطوط والقيادة يدورون في حلقة مفرغة من التكرار دون تفكير. ارتكب بطوط، بشكل مأساوي، خطأ فادحا آخر. واتخذت القيادة، التي ربما تكون مذنبه أكثر منه، قرارا كارثيا من خلال إعادة تسليح رجل سبق أن عذبت به بسبب أفعاله السابقة.

أدى هذا الفشل المتبادل في التعلم إلى كارثة. ثم فجأة، اختفى بطوط.

بعد الحادثة الثانية، اختفى، ولم يعلم أحد ما حدث له. انتشرت شائعات، لكنها شائعات فقط ... لا علم بالحقيقة.

كان الأمر كما لو أن النظام قد محا بطوط بهدوء ... تخلص من أصل المشكلة، بدلا من التعامل معها أو مع أسبابها.

لم يكن اختفاء بطوط مجرد اختفاء لشاب ... بل كان محوا رمزيا للمسؤولية. سمح غيابه للقيادة بالمضي قدما دون مواجهة العواقب، ودون الحاجة إلى الاعتراف بالإهمال.

لم يكن بطوط مجرد شخصية مأساوية ... لقد أصبح كبش فداء لخلل وظيفي في النظام بأكمله. استغله الجميع – الطلاب والضباط والقادة والسلطة العسكرية – بطريقة أو بأخرى. لقد استغلوه لتأكيد السيطرة وصرف اللوم والحفاظ على الصورة العامة. عندما لم يعد قادرا على خدمة هذا الغرض، مسحوه من الوجود ... على الأقل من بين الطلاب أو من المعسكر ككل.

عكست معاناته، ومسحه في نهاية المطاف، مصير عدد لا يحصى من الأشخاص الآخرين ... الفقراء والمساكين الذين لا صوت لهم في سوريا ... أولئك الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ولا يتمتعون بالحماية ... إنهم فقط يعاقبون.

كانت حياة بطوط، والطريقة التي انتهى بها ينتابها الصمت والغموض ... نتيجة طبيعية لنظام قائم على حب السيطرة الظاهرة والباطنة – كانوا يريدون السيطرة الظاهرة على الناس من خلال كتم أصواتهم ... وإذا تكلموا فيجب عليهم أن يتكلموا بما يحب النظام ويشتهي ... وسيطرة باطنية،

حاولوا من خلالها نشر الخوف ليدخلوه إلى قلوب الناس حتى يستأصلوا الأفكار التي لا يحبها النظام قبل ولادتها ... كانوا يحاولون ذلك بما يمليه عليهم وهمهم ووساوس شياطينهم.

قصة بطوط ليست قصة خاصة به فقط، إنها قصة تحدث كلما كانت المؤسسات فاسدة، وعندما تطبق القوانين بشكل انتقائي، وعندما يتم استخدام الضعفاء كدروع لوقاية الأقوياء.

لقد تعرض للتعذيب والإسكات ثم اختفى لأن قيادة المعسكر كانت ترى فيه مصدر إزعاج يجب إسكاته ... لكن قصته لا تزال قائمة كتحذير لنظام يدفع فيه الأضعف دائما ثمن أخطاء الأقوى.

الفصل السابع

متابعة الدراسة الجامعية حتى التخرج

1999 – 2002

بعد الظروف الاستثنائية واضطرابات المعسكر الصيفي، عاد الطلاب إلى جامعاتهم مستعدين لفصل جديد من رحلتهم الأكاديمية. لقد تركت الفوضى والتوتر الذي عاشوه في المعسكر بصمة واضحة على الجميع، لكنها علمتهم أيضا دروسا قيمة عن الصبر والعمل الجماعي وتأثير التعاون إضافة إلى تجارب أخرى لن تنسى أبدا.

مع بداية العام الجديد، كانوا مصممين على فتح صفحة جديدة للتركيز على أهدافهم وتوجيه طاقتهم نحو بناء مستقبل أكثر إشراقا واستقرارا.

كان الانتقال من المعسكر إلى الحرم الجامعي أشبه بالانتقال من البحار العاصفة إلى المياه الهادئة ... خلافا للأيام الصعبة والفوضوية التي عاشها الطلاب في كثير من الأحيان في المعسكر الصيفي، سارت الفصول الدراسية الجامعية بشكل أكثر سلاسة. التحق الطلاب بمجموعات متنوعة من الدورات والبرامج التدريبية وفقا للتخصصات التي اختاروها في بداية رحلتهم الأكاديمية.

وعلى الرغم من الهدوء الذي كان يعم الأجواء الجامعية المميزة، لم ينس الطلاب الدروس والمصاعب التي واجهوها في المعسكر، لكنهم سخروا تلك الدروس لزيادة حماسهم وتحقيق أهدافهم. لقد عملوا بجد ودرسوا باستمرار وتركوا وراءهم كل القلق الذي صاحبهم خلال الصيف الماضي.

لقد أصبحت تلك الأيام جزءا من الذاكرة ولم ينظروا إليها كجزء سلبي أبدا ... بل أصبحت من الدوافع والمحفزات لهم ليستمروا ... كانت تذكرهم بالآفاق التي وصلوا إليها وأنهم قادرين على التغلب على المصاعب وإن كثرت وتعددت.

في ظهيرة أحد الأيام، بينما كان الفصل الدراسي يقترب من نهايته، اجتمعت مجموعة من الطلاب في حجرة الدراسة. تحولت المحادثة إلى تأمل، كما كان يحدث في كثير من الأحيان بعد ساعات دراسية طويلة.

كسر محمد الصمت بابتسامة فخورة قائلا: "جهدنا آتت ثمارها، أليس كذلك؟ فصل دراسي تلو الآخر، واصلنا المضي قدما".

نظر حول الغرفة إلى أصدقائه وأضاف: "لم يكن طريقا سهلا، لكننا نجحنا. أعتقد أن أكثر ما ساعدنا هو التعاون ... تبادل المعلومات والاطلاع على متطلبات المواد الدراسية. لقد جعل حتى أصعب المهام أكثر قابلية للإدارة".

أوما ياسر برأسه بالموافقة وقال: "بالتأكيد. كان التعاون هو المفتاح. لقد حول التحديات الكبيرة إلى شيء سهل يمكننا تجاوزه. لا أعتقد أنه كان بإمكانني أن أفعل ما فعلته بدون المساعدة التي

قدمها زملائي. مشاركة الملاحظات ومساعدة بعضنا البعض ... لم يكن الأمر مفيدا فحسب، بل كان ضرورياً".

ابتسم إبراهيم، وهو يتكى على كرسيه بثقة: "كلاكما على حق ... حسنا ... جزئياً". [التفت الجميع نحوه بشكل فضولي]

وتابع قائلاً: "أعلم أن التعاون ساعد الكثير منا. لكنني فضلت أن أمضي بمفردي. ركزت كثيراً وكافحت وعملت بجد أكثر من أي وقت مضى. أردت أن أثبت لنفسي شيئاً ما. كان هدفي هو تحقيق درجات عالية لأصبح يوماً ما قاضياً – عضواً في نادي القضاة ... هذا حلمي".

قال يوسف مازحاً: "أنت تستحق ذلك تماماً يا إبراهيم. لقد كان تفانيك ملهماً. استمر على هذا النحو وهذه المهمة العالية. ليس لدي أدنى شك في أنك ستنجح. فقط لا تنسنا عندما تكون في قاعة المحكمة!"

أضاف يوسف: "إذا أصبحت قاضياً، فأني مدين لك بمطرقة قضائية. تلك المطرقة التي يستخدمها القضاة لطرق الطاولة. سأقدم لك واحدة لتطرق بها عند إصدار الأحكام أو عندما تريد أن تجذب انتباه الحضور!"

إبراهيم [ضحك و أومأ برأسه] وقال: "حسناً إذن، بانتظار مطرقتك!"

حمزة، الذي كان يتصفح كتابه بهدوء، تفاعل بابتسامة وقال: "فقط تأكد من أن تطرق بهدوء ... أنا حقا لا أحب الأصوات العالية".

قال إبراهيم مازحاً: "هذا يعتمد على الموقف ... عندما تستدعي العدالة، يجب أن تكون الضربة حازمة"! [عم الغرفة الضحك والمزاح]. في هذه الأثناء، تلاشت ضغوط الدراسة وحل محلها الشعور بالصدقة وتحقيق الأحلام المشتركة.

على الرغم من أن كل طالب كان له مساره وتخصصه وأسلوبه في التعلم، إلا أن الشيء الوحيد الذي أصبحوا يقدرونه جميعاً هو قوة التعاون ... خاصة في بيئة تعج بالدراسة وبعيدة عن بيئتهم التي اعتادوا عليها.

لقد شكلوا مجموعة أكاديمية متميزة ... عندما كان أحمد، الذي يدرس اللغة العربية، يجد صعوبة في اللغة الإنجليزية كان يوسف، الذي يدرس اللغة الإنجليزية، يتقدم لمساعدته ويشرح له القواعد ويساعده في معرفة معاني المفردات.

في المقابل، عندما كان يوسف أو عماد يحتاجون إلى المساعدة لفهم بعض قواعد اللغة العربية كانوا يلجؤون إلى أحمد ومحمد وياسر. كانوا يقضون ساعات في مراجعة النصوص وترجمة العبارات الصعبة والاستعداد لامتحانات معاً.

امتدت هذه الأساليب إلى جميع الطلاب، بغض النظر عن تخصصهم. سواء كان القانون أو التخصصات العلمية أو الأدب ... كان هناك دائماً شخص على استعداد للمساعدة. مكنتهم روح التعاون هذه من التعامل الجيد مع المتطلبات الصعبة بشكل أكثر فاعلية مما يمكن أن يفعلوه بمفردهم.

ولم يتوقف التعاون عند الأمور الأكاديمية فقط، نظرا لكونهم جميعا بعيدين عن منازلهم، فقد قرروا العيش في نفس المنطقة ... وبعضهم في نفس الشقة. لم يساعد هذا في تقليل تكاليف المعيشة فحسب، بل عزز أيضا الشعور بالقوة والقدرة على المتابعة.

لقد تشاركوا المسؤوليات مثل الطهي والتنظيف وتنظيم الميزانية، مما ساهم في تنظيم حياتهم الأكاديمية وعزز إحساسهم بالاستقرار. وكانوا غالبا ما يذهبون إلى المحاضرات معا ويناقشون كل المسائل المهمة والاختبارات وكذلك تقلبات الحياة الأكاديمية.

كان للتعاون تأثيرا واضحا عليهم من نواح مختلفة ... إذا كان لدى أحدهم مشروع عمل في وقت متأخر من الليل أو تحضير لامتحانات ... يساهم الآخرون في المساعدة إما عن طريق تقديم الدعم أو التأكد من أن البيئة هادئة ومريحة للدراسة.

لقد كانوا أكثر من مجرد أصدقاء في السكن أو زملاء في الدراسة. لقد أصبحوا مجموعة متماسكة بإحكام تعمل بهدوء وإتقان لا مثيل له. وبطبيعة الحال، لم يكن الأمر يسير دائما على ما يرام ... بالتأكيد كان هناك بعض الخلافات العرضية ... لكن الاحترام المتبادل والأهداف المشتركة كانت دائما تعيد كل شيء إلى نصابه.

من خلال تفانيهم وتعاونهم ومرونتهم، تمكن الطلاب ليس فقط من مواكبة متطلبات الحياة الجامعية، ولكن أيضا من التفوق واجتياز كل اختبار ومن ثم كافة الفصول الدراسية ... أضاف كل تحد تم التغلب عليه لبنة جديدة إلى الأساس الذي كانوا يبنونه لحياتهم المهنية المستقبلية.

والأهم من ذلك، أن صداقاتهم وخبراتهم المشتركة علمتهم دروسا لا يمكن لأي كتاب مدرسي أن يفعلها. لقد تعلموا كيفية الاعتماد على النفس والتعاون المثمر وكيفية مساعدة من يحتاج المساعدة وكيفية القيادة عند الحاجة. لقد فهموا قيمة التعاطف والعمل الجماعي بطريقة ستبقى معهم طيلة حياتهم.

ومع اقتراب الامتحانات النهائية، بدأ التخرج يلوح بالأفق، وساد شعور هادئ بالفخر والإنجاز بين أفراد المجموعة. بدأ الضحك والمزاح يملأ أمسياتهم، وكذلك فهمهم العميق للحياة ولأنفسهم وما حققوا وفي أي اتجاه كانوا سائرين.

كل واحد منهم يحمل حلما مختلفا: إبراهيم كان يطمح أن يصبح قاضيا محترفا، ويوسف واصل شغفه بالكتابة والأدب، وأحمد ومحمد وياسر الذين رأوا أنفسهم يوما ما يصقلون عقول الأجيال القادمة في المدارس والجامعات. والباقي، لكل منهم طموحه الخاص الذي يزداد قوة وثباتا مع كل خطوة يخطوها إلى الأمام.

على الرغم من أنهم سيفترقون قريبا، متجهين إلى عوالم مختلفة لنحت مساراتهم الخاصة، إلا أن هناك حقيقة واحدة: المعسكر الصيفي الفوضوي الذي بدا في يوم من الأيام وكأنه محنة أصبح أساسا لشيء أعظم بكثير. لقد عزز الصداقات وعزز النمو وجعلهم يدركون أنه مع الجهد والتعاون وقليل من الضحك، حتى أصعب البدايات يمكن أن تؤدي إلى نتائج أفضل.

لقد كان العام الدراسي 2002 نقطة تحول في حياة المجموعة التي أمضت سنوات في الدراسة ودعم بعضها البعض حتى نهاية رحلتهم الأكاديمية. لم يكن مجرد عام دراسي آخر ... لقد كان

عاما يحمل أهمية فريدة، محفورة في ذاكرتهم إلى الأبد ... كان هو العام الذي تخرجوا فيه من الجامعة.

بالنسبة لكل واحد منهم، كان التخرج علامة فارقة جلبت معها مزيجا من المشاعر: الفخر والارتياح والحنين إلى الماضي وهمسة من القلق حول الطريق الذي كان يجب أن يسلكوه بعد التخرج. لقد أكملوا واحدة من أكثر المراحل تحديا في حياتهم، وهي رحلتهم عبر التعليم العالي، وبذلك صعدوا إلى عتبة عالم جديد: الحياة العملية.

سواء كانوا يخططون لدخول الحياة العملية على الفور، أو متابعة المزيد من التعليم لا سيما التعليم العالي، أو تحقيق التوازن بين المسارين في آن واحد، كان هناك شيء واحد مؤكد: لقد تغير العالم بالنسبة لهم، وكذلك كانت مسؤولياتهم والتزاماتهم.

جلب التخرج معه إحساسا عميقا بالرضا ... سنوات من الليالي والسهر والاستعداد للامتحانات، واحدا تلو الآخر ... لقد أثمرت جهودهم أخيرا. بالنسبة للبعض، كان تحقيق أحلام الطفولة ... بالنسبة للآخرين، كانت خطوة ضرورية نحو طموحات أكبر.

ومع ذلك، فقد أدركوا جميعا أن هذا الإنجاز، بقدر ما كان حلوا ومرضيا، لم يكن سوى بداية لشيء أكثر تعقيدا.

في إحدى الأمسيات ومع نهاية رحلتهم الأكاديمية، قال تميم: "إن نهاية دراستنا تعني بداية جديدة. لا يمكن أن نتواصل بعد التخرج. إذا أردنا الحفاظ على نجاحنا، فعلينا أن نكون جادين ونأخذ زمام المبادرة ونبحث عن فرص عمل تتماشى مع تخصصاتنا ... سواء هنا في سوريا أو في الخارج

... وإذا تمكنا من تأمين وظائف في الخارج، فسيكون ذلك أفضل. في الوقت الحالي، يبدو أنه من الأسهل العثور على فرص جيدة خارج البلاد".

هزت كلمات تميم خواطر كانت كامنة في نفوسهم جميعا. كانت الحقيقة واضحة: في حين أن التخرج قد منحهم شهادات وأوراق اعتماد جديدة، إلا أنه لم يضمن لهم طريقا سهلا للمضي قدما، خاصة في البيئة السياسية والاقتصادية والمشاكل التي كانت تعصف بالبلاد لسنين طويلة لا تكاد تعد ولا تحصى ... كانت سوريا في ذلك الوقت مكانا غالبا ما تحل فيه الجدارة في ذيل القائمة بالمقارنة مع العلاقات والمحسوبية والواسطة. بالنسبة للشباب الذين لديهم أحلام ودرجات علمية، لم يكن تحقيق أهدافهم بالأمر السهل ... أو الممكن أحيانا.

انحنى أحمد العطية على كرسيه وبدأت على وجهه ابتسامة حنين لما ما مضى من الأيام، وقال: "تعلمون، كانت الحياة الأكاديمية حلوة ومرة في الوقت ذاته. كانت فيها لحظات من الفرح والضحك والصدقة والنجاح، لكن كان فيها أيضا لحظات من المشقة وليالي من الدراسة المكثفة والتوتر في كل يوم سبق الامتحانات. ومع ذلك، عندما تخرجنا، أصبح كل ذلك ذكريات جميلة. سنحمل هذه الذكريات معنا طيلة حياتنا ... الكفاح جعل حياتنا ذات مغزى ... لقد أحببته ... لقد أصبحنا أقوى بسبب ذلك".

أوما عبد الرحمن برأسه، وبدأ الشوق في عينيه وقال: "إنه أمر غريب. الآن بعد أن انتهى الأمر، إنني أفقد حتى الأشياء الصغيرة، حتى الحوادث التي اعتدنا أن نسميها "حوادث بطوطية" ... في ذلك الوقت ... كانت أيامنا تلك رائعة. لكن الآن، الحياة أصبحت مختلفة تماما. نحن خريجون

الآن. يجب علينا أن نكون مسؤولين ونبحث عن الوظائف المناسبة. هذه ليست مهمة سهلة. هذه المرحلة الجديدة التي تنتظرنا لن تكون بسيطة ... ستكون مليئة بالتجارب والتحديات التي لم نواجهها من قبل".

جلسوا جميعا في صمت للحظة، كل منهم منهمك في التفكير ... كان الشعور بالانتقال من مرحلة إلى أخرى ملحوظا ... كانت الحياة تمضي قدما، سواء كانوا مستعدين أم لا.

كسر تميم الصمت، وقال: "مع ذلك، تلك اللحظات الصعبة التي مررنا بها ... عندما انتهت بالنجاح، أصبحت بعضا من أجمل ذكرياتنا. هذا الشعور بتحقيق شيء ما بعد الكثير من الجهد ... هذا ما يبقى معنا. إنه أمر لا ينسى. نتذكر الإرهاق، نعم، لكننا نتذكر أيضا النجاح. إن إتمام الدراسة الجامعية في سوريا كما تعلمون ليس بالأمر الهين".

أوما أحمد برأسه مشير إلى الموافقة، وقال: "التخرج إنجاز عظيم بلا شك. لكنه يفتح أيضا الباب أمام التحدي التالي ... العثور على الوظيفة المناسبة وبناء مستقبل مهني. وبالنسبة للبعض الآخر مواصلة التعليم العالي. هذه هي المرحلة التي علينا حقا أن نثبت أنفسنا فيها".

بما أن كل واحد منهم كان لديه أحلاما مختلفة، بعضها يهدف إلى مواصلة الدراسات العليا والبعض الآخر يأمل في الغوص مباشرة في الحياة العملية، وبعضهم يأمل في إيجاد توازن بين الاثنين معا، فقد علموا يقينا أن الفصل التالي سيختبرهم بطرق لم تستطع الجامعة اختبارها بها أبدا.

مع ذلك، كانت هناك حقيقة أخرى لا يمكنهم تجاهلها بغض النظر عن مدى جدهم واجتهادهم. كانوا يعيشون في بلد لا يكافئ فيه العمل الجاد والتميز دائما. كانت سوريا في ذلك الوقت واللغة

في شبكة من الظلم وعدم المساواة ... وغالبا ما تلعب المحسوبية والواسطة والعلاقات السياسية دورا أكثر أهمية من المهارة أو التحصيل الأكاديمي والموهبة.

في مثل هذه البيئة، بدت فكرة النجاح عبر التميز مغلوبة ... وبالنسبة للبعض كان النجاح أيضا عبر العمل الجاد يبدو فكرة ساذجة. النظام لا يقدر الجدارة ولا يحترمها إلا إذا جاءت من أشخاص مرغوب بهم! في الواقع، بالنسبة للكثيرين منهم، بدا أن التميز لا يهم إلا إذا كان مصحوبا بعلاقات سياسية أو خلفية اجتماعية.

كان هذا الإدراك مريرا بالنسبة للطلاب الذين أمضوا سنوات في تكريس أنفسهم للتعلم واكتساب المهارات. كانوا يأملون في أن تفتح شهاداتهم لهم الأبواب، لكن هذه الأبواب غالبا ما ظلت مغلقة أمام أولئك الذين ليس لديهم نفوذ. بالنسبة للبعض، خلق هذا الشعور في أنفسهم الإحباط وخيبة الأمل. وبالنسبة للآخرين، أصبح من الصعب التغلب عليه.

لتلك الأسباب، بدأوا في البحث عن فرص في البلدان المجاورة والأخذ بالأسباب للعمل خارج بلادهم، وقاموا بإعداد سيرهم الذاتية، واتصلوا بالأصدقاء والأقارب في الخارج. في حين أن الفرص المحلية كانت في كثير من الأحيان محدودة أو محجوزة لأصحاب العلاقات، فإن الآفاق الدولية – على الرغم من شدة التنافس فيها – كانت تولي أهمية للكفاءات والجدارة. لذلك قدم سوق العمل الإقليمي والعالمي، من نواح كثيرة، العدالة التي يفتقر إليها وطنهم.

في الوقت نفسه، بقي عدد قليل منهم في البلاد، مصممين على تغيير بعض الأشياء من الداخل. كانوا يؤمنون ببناء مستقبل أفضل للجيل القادم من الطلاب، حتى لو لم يكن الأمر سهلاً ... بدأوا التدريس أو العمل في مجالات أخرى.

رغم التحديات، ظلوا فخورين بإنجازاتهم ... أصبحت الصداقات التي شكلوها والدروس التي تعلموها والقيم التي حملوها معهم درعهم في عالم غالبا ما كان يبدو غير عادل ولا يمكن التنبؤ به.

بالنسبة لهذه المجموعة من الأصدقاء، كان عام 2002 رمزا للتطور والكفاح والإصرار على تحقيق الأهداف. لقد دخلوا الجامعة كطلاب، مليئين بالأسئلة والشكوك ... وغادروها بالغين ... وما زالوا غير متيقنين ... ولكن بخبرة ومرونة وشعور بالهوية أنشأها الطريق الذي ساروا فيه معا ... توكلوا على الله وأصروا ألا يستسلموا دون بلوغ الغاية.

في السنوات التي تعقب تخرجهم، طالما يجد طلاب الجامعات السورية أنفسهم في مواجهة واقعا مريرا من التحديات ... غير التحديات الأكاديمية التي كابدوها واعتقدوا ذات يوم أنها أكبر العقبات التي سيواجهون.

بالنسبة للكثيرين منهم، كان إتمام دراستهم يرمز إلى الأمل وبوابة لحياة أفضل وإنجاز مهني وفرصة للمساهمة في بلدهم. لكن ما كان ينتظرهم بعد التخرج كان شيئا آخر تماما: نظام غارق في الفساد والظلم والركود الاقتصادي.

قال أحمد التراك خلال محادثة مع أصدقائه: "كانت التحديات تنهمل علينا من كل حذب وصوب ... وساءت الأمور أكثر ... الانتشار السريع للفساد جعل كل شيء أكثر تعقيدا. كان الأمر كما لو أن الفساد قد غزا كل ركن من أركان سوريا، كما لو أن النظام نفسه لم يكن يتسامح معه فحسب، بل يرهقه ويستخدمه كأداة للحفاظ على الحكم".

لم يكن الأمر معقولا ... ولكن هكذا كان واقع الحال. لم تكن الفرص نادرة فقط، بل كانت شبه معدومة. أولئك الذين لديهم روابط عائلية أو نفوذ أو علاقات سياسية يحصلون على أفضل المواقع ... في كل من القطاعين العام والخاص.

أما الآخرين فقد تركوا ... وإن كانوا مواطنين مجتهدين ومتعلمين ... يتدافعون على ما تبقى من فرص قليلة ... وليست بذات أهمية. في كثير من الأحيان، كان هذا يعني إجبارك على القيام بمهام أو أعمال منخفضة الأجر أو استبعادك تماما من سوق العمل.

ردد عبد الرحمن بإحباط، الذي يشاركه فيه الكثيرون، وقال: "هذا هو بالضبط السبب الذي يدفعنا للنظر إلى ما وراء الحدود. سوق العمل المحلي لا يلبي طموحاتنا. لا يمكننا الانتظار حتى تتغير الأمور، علينا أن نتمتع بروح المبادرة ونبحث عن فرص أفضل في الخارج".

أضاف محمد قائلا: "غالبا ما يتم التعامل مع الترقيات والتوظيف وحتى التدريب أو البرامج التدريبية والدراسات العليا، ليس على أساس الجدارة، ولكن على أساس العلاقات. كانت إعلانات الوظائف في كثير من الأحيان مجرد إجراءات شكلية، لأنه كان قد تم بالفعل منح تلك الوظائف قبل وقت طويل من الإعلان عنها".

بالنسبة للخريجين الذين ليس لديهم أسماء عائلية قوية أو علاقات، ستبقى الأبواب موصدة أمامهم. لم يكن هناك تطور في البلاد ... ولا مجال للاعتماد على الجهد أو الجدارة.

في هذه البيئة، لم يكن التعليم أو المهارة كافية ... وهذا شيء محبط ... لأن الطموح عندما يكون محاصرا في مجتمع ... يموت ... وهذا لا يؤدي إلا إلى مزيدا من اليأس.

بدأ هؤلاء الشباب، مثل آلاف الآخرين، في البحث في مكان آخر، ليس لأنهم لا يحبون بلدهم، ولكن لأن بلدهم أغلق كل أفق وكل فرصة نجاح أمامهم ... ليس لأن بلدهم فقير أو قليل الموارد ... لكنه الفساد ...

وفي مواجهة هذه التحديات، كانت خياراتهم قليلة ... هكذا، مثل العديد من الخريجين السوريين من جيلهم، بدأوا بالنظر إلى البعيد ... أشاحوا بوجوههم وأبصارهم إلى الخارج. هناك، بعيدا عن قبضة الفساد والمحسوبية، يكمن بصيص أمل، وفرصة للبدء من جديد، والتطور والعمل في بيئة تُحترم فيها المؤهلات والخبرة والمهنية.

برزت دول الخليج، على وجه الخصوص، كوجهة مثالية، لأسباب عديدة:

أولا: كانت دول الخليج مثل الكويت وقطر والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة تعلن بشكل مستمر عن كثير من الفرص للعمالة الماهرة، لا سيما في مجالات التعليم والهندسة والطب وتكنولوجيا المعلومات. كانت هذه الاقتصادات تنمو بشكل مستمر وتحتاج إلى المزيد من المهنيين الشباب.

ثانياً: لم يكونوا بعيدين جغرافياً عنها. إن الانتقال إلى الخليج لا يعني الانقطاع عن الوطن إلى الأبد. كان السفر بين سوريا والخليج سهلاً نسبياً وتكلفة السفر معقولة جداً ... ثم إنهم يستطيعون الحفاظ على روابطهم الأسرية، خاصة أن فكرة العودة يوماً ما إلى بلادهم ستبقى تراودهم.

ثقافياً أيضاً، تعد دول الخليج مألوفة من حيث اللغة والدين والعديد من العادات والتقاليد التي تجمع بين سوريا وهذه الدول مما يجعل الاندماج أسهل. على عكس الدول الغربية حيث يمكن أن يكون التكيف الثقافي عائقاً كبيراً، فإن الحياة في الخليج لا تشعرهم بالغربة لأنها امتداد للعالم العربي الذي عرفوه دائماً.

ومع ذلك، لم تكن المغادرة خياراً سهلاً. لم يكن الحلم أبداً الفرار من الوطن بحثاً عن الكرامة. كان هؤلاء الخريجون قد دخلوا الجامعة مليئين بالأمل في المساهمة يوماً ما في وطنهم، لبناء شيء ذي معنى داخل حدود بلادهم، لكن النظام لم يترك لهم أي خيار حقيقي. في سوريا، لم يكن لديهم أي فرص أو خيارات أما في الخارج فقد أتيحت لهم.

بدلاً من بذل طاقتهم في تطوير الاقتصاد أو النظام التعليمي أو البنية التحتية في سوريا، وجدوا أنفسهم يكتبون سيرهم الذاتية ويتقدمون بطلبات العمل للحصول على فرصة في الخارج ويستعدون لحياة جديدة بعيداً عن العائلة والمجتمعات التي نشأوا فيها ... لقد كانت تضحية ... لكنها ضرورية. ما جعل الأمر أكثر إيلاًما هو معرفتهم بأن الأمور لا يجب أن تكون على هذا النحو ... لم يكن في سوريا نقص ... إنها بلد متكامل حافل بالخيرات والموارد التي تحتاج فقط إلى إدارة صحيحة ... لكن الفساد إذا غزا بلداً أنهكه ... البيئة الفاسدة جعلت البقاء في سوريا مستحيلاً لمن أراد أن يتميز

... القلة التي نجحت محليا كانت محظوظة جدا ... بالنسبة للبقية، كان الخيار صعبا: قبول التهميش في الداخل أو بناء مستقبل في الخارج.

بالنسبة للكثيرين، أصبح الخليج أكثر من مجرد سوق عمل ... أصبح رمزا للعدالة والإمكانات. هناك، يمكنهم إثبات أنفسهم وبناء على قدراتهم. يمكنهم التطور مهنيا وإعالة أسرهم والحصول على الاستقرار المالي والمهني الذي حرموا منه في وطنهم.

قام آلاف السوريين من الطبقة المتعلمة بهذه الخطوة. المعلمون والمهندسون والفنيون وخريجو إدارة الأعمال ... كلهم يبحثون عن فرصة عادلة. حقق الكثيرون منهم في وقت لاحق النجاح وكونوا عائلات، بل وأصبحوا يساعدون من بقي من أسرهم في بلادهم ... الذين ما زالوا محاصرين في نظام عمل عاجز وفاشل.

لكن حتى مع تقدمهم خطوات إلى الأمام، حملوا معهم حزنا دفيناً ... حزنا طويل الأمد على الحياة التي حلموا بها في السابق داخل سوريا.

لم يديروا ظهورهم لبلدهم، بل توقفت بلادهم ببساطة عن منحهم مكانا في مستقبلها ... وكل ذلك مرده إلى انعدام العدالة.

بينما كان العديد من أقرانهم يركزون على طلبات العمل ووضع خطط لمغادرة سوريا، كان طالبان – غنام ومظفر – يتقدمان في مسار مختلف. بدلا من النظر إلى الخارج مثل زملائهم، كان عليهم مواصلة دراستهم. يتطلب الطب في سوريا، كما هو الحال في كثير من البلدان، وقتا أطول وقدرة

أكبر على التحمل أكثر من المجالات الأخرى ... كانت رحلتهم الأكاديمية لا تزال بعيدة المنال آنذاك.

كان غنام ومظفر في منتصف برنامج صعب مدته ست سنوات فقط للحصول على شهاداتهم الطبية الأساسية. عند الانتهاء، سيحتاجون إلى عامين آخرين على الأقل لإتمام دراسة الماجستير والتخصص في مجال معين في الطب. لقد كان طريقا طويلا ومكثفا ... مليئا بالسهر والدراسة والبحث إضافة إلى الامتحانات المتكررة التي لا تكاد تتوقف.

على الرغم من عبء الدراسة، استمر الاثنان بالتواصل مع بعض زملائهم الذين أكملوا دراستهم الجامعية وبدأوا المرحلة التالية من حياتهم.

في إحدى الأمسيات، بعد لقاء جمع بعضهم للاحتفال بالتخرج، التفت غنام إلى أصدقائه بابتسامة وقال: "اسمعوا يا رفاق. لقد أكملت للتو دراساتكم الجامعية، وهذا إنجاز عظيم. لكن بالنسبة لنا، لم ينته الأمر بعد، لا يزال أمامنا طريق طويل لنقطعه".

توقف لوهلة ثم أضاف، "نتمنى لكم حظا سعيدا ونجاحا باهرا في حياتكم العملية".

أوما مظفر برأسه وقال: "نعم، إنها رحلة طويلة، لكنها ستنتهي يوما ما. بضع سنوات أخرى، وسننضم إليكم في نادي الخريجين. وحتى ذلك الحين، سنواصل العمل ونتمنى لكم حقا كل التوفيق والنجاح".

قوبلت كلماتهم بابتسامات ونكات لطيفة، وكان هناك اتفاق ضمني: كل واحد منهم يفعل ما كان عليه القيام به لتأمين مستقبله في بلد أصبح فيه الشك وعدم اليقين هو القاعدة.

بالنسبة لبقية المجموعة – يوسف و عماد و حمزة و عبد الحميد – أشعل التخرج بينهم نوعا مختلفا من الطموح والإثارة. مع حصولهم على شهاداتهم، كانوا يسابقون الزمن للعثور على عمل خارج سوريا. لم يكن الأمر يتعلق فقط بالتنظير الوظيفي أو رواتب أعلى، كان الأمر يتعلق بحياة أفضل والتخلص من نظام بيروقراطي فاسد وتجنب الركود والأهم من ذلك التخلص من الخدمة العسكرية الإلزامية التي كانت تعكر عليهم سنواتهم القادمة.

كان التجنيد الإلزامي يلوح في الأفق كسحابة سوداء ... تلوح تلك السحابة فوق كل شاب سوري حديث التخرج. كان النظام قد وضع سياسة تلزم جميع الذكور بالانضمام إلى الجيش في سن 18 عاما، أو مباشرة بعد التخرج من الجامعة بالنسبة للطلاب. بالنسبة للكثيرين، لم يكن هذا مجرد انقطاع في حياتهم، بل كان تهديدا مباشرا لمستقبلهم وحياتهم المهنية لأن سنتين قاسيتين في غياب الجيش ستكون كفيلة حتما بسلبهم كل ما تعلموه ... بدلا من الحفاظ على معلوماتهم الجامعية وتعزيزها ... يأتيهم الجيش لينسيهم كل شيء.

لقد ترك الفساد وفرص العمل المحدودة والتجنيد في خدمة عسكرية فاسدة للخريجين الشباب خيارات قليلة فقط. كان الأفضل، وأحيانا الخيار الوحيد للتخلص من ذلك هو السفر خارج البلاد. إذا غادر شاب البلاد وحصل على تصريح عمل في الخارج، فإنه يحصل وفق قانون الخدمة العسكرية في ذلك الوقت على إعفاء من الخدمة – مقابل مبلغ مقطوع. من خلال دفع رسوم إعفاء

الخدمة العسكرية بقيمة 5,000 دولار أمريكي، يمكن لذلك الشاب تجنب التجنيد الإجباري رسميا. بالنسبة لأولئك الذين تمكنوا من تأمين هذه الأموال، أصبحت تذكرتهم إلى الحرية في متناول أيديهم.

بالنسبة ليوسف وأصدقائه، كان الطريق إلى الأمام واضحا. مع قلة الفرص في الداخل وتهديد الخدمة العسكرية، بدأوا في التفكير في خطواتهم التالية بجدية. عندما وجدوا أن فرص العمل المحلية فشلت في تلبية تطلعاتهم، رأوا خيارا حقيقيا واحدا وهو ترك سوريا وراءهم.

كان لدى العديد من أفراد المجموعة أقارب – في الكويت ودول الخليج الأخرى – حيث كانوا يقيمون بها منذ زمن. وكانت تلك البلدان معروفة بالطلب المرتفع نسبيا للخريجين الشباب خاصة في قطاعات التعليم والهندسة والإدارة.

كان يوسف وعماد أول من حقق هذا الهدف. بمساعدة الأقارب والتصميم، تمكنوا من تأمين فرص عمل جيدة وانتقلوا إلى الكويت. بالنسبة لهم، كانت خطوة مهمة إلى الأمام، لم يتخلصوا من الخدمة العسكرية فحسب، بل اكتسبوا أيضا موطئ قدم مهني يمكن أن يدعم خططهم المستقبلية.

بالعودة إلى سوريا، لم يكن حمزة وعبد الحميد بعيدين عن الركب. متأثرين بنجاح أصدقائهم وبدافع من نفس الضغوط، بدأوا في الاستعداد للمغادرة. لكن بالنسبة لعبد الحميد، كان هناك تأخير لفترة من الزمن، لأنه بدأ بدراسة الماجستير في سوريا، وكان مصرا على إتمامه قبل الانتقال إلى الخارج. تستغرق دراسة الماجستير في سوريا عامين، ورأى أن الأمر يستحق استثمار الوقت للحصول على فرص أفضل لاحقا.

من ناحية أخرى، استغل حمزة الوقت، وسار على خطى يوسف وعماد وبدأ بتأمين الأوراق المطلوبة والاتصالات اللازمة للسفر إلى الكويت. كان هدفه مثلهم، هو إيجاد الاستقرار وبناء مستقبل أفضل وتجنب العقبات التي أصبحت شائعة جدا في سوريا.

في غضون ذلك، واصل غنام ومظفر دراستهما الطبية، مدركين تماما لما كان يحدث من حولهما ... خاصة بقية الرحلة التي كان عليهما أن يكملها.

ما حدث لهذه المجموعة من الأصدقاء لم يكن فريدا، بل كان انعكاسا لقصة أجيال. في جميع أنحاء سوريا، كان الشباب والشابات يتخذون خيارات مماثلة كل يوم.

المؤلم في تلك الأيام أن هؤلاء الشباب لم يكونوا يتطلعون إلى الهروب من المسؤولية، بل على العكس من ذلك تماما، كانوا من الأشخاص المتعلمين والمفعمين بالحيوية ... ما كانوا يفتقرون إليه هو نظام يدرك هذه الإمكانيات ويقدرها ... هكذا غادروا واحدا تلو الآخر، ليس لأنهم أرادوا التخلي عن وطنهم، ولكن لأنهم شعروا بالتخلي عنهم من قبل النظام الحاكم.

عندما استقر يوسف وعماد وحمزة وسرعان ما استقر عبد الحميد في مواقع عمل جديدة في الكويت، ظلوا على تواصل مع بعض زملائهم الآخرين. لقد حافظوا على صداقتهم ومن لم يستطيعوا التواصل معه ... لا زالوا يذكرونه بالخير لما مروا به معا ... ولا زالوا يتشاركون طموحهم الأكبر ... وهو المساهمة في بناء بلدهم لكي تصبح، سوريا، التي حلموا بها يوما ما حقيقة وليست ضربا من الخيال.

حتى ذلك الحين، كانوا يطاردون الفرص أينما وجدت، حاملين معهم مهاراتهم وأحلامهم وولائهم
لوطنهم ... وإن كانوا بعيدين عنه.

الفصل الثامن

الحياة العملية

2007 – 2003

بعد الانتهاء من دراستهم الجامعية، شرع يوسف وعماد وحمزة في فصل جديد من حياتهم بالانتقال إلى الكويت. رغم محدودية خبرتهم المهنية في سوريا، إلا أنهم تمكنوا من الحصول على وظائف جيدة في مؤسسات مختلفة في الكويت. كان ذلك بمثابة بداية حياتهم المهنية وبدون عقبات تذكر باستثناء مواجهة بعض التحديات التي تغلبوا عليها وسرعان ما تكيفوا مع متطلبات وأماكن العمل. كان عملهم في سوريا محدودا جدا وخبراتهم العملية كذلك ولم تكن بتلك الأهمية وفقا للمعايير المعمول بها في دولة الكويت. نتيجة لذلك، كان أحد التحديات الرئيسية التي واجهوها هو التعويض عن هذا النقص في الخبرة من خلال الجهود المكثفة للانسجام والانطلاق في بيئة تنافسية.

لمعالجة هذه الفجوة، التزم الشباب الثلاثة بالعمل بجدية أكبر وبذل جهد إضافي لمواكبة زملائهم الأكثر خبرة. لقد أدركوا أن النجاح في بيئة جديدة يتطلب التصميم والتفاني والمرونة. ولحسن الحظ، كانوا جميعا نشطين ومتحمسين بما فيه الكفاية وقابلين للتكيف، وهي سمات أثبتت أنها ضرورية للتغلب على العقبات ومواكبة متطلبات عملهم الجديد.

لقد تعاملوا مع مسؤولياتهم بحماس وحرص على التعلم وزيادة خبراتهم، ولم تتمكن قلة الخبرة من تثبيط عزيمتهم، بل نظروا إلى كل مهمة على أنها فرصة للتعلم. بمرور الوقت، بدأوا في بناء مهاراتهم واكتساب الثقة وإظهار قدراتهم وساعدتهم التزامهم بالتطور المهني والمرونة على تلبية توقعات أصحاب العمل والاندماج بسلاسة في ثقافة بيئة العمل الكويتية.

لقد وصف عماد تجربته بقوله: "الحياة في الكويت كانت رائعة، ولم نشعر بتغيرات كبيرة مقارنة بحياتنا في سوريا".

ردد حمزة هذا الشعور الذي أكد على أوجه التشابه الثقافية بين الكويت وبعض مناطق سوريا، قائلا: "هناك تشابه كبير بين البيئتين، خاصة الكويت والمنطقة الشرقية من سوريا. أنماط الحياة العشائرية في شرق سوريا تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة في منطقة الخليج. لعبت هذه التشابهات الثقافية دورا رئيسيا في تسهيل عملية التأقلم بالنسبة لنا".

أضاف يوسف وجهة نظر أخرى، مشيرا إلى وجود روابط عائلية في الكويت لمعظم أفراد المجموعة، إذ قال: "كان لدينا العديد من الأقارب الذين يعيشون في الكويت حتى قبل وصولنا. لذلك، لم تكن التغيرات كبيرة بالنسبة لنا. لقد تكيفنا بسرعة لأننا كنا ندخل بيئة شعرنا بالفعل بأنها مألوفا لنا من نواح كثيرة".

ذاك الدعم العائلي كان لا يقدر بثمن. عندما وصل الثلاثة إلى الكويت، تم الترحيب بهم بحرارة من قبل أقاربهم الذين لم يقدموا الدعم المعنوي فحسب، بل قدموا أيضا المساعدة العملية خاصة في الأيام الأولى عندما كانوا يبحثون عن وظائف.

تحدث عماد عن هذا الموضوع وقال: "كان أقاربنا ينتظروننا عندما وصلنا ولعبوا دورا أساسيا في مساعدتنا على الاستقرار. لقد ساعدونا في كل شيء، بدءا من الدخول في سوق العمل إلى فهم كيفية التعامل مع الأشياء في الكويت".

على أية حال، غالبا ما يحدث هذا النوع من الدعم فرقا كبيرا للوافدين الجدد، لا سيما في بيئات العمل الخارجية حيث يمكن أن تكون المهام اليومية البسيطة مربكة في البداية.

كانت هذه العوامل – التشابه الثقافي والروابط الأسرية الموجودة مسبقا والدعم المعنوي – مفيدة لسهولة التكيف ... ليس كل من ينتقل إلى الخارج يجد مثل هذه الظروف. في الواقع، يواجه بعض الخريجين الشباب الذين ينتقلون إلى دول أخرى خاصة الأجنبية أو الغربية تحديات أكثر خطورة. يمكن أن يكون التناقض بين الثقافات الشرقية والغربية عاملا من عوامل فشل التأقلم، حيث يكافح الكثيرون للتكيف مع أنماط الحياة المختلفة وأخلاقيات العمل والأعراف المجتمعية، مما قد يؤدي إلى العزلة والإحباط وحتى الفشل في حياتهم المهنية أو الشخصية أحيانا.

في مثل هذه الحالات، لا يصبح التكيف مجرد مسألة مهمة، ولكن خطوة أساسية للنجاح أو الفشل. ويمكن أن يكون للفشل في الاندماج في بيئة جديدة خلال هذه المراحل التكوينية من مرحلة ما بعد التخرج أثارا قاتلة وذات عواقب طويلة الأمد، وأحيانا يشكل مسار حياة الشخص بطرق لا رجعة فيها. من ناحية أخرى، يمكن للتكيف الناجح أن يمهّد الطريق لمستقبل مزدهر. إنه يفتح الأبواب للتطور الوظيفي والاستقرار الاقتصادي.

تعد قصص يوسف وعماد وحمزة أمثلة جيدة عن أهمية التأقلم وكيف يمكن أن يؤدي التصميم والدعم والألفة الثقافية إلى انتقال سلس وناجح. لقد استغلوا الفرص التي أتاحت لهم وعملوا بجد للتغلب على التحديات التي واجهوها وبنوا أساسا قويا لمستقبل مهني مشرق في الكويت.

لم يكونوا الوحيدين الذين قاموا بمثل هذه الخطوة، إنما انتقل العديد من الشباب الآخرين من مجموعتهم الأكاديمية السابقة تباعا إلى الكويت وحصلوا على الفرص التي كانوا يطمحون بها. كان أحمد العبد الله وتميم وأحمد التراك وياسر وعبد الرحمن من بين أولئك الذين تم توظيفهم من قبل وزارة التربية الكويتية في وقت لاحق. ومثل أقرانهم، شعروا بسعادة غامرة بفرص العمل في الكويت، خاصة في هذا القطاع الذي يحظى بالاحترام والتقدير.

لم يكن تأمين هذه الوظائف إنجازا صغيرا وذلك لصرامة المعايير التي تحددها دولة الكويت للتعاقد من المدرسين. استثمر كل منهم سنوات من الجهد في حياتهم المهنية والأكاديمية، ودرسوا بجد في مجالات تخصصهم على أمل أن يؤتي ثماره يوما ما. لم تكن رحلتهم سهلة، فقد واجهوا قيودا مالية وضغوطا أكاديمية ولحظات من الخوف، لكن مثابرتهم أثمرت عندما حصلوا على وظائف تتناسب مع مؤهلاتهم وطموحاتهم.

كانت فرصة العمل في وزارة التربية مجدية بالنسبة لهم، حيث وفرت لهم الاستقرار المالي وساعدتهم على الإحساس بتحقيق الهدف ... التعليم مهنة محترمة في كافة أرجاء العالم، وكونك جزءا من نظام يؤسس الأجيال القادمة ... كان شرفا ومسؤولية.

بالنسبة لأحمد العطية وياسر وآخرين، كان هذا هو نوع الفرصة التي حلموا بها خلال سنوات دراستهم الجامعية، وهي وظيفة تتماشى مع خلفيتهم الأكاديمية وتوفر لهم مجالاً لتطوير معارفهم وخبراتهم.

تعكس قصصهم رحلة العديد من الشباب في سوريا وأجزاء أخرى من المنطقة الذين يغادرون بلدانهم بحثاً عن فرص أفضل، مدفوعين بالطموح والضرورة لما تقتضيه متطلبات الحياة.

ما يميز هؤلاء الأفراد ليس فقط طموحهم، ولكن أيضاً قدرتهم على المثابرة في مواجهة التحديات وتحقيق أقصى استفادة من الظروف التي يمرون بها. إنهم يمثلون جيلاً لا يستسلم للهزيمة ولا توقفه النكسات ... بدلاً من ذلك يحول العقبات إلى نقاط قوة وانطلاقة جديدة نحو النجاح.

إن الاندماج الناجح ليوסף وعماد وحمزة وأحمد العطية وتميم وأحمد التراك وياسر وعبد الرحمن في سوق العمل الكويتي – والإنجازات المماثلة لأقرانهم – يثبت أنه من خلال المزيج الصحيح من التصميم والقدرة على التكيف والدعم، يمكن للشباب أن يتغلبوا على العقبات ومن ذلك محدودية الخبرة.

لقد كان لوجود الروابط العائلية والفرص المهنية دوراً في تسهيل حياتهم الجديدة، لكن في النهاية، كان عملهم الجاد واستعدادهم للنجاح هو الذي أحدث الفرق الأكبر. رحلاتهم هي شهادة على قوة المرونة وأهمية اغتنام الفرص عندما تلوح في الأفق.

على خطى أصدقائه، قرر عبد الحميد أيضاً البحث عن مستقبل أفضل في الخارج. سافر إلى الكويت، بعد حصوله على درجة الماجستير في عام 2005، وقد حصل على فرصة عمل واعدة

مما مثل خطوة مهمة إلى الأمام في حياته العملية. مع انتقال عبد الحميد الناجح، اكتملت دائرة الأصدقاء الذين غادروا سوريا وحصلوا خارجها على وظائف مميزة ومستقرة، خاصة في الكويت. كان هذا بمثابة تحقيق للجزء الأول من تطلعاتهم الجماعية وهو العثور على وظائف مناسبة في بلد آمن ومستقر.

وفي حين أن معظم الأصدقاء اختاروا السفر إلى الخارج بحثا عن آفاق أفضل، قرر عدد قليل منهم البقاء في سوريا وبناء حياتهم هناك. كان من بينهم فلاح وأحمد الجاسم وباسل وندر. قاموا بأعمال محلية هناك واستقروا في مواقع مختلفة في سوق العمل السوري. كان لكل منهم أسبابه الخاصة للبقاء في البلاد، لكن ربما كان أحمد هو الأكثر حساسية تجاه مغادرة مدينته. كان شغوبا بها ومرتبطا بمسقط رأسه ارتباطا وثيقا وكان يكافح دائما من أجل البقاء فيها وعدم الابتعاد عنها. حتى أثناء دراسته الجامعية في دمشق، كان أحمد يشعر بالحنين لمدينته. غالبا ما كان يتوق إلى الراحة والألفة في بيئته المحلية وكثيرا ما تضمنت محادثاته عبارة "سنعود قريبا"، في إشارة واضحة إلى رغبته في العودة إلى القورية في أقرب فرصة ممكنة.

بالنسبة له، كانت الدراسة في العاصمة واجبا أكثر من كونها هدفا؛ أي أنه كان عليه إتمام ذلك الواجب بأسرع طريقة ممكنة حتى يتمكن من العودة إلى المكان الذي ينتمي إليه حقا. ظل قلبه مرتبطا بمسقط رأسه، وساهم هذا الارتباط العاطفي في التأثير على العديد من القرارات التي اتخذها في حياته.

كما استمر الأصدقاء الآخرون الذين غادروا سوريا في الحنين إلى مسقط رأسهم وكانوا دائماً يفتقدون الأوقات الجميلة التي قضاوها معا في مدينتهم. في هذا الصدد، قال يوسف: "حتى بعد الاستقرار في الكويت والبدء بحياتنا المهنية الجديدة، لم ننس سوريا أبداً".

"ربما كنا نعمل في وظائف لائقة ونعيش بشكل مريح، لكن لا شيء يمكن أن يحل محل الوطن"، قال عماد. "كنت أفتقد كل شيء ... الناس والطعام ... حتى الغبار في الهواء".

"والليالي التي كنا نقضيها معا"، أضاف ياسر. "بغض النظر عن مدى سير الأمور في الكويت، شعرت دائماً برغبتي للعودة ... حتى لو كانت لفترة قصيرة".

"لهذا السبب أصبحت الإجازات الصيفية مهمة للغاية"، قال تميم. "كنا نقضي العام بأكمله نعد الأيام للشروع في تلك الرحلات إلى سوريا".

"بالتأكيد"، رد يوسف. "كانت الرحلة نفسها رائعة. ذلك الطريق البري من الكويت إلى القورية ... أصبح أحد التقاليد والطقوس السنوية المميزة".

"لقد كان طويلا"، أضاف عماد. "قاربة 2,000 كيلومتر. لكن لم نشعر أبدا بأنه كان صعبا. كان هناك شيء ساحر في ذلك الطريق. مغادرة الجهراء والتوجه نحو الحدود الكويتية السعودية... شعورك يزداد مع كل ميل تقطعه إلى أن تصل سوريا".

استذكر يوسف بعض الأماكن التي كانوا يمرون بها، وقال: "أتذكر المدن كقائمة مرجعية واضحة ... حفر الباطن ورفحا وعرعر ثم حديثة التي تقع مباشرة قبل الحدود السعودية الأردنية ... بدأت هذه المدن كعلامة فارقة على طول الطريق".

"عند الوصول إلى حديثة نكون قد مررنا بكل طريقنا في المملكة العربية السعودية، حوالي 1,100 كيلومتر، أليس كذلك؟" سأل ياسر. "ثم بعد ذلك نستمر في رحلة أخرى عبر الأردن لنحو 200 كيلومتر، متجهين بعدها إلى الحدود السورية".

"وبمجرد عبورنا إلى سوريا ..."، قال يوسف بصوت خافت. "بدأت المرحلة الأخيرة الممتدة لنحو 600 كيلومتر حتى مدينة القورية وكأنها حلم ... متعبون بالتأكيد، ولكن يشد من أزرنا وشك الوصول إلى وجهتنا الأخيرة".

"التأخير على الحدود، الحواجز، حركة المرور والزحمة ... كل هذا لا يهم"، قال عماد. "حتى لو استغرق الأمر منا 24 ساعة متتالية، لم نبال ولم نكثرث ... كانت لحظات لا توصف".

"كانت تلك الرحلات البرية أكثر من مجرد سفر"، أضاف تميم. "كانت ... اجتماع وتواصل ... إنها العودة إلى حيث ننتمي".

"ما زلت أتذكر شعور الوصول ... رؤية البلدات وسماع الأصوات المألوفة وتناول الوجبات المنزلية"، قال ياسر.

"وبعد ذلك، تماما مثل هذا، ستمر الأسابيع القليلة"، قال يوسف بإيماءة. "لكننا سنعود إلى الكويت بطاقة جديدة. ليس فقط الراحة – إنها تجديد وانتعاشة جديدة للأشهر القادمة".

"بالضبط"، قال عماد بهدوء. "كان الأمر كما لو أن فصول الصيف تلك أعطتنا القوة لمواجهة تحديات عام آخر من العمل والمواعيد التي لا نهاية لها".

"حتى الآن، عندما أفكر في تلك الرحلات..."، قال تميم، "إنه ليس مجرد حنين إلى الماضي ... إنه يشعرونا بالفخر لأننا لم نتخل أبدا عن المكان الذي نشأنا به".

اختتم ياسر قائلا: "لم تكن سوريا مجرد مكان ... لقد كانت جزءا منا – ولا زالت".

بين عامي 2005 و2007، وبينما كان بقية زملائه يصقلون مهاراتهم وخبراتهم في الخارج، كان إبراهيم يسير في طريقه في سوريا نحو تحقيق حلمه القديم. في عام 2005، التحق بمعهد القضاء العالي، وهي مؤسسة مرموقة في سوريا تم إنشاؤها لتدريب خريجي القانون وإعدادهم ليتولوا مناصب قضائية في المستقبل.

كان الحصول على مقعد في المعهد عملية معقدة، ولم يكن إتمام ذلك البرنامج بالأمر السهل. ومع ذلك، واجه إبراهيم التحدي بنفس التفاني والمثابرة التي توجت رحلته الأكاديمية والشخصية بالنجاح.

لمدة عامين، انهمك في تدريب قانوني صارم ودرس القوانين والأخلاق والممارسات القضائية وتحليل الحالات القانونية. لقد كان برنامجا مكثفا ويتطلب تركيزا عميقا، لكن إبراهيم كان كفوا لتلك المهمة. بحلول عام 2007، كان قد تخرج من المعهد، مسلحا بكل الشهادات المطلوبة والمعرفة اللازمة للخدمة في السلك القضائي.

وبعد فترة وجيزة من إتمام دراسته، تم تعيين إبراهيم قاضيا – في منصب يحمل الكثير من المسؤولية والشرف. لم يكن تعيينه مجرد نجاح شخصي، ولكنه أيضا مصدر فخر لأصدقائه ومجتمعه.

كان حلم إبراهيم طويل الأمد منذ أيام الدراسة الجامعية أن يصبح قاضيا، ورؤيته في ذاك المكان أصبحت لحظة احتفال جماعي. بالنسبة لأولئك الذين عرفوه، لم يكن ذلك مفاجئا ... لطالما ألح سلوكه الهادئ وقدرته التحليلية للقوانين وإحساسه بالعدالة إلى ملاءمته لمثل هذا الدور.

في الوقت الذي تخرج فيه إبراهيم وتم تعيينه قاض، كان يوسف يعيش ويعمل في الكويت. حافظ الصديقان، على الرغم من وجودهما في بلدين مختلفين، على علاقتهما ... ومن ذلك الوعد الذي قطعه يوسف على نفسه منذ أيام الدراسة لكنه لم يستطع الوفاء به إلى يومنا هذا. لقد وعد يوسف إبراهيم أن يهديه مطرقة – كجزء من نكتة قديمة – عندما يعين قاضيا ليترك بها على الطاولة ليلفت انتباه الحضور خلال الجلسات القضائية، لكن هذا الوعد لا يزال قائما ويتمنى يوسف الوفاء به في أقرب فرصة ممكنة.

حتى يومنا هذا، لا يزال يوسف مدينا لإبراهيم بتلك المطرقة التي تذكر بصداقتهما الدائمة والقصص المشتركة التي لا تزال تربطهما على الرغم من بعد المسافة.

وما يميز حاضرننا عن ماضينا هو اختصار المسافات ... في الماضي كانت المسافة دائما تشكل حاجزا كبيرا يصعب اختراقه ... أما في وقتنا الحالي فكل شيء مختلف تماما. المسافات موجودة وكذلك والبعد، لكن هناك ما يذلل تلك المسافات، وهذا ما ساهم في المحافظة على التواصل بين أفراد المجموعة رغم تواجدهم في دول مختلفة، بل في قارات مختلفة. لا زالوا متابعين لأخبار بعضهم ويتمنون لأحلام كل منهم أن تتحقق.

هؤلاء الشباب – يوسف وعبد الحميد وعماد وحمزة وأحمد وإبراهيم وياسر وغيرهم – يمثلون جيلا واجه تحديات هائلة لكنه لم يتخل عن تطلعاته وأهدافه. لقد نحتوا مستقبلهم من خلال مزيج من الجهد والمثابرة ومؤازرة بعضهم بعضا. سواء في رحلات برية طويلة إلى الوطن أو في

قاعات المحاكم أو الفصول الدراسية أو المكاتب، ظلوا مرتبطين بالتجارب المشتركة والصدقات التي لا تنزعزع والتي تستمر في تشكيل حياتهم إلى يومنا هذا.

في الكويت، تتميز الحياة بوتيرتها السريعة ومتطلباتها المستمرة. وبالنسبة لمجموعة الأصدقاء الذين تمتعوا ذات يوم بأسلوب حياة اجتماعي متماسك في سوريا، كان التكيف مع الروتين المزدهم والعزلة في كثير من الأحيان تحولا كبيرا.

في سوريا، عاشوا في نفس المدينة وتشاركوا التجارب اليومية. حتى خلال سنوات دراستهم الجامعية في دمشق، غالبا ما كانوا يعيشون في نفس الشقة أو على الأقل في شقق قريبة، مما جعل من السهل قضاء الوقت أو الدراسة معا أو مجرد التجمع لاحتساء الشاي ومناقشة بعض المسائل. كان هذا التقارب جزءا أساسيا من شبابهم، لكن الأمور تغيرت قليلا عندما انتقلوا إلى الكويت. هنا، اتخذت الحياة إيقاعا مختلفا، تحكمه مسؤوليات العمل وأحيانا البعد النسبي في أماكن الإقامة وضغط العمل.

استقروا في أجزاء مختلفة من البلاد وفقا لمواقع عملهم، وكانت أعمالهم تستهلك معظم وقتهم خلال النهار، إضافة إلى قضاء ساعات المساء في كثير من الأحيان في إتمام الالتزامات الشخصية أو أخذ قسطا من الراحة. لقد وجدوا صعوبة متزايدة في الحفاظ على نفس المستوى من التفاعل الاجتماعي الذي كانوا يتمتعون به من قبل.

كان لهذا التحول في نمط الحياة تأثير طبيعي على علاقاتهم، إذ تحولت التفاعلات المتكررة والتواصل المستمر إلى مكالمات هاتفية أو رسائل نصية. تقلص تواصلهم لكنه لم ينته ... وهذا

جزء طبيعي من حياتنا المعاصرة ... والبيئة دائما لها تأثيرها على الأفراد ... ويجب عليهم التكيف وفقا لتلك البيئة ومتطلباتها.

في هذه الحياة المزدحمة، لم يتمكن سوى عدد قليل منهم، خاصة الذين يعيشون بالقرب من بعضهم البعض أو يمارسون بعض الهوايات سوية من الحفاظ على اتصال منتظم. بالنسبة للباقي، انخفض التواصل واستمر بوتيرة أقل. في بعض الأحيان، عندما تناقش مجموعة منهم قضية معينة في الكويت، قد يشارك آخرون عبر وسائل التواصل الاجتماعي مثل واتس أب من دول مختلفة مثل قطر وأوروبا وغيرها.

على أي حال، لم يكن هذا التحول مفاجئاً تماماً. في بلد مثل الكويت، حيث يحظى العمل والاستقرار الاقتصادي باهتمام كبير، لابد للحياة الاجتماعية من أن تتأثر بذلك. في الكويت، لا تترك الحياة العملية وثقافة سوق العمل سوى القليل من الوقت للترفيه أو التجمعات.

مع ذلك، لم يدع هؤلاء الزملاء القدامى هذا الواقع أن يتحكم بهم ويقضي على روابطهم. لقد بذلوا جهوداً – كلما أمكن ذلك – لتحدي قيود الجداول الزمنية المزدحمة وإيجاد الوقت للتواصل مع بعضهم.

وقد لعبت المناسبات الاجتماعية دوراً كبيراً في الحفاظ على استمرارية علاقاتهم. أصبحت حفلات الزفاف، على وجه الخصوص، مناسبات مهمة حيث يمكنهم رؤية بعضهم. نظراً لأنهم يرتبطون بصلات قرابة أو بصدقة دائمة، فإن حفل الزفاف غالباً ما يعني دعوة مفتوحة لكل منهم لأنهم ينتسبون إلى نفس العشيرة والمدينة.

كانت تلك المناسبات تمثل فرصة ثمينة للتواصل والحديث عن الماضي واستعادة الذكريات ...
حتى وإن كان ذلك لسويغات قليلة.

في تلك المناسبات، غالبا ما تنحرف المحادثات بشكل طبيعي إلى الماضي، لأنهم يتذكروا أيام
الدراسة الجامعية، وهي فترة مروا بها جميعا ولا زالوا يعتزون بها رغم التحديات التي كابدوها.
لم تكن الدراسة في دمشق سهلة ... لكن الصعوبات جمعتهم ولم تفرقهم وكانت أحد أهم الدوافع
لزيادة التعاون بينهم والمضي سوية نحو الأهداف المنشودة.

الآن، عندما يتأملوا في تلك السنين، يدركون أن أيام الكفاح والتعب التي تخطوها مع شيء من
الضحك والمزاح كانت من بين أفضل أوقات حياتهم.

إنه شعور إنساني مشترك ... غالبا ما تصبح مصاعب الماضي ذكريات عزيزة فيما بعد. ليالي
الدراسة الطويلة، والواجبات المشتركة وإعداد الطعام سوية ... والمناقشات حول المستقبل ... كل
تلك التجارب قد زادت من ارتباطهم.

بدون تلك التجارب، ربما لم يحققوا النجاح الذي يتمتعون به الآن ... كان هذا التناقض – حلاوة
الحاضر المبنية على مرارة الماضي – موضوعا دائما التكرار في محادثاتهم.

بصرف النظر عن حفلات الزفاف والتجمعات الرسمية، وجد بعض الأصدقاء أيضا طريقة أخرى
للحفاظ على روابط الصداقة من خلال التجمعات الرياضية. يمارس عدد منهم هوايات رياضية
خاصة مثل كرة الطائرة وكرة القدم، وأصبحت هذه الهوايات وسيلة للتفاعل المنتظم.

كلما سنحت الفرصة وسمحت جداولهم، كانوا يجتمعون للعب كرة الطائرة أو القدم ويستعيدون ليس فقط طاقة الشباب، ولكن الرفقة التي حددت صداقاتهم بشكل دائم.

كان يوسف وعبد الرحمن وأحمد التراك وأحمد العطية وياسر وعماد من بين الأكثر نشاطا في تنظيم هذه الألعاب والمشاركة فيها. اعتادوا أن يلتقوا أسبوعيا وأحيانا شهريا ... لم تكن تلك المشاركات الرياضية بقدر الأنشطة القديمة، ولكنها كانت الخيار الأفضل إلى حينه ... تساعدكم ممارسة الرياضة على تجديد نشاطهم والحفاظ على صحتهم، والأهم من ذلك، البقاء على اتصال. لم تكن هذه الألعاب تتعلق فقط بالنشاط البدني – لقد كانت لحظات من الفرح المشترك ... الضحك والمنافسة الودية والمحادثات خارج بيئة العمل ... كانت هذه اللقاءات أكثر من مجرد تمرين.

رغم وظائفهم ومسؤولياتهم، تذكروهم تلك اللحظات بأن الصداقة لا تزال موجودة وتستمر في بيئة صعبة مليئة بالالتزامات ... وطالما أبدى كثير منهم الرغبة الحقيقية في إبقائها على قيد الحياة.

حتى عندما لم يتمكنوا من الالتقاء شخصيا، حاول الكثير منهم البقاء على اتصال من خلال المكالمات أو الرسائل، خاصة خلال العطلات أو مناسبات الحياة المهمة. كانت عطلة العيد، على سبيل المثال، فرصة أخرى لإعادة التواصل، حتى لو كان ذلك فقط من خلال الرسائل الصوتية. وبما أن التواصل عبر الوسائل الإلكترونية المختلفة لا يمكن أن يحل محل اللقاءات الفعلية، فقد اعتمدوا تلك الوسائل لتكون بمثابة جسر للحفاظ على أواصر الصداقة.

تعكس قصتهم واقعا أوسع يعيشه العديد من المغتربين والمهنيين ... الانتقال من مجتمع متماسك إلى شبكة صداقات متفرقة نتيجة الالتزامات ... لكنها لا تزال ذات قيمة.

ومع زيادة المسؤوليات، تصبح الحياة أكثر صعوبة ويتطلب الحفاظ على الروابط الاجتماعية جهدا أكبر. ومع ذلك، فإن الروابط بين الأصدقاء الحقيقيين لا تختفي ... قد يصيبها الفتور ... لكنها تتكيف وتزدهر مرة أخرى.

لقد استمرت صداقاتهم ... بعد أن ساهمت في بناء سنوات الخبرات المشتركة والتعاون خلال الأوقات الصعبة، مما مهد الطريق للاستمتاع بفرحة الإنجازات الجماعية وكونت أساسا قويا جدا لا يمكن إضعافه.

سواء كانوا يجتمعون في مناسبات وحفلات الزفاف أو يلعبون كرة الطائرة أو ببساطة يتبادلون مكالمات خلال أمسيات هادئة، فقد وجدوا طرقا للحفاظ على أواصر الصداقة القديمة.

ربما كانت الحياة في الكويت مزدحمة، لكنها لم تمنح الذكريات القديمة والتعاون الذي ربطهم ببعضهم البعض، بل منحهم نوعا من الأهمية رغم امتداد الزمان بهم وتغير المكان ... لقد حافظت على زخمها.

خلال هذه الفترة بعد مراحل من الانتقال والتطور الوظيفي، بدأت مجموعة الأصدقاء في اتباع مسارات مختلفة وفقا لأهدافهم الأكاديمية والمهنية. في حين أن البعض كان قد حصل على الإجازات الجامعية، خاصة أولئك الذين التحقوا بكليات وبرامج تستمر فقط لأربع سنين. هؤلاء انتقلوا إلى المرحلة التالية من حياتهم المهنية، بينما بقي البعض الآخر منغمسا بعمق في رحلتهم الأكاديمية.

كان هذا ينطبق تماما على طلاب الطب البشري ... بالنسبة لأولئك الذين يدرسون الطب يتوجب عليهم قضاء مدة أطول في الدراسة ... لا تقل عن ست سنوات فقط للدراسة الجامعية دون التخصص. بالنسبة لهؤلاء الطلاب، لم يكن التخرج سوى بداية رحلة أخرى صعبة نحو التخصص الأكثر دقة.

وعلى الرغم من الجداول الزمنية المتفاوتة، إلا أن روح الطموح والمثابرة المشتركة أبقت المجموعة متحدة في أهدافها. كان العديد منهم مصممين ليس فقط على إكمال شهاداتهم الجامعية، ولكن المضي قدما – لمتابعة الدراسات العليا، واكتساب الخبرة المتخصصة للحصول على فرص أفضل.

كان من بينهم محمد الذي اختار طريق التعليم العالي في الأدب العربي. بعد حصوله على درجة البكالوريوس، بذل محمد كل جهد ممكن لمتابعة دراسة الماجستير في جامعة دمشق. ومع ذلك، وعلى عكس بعض أقرانه الذين انتقلوا بسلاسة إلى الدراسات العليا، كانت رحلة محمد مليئة بالعقبات، والتي كان الكثير منها متجذرا في المظالم الممنهجة للنظام السوري حينئذ.

لم يبدأ برنامج الماجستير مباشرة بعد التخرج، كما كان متوقعا لطالب متميز مثله. بدلا من ذلك، واجه سلسلة من العقبات المتعمدة التي فرضتها الدولة. لم تكن هذه أوجه قصور أكاديمية أو أخطاء بيروقراطية، بل كانت عقبات ذوات دوافع سياسية تهدف إلى تقييد الوصول إلى التعليم العالي لبعض الأفراد.

لأسباب لم يتم شرحها رسمياً قط، سعت بعض فروع جهاز المخابرات السوري إلى تأخير أو حرمانه من حقه في مواصلة التعليم العالي.

على الرغم من كونه أحد أفضل الطلاب المتفوقين في مجاله – المعروف بفهمه العميق لقواعد اللغة العربية – إلا أن تفوقه الأكاديمي تم تجاهله تماماً ولم يقدم له أي ميزة. لو كان يدرس تحت مظلة أي نظام عادل أو طبيعي على أقل تقدير، لكان واجبا عليهم احترام موهبته وتفانيه ومكافأته عليها ... لكن في ظل النظام السابق، كان التدخل التعسفي والتمييز يطغى على الجدارة في أغلب الأحيان.

ومع ذلك، ظل محمد يتمتع بالمرونة والإصرار الكافي لتحقيق الهدف المنشود. لم يسمح للأفعال الظالمة للنظام بإنهاء شغفه الأكاديمي ... بعد أشهر طويلة من المثابرة والصبر، تم قبوله أخيراً في برنامج الماجستير في الأدب العربي.

وبلغت جهوده ذروتها في عام 2007 عندما حصل على درجة الماجستير من جامعة دمشق – وهي لحظة انتصار شخصي كبير وعمل هادئ، ولكن قوي للمقاومة ضد نظام حاول قمع إمكاناته. رحلة محمد الأكاديمية، على الرغم من صعوبتها، تميزت أيضاً بلحظات من التألق ألهمت من حوله. لم تكسبه إجادته للنحو وقواعد اللغة العربية درجات عالية فحسب، بل أكسبته احتراماً كبيراً بين أقرانه وأساتذته. من بين تلك اللحظات التي لا تنسى هي معارضته لأحد أعلام النحو خلال حلقة بحث ألقاها في أحد مدرجات قسم اللغة العربية في جامعة دمشق أثناء دراسته الجامعية.

في صباح أحد الأيام، دعا ياسر يوسف وآخرين لحضور حلقة البحث التي كان سيقدمها محمد. لكن في ذلك الوقت، كان لدى يوسف محاضرة في نفس الوقت واضطر إلى الاعتذار عن الحضور.

عندما عاد ياسر في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، لم يستطع التوقف عن الحديث عن مدى إعجاب الحضور بالحلقة، ووصف كيف تحدث محمد بثقة خلال المحاضرة وناقش مسألة نحوية وأشار إلى رأي نحوي العصور الوسطى الشهير ابن هشام.

أثناء شرحه لوجهة نظره، قال محمد بجرأة: "ابن هشام يرى الأمر بهذه الطريقة، لكنني أراه بشكل مختلف". [عم المدرج الضحك نتيجة إعجابهم بتلك المعارضة] ... كان اللافت للنظر هو سماع طالب مستجد يعارض باحترام أحد أعظم عمالقة قواعد اللغة العربية. لقد تركت قدرة محمد على التحليل النقدي للفكر التقليدي انطبعا مميذا بين زملائه استمر إلى يومنا هذا.

في تلك الأثناء، كان أعضاء آخرين في المجموعة يخطون خطوات كبيرة في حياتهم الأكاديمية والمهنية.

أكمل غنام ومظفر بنجاح برامج البكالوريوس الخاصة بهم والتي استمرت لمدة ست سنوات. كان تخرجهم علامة فارقة مهمة وتتويجا لسنوات من الدراسة والمثابرة والتضحية الشخصية الهائلة. رغم أنهم احتفلوا بهذا الإنجاز بفخر، إلا أنهم كانوا يدركون أيضا أن المرحلة التالية، التخصص، ستتطلب مزيدا من التفاني.

كانت هذه المرحلة الجديدة مختلفة، على عكس سنوات الدراسة الجامعية التي غالبا ما تُشعر الطلاب بأنهم في سباق مستمر مع الزمن لا يتوقف، فقد سمحت لهم المرحلة التالية من التخصص بالعمل والدراسة في آن واحد ... كان يمكن لهم أن يعملوا ويكسبوا دخلا بسيطا مع اكتساب الخبرة العملية وتطوير مهاراتهم في المجالات الطبية التي يختارونها بنفس الوقت.

هذا المزيج من العمل والدراسة الأكاديمية جعل الرحلة أكثر مرونة، وإن كانت المطالب عالية. لقد كان انتقالا من الحياة الطلابية إلى التطور المهني ... وهو انتقال مرحب به.

ما ميز أفراد هذه المجموعة، بغض النظر عن المسارات الفردية التي اتبعوها، هو وعيهم وإعدادهم لكل مرحلة من مراحل حياتهم. لم يتعاملوا مع التعليم أو التخطيط الوظيفي بشكل عشوائي. بدلا من ذلك، كانوا منضبطين ومدركين لمتطلبات أهدافهم، واستوعبوا متطلبات كل مرحلة وأعدوا أنفسهم وفقا لذلك.

سواء كان عبء العمل المكثف لبرنامج طبي، أو التحديات السياسية لمتابعة دراسة الماجستير، أو إدارة الوقت المطلوبة لتحقيق التوازن بين العمل والدراسات العليا ... فقد واجهوا تحدياتهم بنجاح.

لم يكن نجاحهم الجماعي عرضيا ... كان نتاج سنوات من العمل الجاد وثقافة التميز المشتركة. ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، ولم يتوقفوا عند درجة الماجستير، ولكن بدأوا الاستعدادات لبرامج الدكتوراه ... ذروة الإنجازات العلمية والأكاديمية.

سعى هؤلاء الأفراد ليس فقط إلى التفوق في الأنظمة التي كانوا جزءا منها، ولكن أيضا للمساهمة بشكل هادف في مجالاتهم من خلال البحث والتدريس والإدارة.

لم تكن تطلعات الدكتوراه الخاصة بهم تتعلق فقط بالتقدم الشخصي، ولكن جزءا من رد الجميل ... لمجتمعاتهم ومؤسساتهم الأكاديمية والأجيال القادمة. من نواح كثيرة، كان سعيهم للحصول على التعليم العالي يمثل شكلا هادئا من أشكال المقاومة ضد القسوة والركود والقوى السياسية التي حاولت كبحهم.

ومن الواضح أن الأسس المبكرة لرحلاتهم الأكاديمية والمهنية لم يتم وضعها في الفصول الدراسية فحسب، بل في صداقاتهم وقيمهم وأهدافهم المشتركة. لقد ساعدوا بعضهم البعض للتغلب على التحديات، واحتفلوا بنجاحات بعضهم البعض، وظلوا ملتزمين بمواصلة التطور ... كأفراد وكمجتمع.

كانت التحديات التي واجهوها حقيقية سواء كانت بيروقراطية أو سياسية أو أكاديمية، ولكن لم يستسلم أي منهم لليأس أو الهزيمة. بل على العكس من ذلك، حولوا كل انتكاسة إلى دافع لتقوية العزيمة. وكانت النتيجة جيلا من المهنيين والباحثين الشباب الذين لم يحققوا أهدافهم الشخصية فحسب، بل ألهموا الآخرين من خلال رحلاتهم العلمية والعملية كل عزيمة وطموح.

ما وحدهم جميعا – سواء كانوا معلمين أو باحثين أو أطباء – هو الإيمان بقوة التعليم في تغيير الحياة وإيجاد مستقبل أفضل ... من خلال قصصهم، أثبتوا أنه مع ما يكفي من التفاني والمثابرة

والتعاون، حتى أصعب الظروف يمكن تطويعها وتحويلها إلى لبنة جديدة تضاف إلى الأساس الذي يرتكزون عليه.

الفصل التاسع

هدوء ما قبل العاصفة

2010 – 2008

مع مرور الوقت وتطور حياتهم المهنية، شكلت هذه الفترة نقطة تحول مهمة للعديد من الأصدقاء اتسمت بالازدهار والتقدم. بدأت سنوات الخبرة المتراكمة أخيراً تؤتي ثمارها، مما مكّنهم من الارتقاء في حياتهم المهنية والانتقال إلى وضع أو فرص أفضل في مجالاتهم التي كانوا يعملون بها.

بالنسبة لأولئك الذين اختاروا الانتقال إلى الكويت، كانت النتائج واضحة وملموسة أكثر من غيرهم. أثبت سوق العمل – دائم التطور في دول الخليج – أنه غزير ومنتج وحافل بالفرص الواعدة. وقد قدم فرصاً تتماشى مع مهارات وطموحات وجهود كل من عليت همته وحرص على تطوير أدائه. ولم يجلب تأمين الوظائف الجيدة الاستقرار المالي فحسب، بل جلب معه إحساساً متجدداً بالثقة وأهمية الإنجاز، لأن صاحب الإنجاز يكافئ على إنجازه.

بالتوازي مع تقدمهم المهني، وجه بعض الأصدقاء تركيزهم أيضاً نحو النمو الأكاديمي. اتخذ العديد منهم قرارات جريئة بمتابعة التعليم العالي، والتسجيل في برامج الدراسات العليا أو الدورات المهنية لتعزيز مؤهلاتهم.

أظهر هذا الالتزام والاهتمام بالعلم، حتى في خضم العمل والمسؤوليات المتزايدة، تفانيهم الثابت في تطوير الذات. لقد كانت شهادة على مرونتهم وتصميمهم على الاستمرار في المضي قدما في السعي لتحقيق أحلامهم التي طال انتظارها. الطموح الذي ألهب حماسهم قديما كطلاب لم يتضاءل ولا زال مؤثرا وحافزا لهم نحو القمة.

في الكويت، جلس الأصدقاء القدامى – عبد الحميد وياسر وعبد الرحمن وتميم – معا، بعد اللحاق بالركب. كانت أكواب الشاي أمامهم على الطاولة في مشهد طالما ذكرهم بأيام الدراسة الجامعية وأوقد حنينهم إلى الماضي.

"هل تصدق هذا؟ أصبحنا الآن آباء..."، قال عبد الحميد [وهو مبتسم وهو ينظر حوله]. "موظفون ومسؤولون عن أشياء كثيرة ... نشعر كما لو أنه كان الأمس ... عندما كنا نحضر بعض المحاضرات ونترك أخرى ... عندما كنا نتجادل حول مواضيع مختلفة".

"والآن نتجادل حول متطلبات الأطفال وتكاليف الحياة ... تغيرت الحياة بسرعة، أليس كذلك؟" سأل ياسر.

"كنت محظوظا بما يكفي لإحضار عائلتي إلى الكويت"، قال تميم. "إنه أمر مهم ... ومع ذلك، فإن التوفيق بين العمل والمنزل ومحاولة البقاء على اتصال مع الجميع ... إنه كثير".

"في ذلك الوقت، اعتقدنا أن كل الصعوبات تكمن في الامتحانات ومشاريع الدراسة"، أضاف عبد الحميد. "لم يكن لدينا أي فكرة عن المسؤوليات الحقيقية اللاحقة".

"لكن الأسرة تغير كل شيء"، قال ياسر. "إنها تعطي معنى للحياة، حتى لو ضاعفت ضغوطنا ... أحيانا تُنسى الشخص التفكير في نفسه وفي كل شيء ... لكن الأمر لا زال مقبولا".

"ومع ذلك ..."، قال عبد الرحمن بهدوء. "الأصدقاء القدامى ... حتى مع كل الفوضى، ها نحن ذا. ما زلنا على اتصال. ما زلنا نجلس معا عندما نستطيع ... هذا يعني الكثير".

"نعم، هذا يعني الكثير"، رد تميم. "لقد كبرنا جميعا – وظائف مختلفة، مدن مختلفة، لكن التواصل لا يزال قائما. هذا الأساس الذي بنيناه مرة في الجامعة ... لقد استمر".

"أحيانا أنظر إلى الصور القديمة"، أضاف عبد الرحمن. "أو أتذكر المشي في وقت متأخر من الليل في الحرم الجامعي ... أشعر وكأنها حياة مختلفة ... لكن تلك اللحظات ألهمت حياتنا".

"كنا أولادا في ذلك الوقت ..."، قال ياسر. "والآن نحن رجال ... عائلات ومسؤوليات وقصص خاصة بنا. أعتقد أننا لم نتقدم في السن فحسب، بل تقدمنا بكل شيء ... الفكر والخبرات والتجارب ... كل شيء".

كانت هذه المرحلة من حياتهم متطلبة بلا شك ... كانت مليئة بالالتزامات، ولم يُترك لهم سوى القليل من الوقت للراحة أو الترفيه. كانت ضغوط العمل هائلة ... تتطلب بيئة العمل مزیجا من القدرة على التكيف والانضباط والالتزام المستمر.

لقد أصبح تحقيق الأهداف والبقاء في صدارة المنافسة من التحديات اليومية. علاوة على ذلك، كان عليهم أن يبقوا مستعدين لخدمة عائلاتهم ... كانوا يقضون العديد من الليالي في التخطيط أو مساعدة الأطفال في أداء واجباتهم المدرسية أو مجرد محاولة لالتقاط أنفاسهم بعد يوم طويل ... لقد تغيرت الحياة بشكل كبير ... وكانوا يسعون باستمرار لإيجاد التوازن بين كل تلك المتطلبات. جلب هذا التحول التطور الوظيفي ... والتوتر أيضا. بدأت الحياة الاجتماعية السابقة خلال أيام الجامعة بالتضاؤل ... وفقا لجداولهم المزدحمة، كان من الصعب الحفاظ على نفس الوتيرة من التواصل. ولكن قد يكون التواصل تباطأ، إلا أنه لم يتوقف تماما.

حتى عندما مرت الأشهر دون مكالمة أو رسالة، وجدوا دائما طريقهم للعودة إلى بعضهم البعض، سواء من خلال المراسلة أو التجمعات في بعض الأحيان ... لم يكن تواصلهم مرتبطا بالجغرافيا أو الوقت ... كان متجذرا في التاريخ المشترك والاحترام المتبادل.

لقد بذلوا جهودا حثيثة لتحقيق التوازن بين العمل والأسرة والصداقة ... لم يكن الأمر سهلا. كانت هناك أوقات تشعرهم بالإرهاق ... عندما تتعارض الأولويات ... وكان لا بد من تقديم التضحيات ... ومع ذلك، فقد ثابروا.

كان تصميمهم على التمسك بقيمهم وتقاليدهم والروابط التي بنوها أقوى من القوى التي تفرقهم ... ظلوا ملتزمين بالحفاظ على احترام بعضهم والبقاء مخلصين للعلاقات التي كونوها صغارا.

ما مكنهم من النجاح خلال هذه الفترة لم يكن مجرد مهارة مهنية أو معرفة أكاديمية، بل كانت قوة إرادتهم ... البشر قادرون على القيام بأشياء غير عادية عندما يكونون مدفوعين بهدف يصبون لتحقيقه.

سواء كان الأمر يتعلق بالتكيف مع بلد جديد أو النهوض بتعليمهم أثناء العمل أو تربية الأطفال أو مجرد العثور على القوة للاستمرار في مواجهة الإرهاق ... فقد ضربوا خير مثال للمرونة والتأقلم. لم تكن رحلتهم خلال هذه المرحلة سلسلة تماما، إذ كان عليهم اتخاذ خيارات صعبة ما بين الحين والآخر لأن الحياة أصبحت أكثر تعقيدا لكن الصعوبات التي مروا بها سابقا والبيئة التي ترعرعوا بها علمتهم أن التحديات يمكن التغلب عليها.

لم تكن هذه الفترة، بكل تجاربها ونجاحاتها مجرد أيام مضت. لقد كان فصلا عميقا من التطور والمسؤولية والتحول. لقد شكلت هوياتهم بطريقة لم تستطع الجامعة أبدا فعلها وعلمتهم دروسا لا يمكن أن تقدمها سوى الحياة. على الرغم من أنهم انتشروا الآن في أماكن مختلفة وقاموا بأدوار مختلفة، إلا أن قلوبهم ظلت مرتبطة بتلك الأيام الأولى.

في عام 2009، حصل غنام على درجة الماجستير في طب الأطفال من جامعة حلب. خلال دراسته، تخصص في طب الأطفال، واكتسب خبرة واسعة ومهارات في تشخيص وعلاج مجموعة واسعة من أمراض الطفولة. قدم تدريبه أساسا متينا في كل من رعاية الأطفال العامة والممارسات الأكثر تقدما، مما أعده لمهنة متخصصة تركز على الحفاظ صحة الأطفال ونموهم.

وفي سوريا أيضا، تميزت السنوات الثلاث التي سبقت اندلاع الثورة السورية بشعور غير عادي بالهدوء وصفه الكثيرون لاحقا بالهدوء الذي يسبق العاصفة. خلال تلك الفترة، راقب الشعب السوري الأحداث في العالم العربي باهتمام بالغ وترقب وشوق متزايد. كان اهتمامهم مركزا بشكل خاص على ما كان يتكشف في تونس ومصر، حيث بدأ المواطنون العاديون في الانتفاضة ضد الأنظمة المستبدة التي اختطفت البلاد لفترة طويلة من الزمن.

أشعلت هذه الانتفاضات، التي سميت بالربيع العربي فيما بعد، إحساسا بالأمل الحذر في جميع أنحاء المنطقة.

بالنسبة للعديد من السوريين، بل وللملايين في جميع أنحاء العالم العربي، بدا الربيع العربي وكأنه حلم يتحقق. بعد عقود من القهر السياسي والقمع والفساد وعدم المساواة، أصبح الناس أخيرا يتكلمون ويقفون في وجه الظلم ويكشفون فساد السلطات.

بدأوا يرفعون أصواتهم ضد الأنظمة التي أسكتتهم لفترة طويلة جدا ... حيث تركزت السلطة وخيرات البلاد في أيدي قلة قليلة. كانت هذه أصوات تطالب بالتغيير والكرامة والحرية والعدالة.

بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في ظل حكم استبدادي راسخ، لا سيما في البلدان التي ابتليت بالدكتاتورية والفساد والظلم الممنهج، كانت النجاحات المبكرة للربيع العربي بمثابة مصدر إلهام لا يوصف.

"مع إيماءة إلى التلفزيون ... تونس ... من كان يظن ذلك؟ ثورة في بلد عربي!"، قال أحمد التراك.
"هكذا تماما ... يبدو الأمر وكأن التاريخ يكتب الآن".

أجاب حمزة: "الأمر يتعلق بالشعوب الذي أدركت أن لديها القوة ... يستطيعوا استعادة البلاد وإعادة الأمور إلى نصابها".

"صحيح ... لكن سوريا مختلفة"، أضاف أحمد العطية. "أنت تعرف ذلك. نظامنا لا يتردد في فعل أي شيء. لقد رأينا ما حدث عندما تحدث الناس سابقا".

"أنت تقصد حماة، أليس كذلك؟" سأل أحمد التراك.

"نعم. كانت تلك المذبحة رسالة: إنها تعني الكثير ... لا تفكر حتى في الأمر"، قال أحمد العطية بهدوء.

"أتفق معك ..."، قال حمزة. "الخوف ينتاب الجميع، إنه متجذر في نفوس الناس، ولكنهم بدأوا يتحدثون بهدوء ... أشعل الربيع العربي النار في جميع أنحاء المنطقة ... لا يتعلق الأمر فقط بسقوط ديكتاتور ... يتعلق الأمر بشيء أكبر بكثير".

"بالضبط. هذه الأنظمة ليست وحشية فحسب – إنها بنيت على عقود من القمع"، أضاف أحمد التراك. "إنها بقايا الاستعمار. ربما تكون القوى الأجنبية قد غادرت، لكنها تركت وراءها دمي ... وليس قادة حقيقيين".

"يبدو الأمر كما لو أنهم استبدلوا سيدا بآخر"، قال أحمد العطية. "فقط ارتد الملابس المحلية واخدم الاستعمار ... ونضمن لك الكرسي إلى الأبد ... أو على الأقل هكذا ظنوا ... لقد تأكدوا من أن الفساد هو الغطاء الذي يضمن لهم استمرار نفوذهم".

"هذا صحيح"، قال حمزة. "دع النخب تسرق ... سيظلون مخلصين للاستعمار ... ولكن كلهم عرضة للخطر ... لا شيء يدوم إلى الأبد ... ربما لا يجرؤ أحد من أفراد النظام على تحدي النظام ... سقوط بعضهم يعني سقوط الجميع ... ولكن الأمور لن تستمر كما يريدون ... سيستفيق الشعب يوما ما".

"لهذا السبب تقاتل هذه الأنظمة بشدة للبقاء في السلطة"، أكد أحمد التراك. "لا يتعلق الأمر فقط برجل واحد يفقد كرسيه – إنها المجموعة أو النظام بأكمله ... يتفكك بسهولة ... هم يعرفون ذلك".

"لا يزال ... لا أعلم. أريد أن أصدق أن التغيير ممكن. لكن التكلفة؟ يمكن أن تكون كبيرة. سيتأذى الناس ويقتلون"، قال أحمد العطية.

"ربما. لكن الصمت له تكلفة أيضا"، قال حمزة. "لقد دفعناها بالفعل لعقود ... ربما حان الوقت لدفع ثمن نهائي ... الحرية تستحق ... إنها لا تقيم بثمن".

لقد عاش الشعب السوري، شأنه شأن عدد من الشعوب الأخرى في جميع أنحاء العالم العربي، لفترة طويلة في ظل مثل هذا النظام. لقد رأوا كيف تم استنزاف موارد الدولة لصالح القلة الفاسدة،

وكيف تم تجريم أي شكل من المعارضة ووصفها بالإرهاب وغير ذلك ... لقد تم قتل حتى أحلام الفقراء الذين كانوا يحلمون بأبسط حقوقهم ... كانت بعيدة المنال.

لم تكن الأحداث في تونس مجرد تطورات سياسية، بل كانت أيام صحوة عظيمة بين كثير من سكان المنطقة. لقد كانت تذكيرا بأن الناس هم من يملكون السلطة وأنهم إذا أرادوا التغيير فالتغيير قادم لا محالة.

في البداية، كانت الأجواء في سوريا يسودها التفاؤل ... لكن التفاؤل وحده لا يكفي. شاهد الناس الاحتجاجات في عواصم عربية أخرى بمزيج آخر من الإعجاب والخوف ... احتفلوا بشجاعة أولئك الذين وقفوا في وجه الاستبداد، لكنهم كانوا يخشون أيضا ما يمكن أن تثيره مثل هذه الأعمال في الداخل. يؤكد تاريخ النظام الأسود أن أي محاولة لتكرار تلك التحركات في سوريا لن تقابل بالتسامح ... بل بكل قوة ممكنة.

ومع ذلك، عندما بدأت أحجار الدومينو في السقوط في شمال إفريقيا، استمر الأمل وازداد يوما بعد يوم. كشف نجاح الحركات الشعبية في إسقاط بعض الأنظمة التي بدت وكأنها لا تسقط أن التغيير لم يكن ممكنا فحسب، بل ربما كان حتميا. لم يمض وقت طويل قبيل أن يبدأ نفس الصدى بالتردد في سوريا. بدأ الشعب السوري، مستوحيا شجاعة من إنجازات إخوته العرب، في اتخاذ الخطوات الأولى نحو انتفاضته.

وسرعان ما تحول دعاء الناس من أجل نجاح الثورات الأخرى في تونس ومصر إلى محادثات، ثم إلى تجمعات، وأخيرا إلى احتجاجات. ما بدأ كموجة من المعارضة تضخم تدريجيا إلى موجة

من التعبئة الشعبية. لقد اتخذ الشعب السوري، بعد عقود من الصمت والخوف، القرار المصيري برفع صوته والمطالبة بالتغيير.

كانوا على دراية بالمخاطر ... كانوا يعرفون الثمن الذي يمكن دفعه ... لكنهم فهموا أيضا أن الصمت والخضوع لن يؤدي إلا إلى استمرار المعاناة. لقد أيقظ الربيع العربي شيئا في نفوس الناس ... قناعة بأن الكرامة والعدالة والحرية ليست امتيازات يمنحها الحكام، بل هي حقوق متأصلة لجميع الناس.

هكذا انتهى هدوء تلك السنوات الثلاث بعد أن تأثر الشعب السوري بما حدث في الدول الأخرى. وما أعقب ذلك كان فصلا مضطربا ومؤلما في تاريخ سوريا، اتسم بالنضال والصمود والخسارة على كافة الأصعدة. ومع ذلك ... لم يتم اتخاذ قرار النهوض بسهولة ... لقد ولد بعد سنوات من الإحباط المتراكم ... مستنيرة بالوعي التاريخي ... ومستوحاة من شجاعة الآخرين.

من نواح كثيرة، كان قرار الشعب السوري بالانضمام إلى موجة الربيع العربي تنويعا لرحلة طويلة ومعقدة – رحلة امتدت لعقود من القمع الذي رآه الكثير على أنه إرث استعماري متأصل. لم تكن ثورتهم مجرد عمل سياسي ... لقد كان استرداد الهوية ... ورفض قبول مستقبل يمليه الخوف والظلم عليهم.

تميزت السنوات التي سبقت الثورة، بالنسبة لمعظم الناس، بسلام نسبي. استمرت الحياة في إيقاعها المعتاد ... طبيعية بقدر ما يمكن أن تكون في ظل تلك الظروف. وبالنسبة ليوسف، كان السلام والراحة مفهوما بعيدا منذ عام 2007. منذ ذلك الحين، كان يوسف يتعرض للتدقيق المستمر

والمضايقات والاستجوابات المتكررة من قبل أجهزة المخابرات السورية مع كل سفرة يسافرها إلى سوريا، بينما واصل آخرون حياتهم بشكل طبيعي في تلك الأيام.

في كل مرة يسافر فيها يوسف إلى سوريا، يجد نفسه مضطرا لزيارة فروع استخباراتية متعددة. كان عليه أن يزور تلك الفروع بشكل متكرر كجزء من التحقيقات الإلزامية التي أرفقته خلال كل زيارة إلى سوريا بدءا من 2007 حتى آخر زيارة له عبر أراضي النظام في عام 2010.

أصبح فرع الأمن العسكري وفرع الأمن السياسي نقطتين أساسيتين يجب على يوسف زيارتهما كلما دخل سوريا. في غضون ذلك، كان فرع أمن الدولة هو الذي يأتي إلى يوسف إلى منزله ليحقق معه خلال كل مرة يسافر بها إلى سوريا أيضا.

كل زيارة، سواء كانت في غرف الاستجواب التابعة لأجهزة الأمن أو الزيارة المباشرة إلى منزله، تحمل يوسف عبئا إضافيا إذ كان لابد من دفع الرشوة لكل فرع من تلك الفروع. لقد كانت قاعدة غير معلنة ... جباية إجبارية أو مزيدا من التحقيقات.

كان على يوسف أن يدفع لمحققي أجهزة الأمن لتجنب الاستجوابات المطولة أو حتى الطلبات التعسفية لمزيد من الزيارات بحجة عدم استكمال التحقيق ... لقد تم إنشاء ذلك النظام الفاسد ليس فقط للتخويف، ولكن للاستغلال أيضا.

بحلول أواخر عام 2007، ساءت الأمور بشكل أكبر. أصبحت حرية السفر، التي كانت بالنسبة للكثيرين جانبا روتينيا من الحياة، مصدر قلق ليوسف.

كانت زيارته إلى فروع الأمن مرهقة، وكان كل استجواب محنة متكررة وروتين يزداد سوءا كل مرة ... نفس الأسئلة الغبية ... كأنها أسئلة مكتوبة مسبقا ويسألونها لكل زائر. كان المحققون يوجهون له نفس الأسئلة الرتيبة مرارا وتكرارا: "متى سافرت؟ لماذا سافرت؟ من التقيت؟ هل قابلت أي شخص من جماعة الإخوان المسلمين؟ هل اتصلت بأي شخص أثناء وجودك بالخارج؟ هل مكثت في نفس البلد؟ هل انتقلت إلى بلدان أخرى أثناء سفرك؟

كل إنسان عاقل يشعر مباشرة بسخافة الأسئلة ... أسئلة لا فائدة منها ... لكن لم يكن أمام يوسف خيار سوى الإجابة عليها في كل مرة، متبعا نفس النمط من الإجابات.

في الواقع، كان المحققون أقل اهتماما بالمعلومات الحقيقية وأكثر تركيزا على إظهار سطوتهم وانتزاع الرشاوي. إذا لم يدفع يوسف المبالغ المطلوبة، فإن العواقب ستكون فورية وغير سارة. كانوا يطيلون مدة التحقيق عمدا ويطلبون منه تكرار الزيارة حتى لا يتلأأ في الدفع ... يطالبونه بالرجوع عدة مرات بحجة أن الاستجواب لم يكتمل.

كانت هذه الدورة التي لا نهاية لها طريقة للإكراه والمضايقة ... وكأنها مصممة لإرهاق المواطنين الذين لم يكن النظام راضيا عنهم ... وابتزازهم أيضا للحصول على المال.

في إحدى الزيارات لفرع الأمن العسكري في مدينة دير الزور، وبعد جلسة استجواب مرهقة، طلب المحققون من يوسف التوجه إلى مكتب أبو رامي، رئيس قسم التحقيق ... على ما يبدو "لاستكمال" التحقيق.

بينما كان يوسف ينتظر وهو جالس في مكتب أبو رامي، قال أحد المحققين لرئيسه – أبو رامي: "لم يدفع لنا صاحب هذه المعاملة أي شيء! لذلك لم نوافق عليها". أجاب أبو رامي ببرود ودون تردد: "لن تتم الموافقة على أي شيء دون دفع".

كانت المعاملة لمواطن مسكين ... وقد عرف يوسف من خلال زيارته المتكررة أنه بدون دفع لن تتم الموافقة. سيكون ذاك المواطن محاصرا في حلقة لا نهاية لها من الاستدعاءات والتأخير ولن يسمح له بالسفر أبدا إلا بعد الحصول على الموافقة.

في ذلك الوقت، كان يجب أن تكون كل المعاملات قد أرسلت لعملية الموافقة الرسمية داخل جهاز الاستخبارات أو الفرع الأمني. وعندما يقدم شخص ما معاملة أو طلبا للسفر، فالموافقة لازمة ولن تمر دون دفع الرشوة المطلوبة.

كان الشخص الذي قدم تلك المعاملة بالذات كبيرا في السن، وقرر المحققون عدم الموافقة عليها في البداية. ولحل المأزق، دفع يوسف لأبي رامي 500 ليرة سورية – تساوي في تلك الأيام 10 دولارات – وعلى الفور تم منح الموافقة. بعد ذلك سُمح للشخص بمغادرة سوريا.

لم تكن تلك المعاملات والموافقات إلا مجرد إجراءات روتينية وشكلا من أشكال الابتزاز. بدون موافقة فروع الأمن، لا يمكن لأي شخص، يكون اسمه مدرجا في قوائم إحدى هذه الفروع، السفر ومغادرة البلاد. سيكون محاصرا فعليا داخل البلاد حتى الحصول على الموافقة. وغالبا ما كان هؤلاء الأشخاص مطلوبين لأكثر من فرع أمني وبالتالي فهم يحتاجون موافقة كل فرع.

تشير الموافقة إلى أن الشخص قد امتثل لعملية الاستجواب وأن المحققين اتخذوا "إجراءاتهم" التي تضمنت في الغالب الاستجواب الممل وأنه تم دفع الرشوة المحددة.

كان الجو داخل هذه الفروع كئيبا، كأنه قبر، وكان يعج بالترهيب والتناقضات الغريبة. في ذات يوم وخلال جلسة استجواب، استجوب المحققون سيدة كانت ترتدي الحجاب. "لماذا ترتدين الحجاب؟" سأل أحد المحققين. أجابت السيدة المسكينة وكانت تبدو عليها علامات الخوف: "أرتدي الحجاب كجزء من التقاليد وليس الدين". ولدهشة يوسف، أوماً المحقق برأسه بالموافقة ومضى قدما – كان راضيا جدا عن الإجابة على ما يبدو.

لم يفهم يوسف أبدا سبب إعجابهم بتلك الإجابة ... ربما لم يثقوا في الدين نفسه، أو ربما كانوا يخشون تأثيره لأنهم كانوا أفرادا فاسدين للغاية. ولكن بدا أن الإجابة تتماشى بشكل أفضل مع نظرتهم العلمانية المشبوهة ... مما يسمح لهم بمواصلة عملهم دون تعقيدات لا داعي لها.

وفي يوم آخر، زار أبو القعقاع، صديق يوسف، فرع الأمن العسكري. على أية حال، بعد كل جلسة استجواب، كان يوسف يدفع الرشوة المطلوبة على مضض ثم يقولون له إنه لن يحتاج للعودة مرة أخرى لمزيد من الاستجوابات خلال تلك السفارة إلى سوريا. خلال تلك الجلسة، رفض أبو القعقاع الدفع، وقال لهم صراحة بأنه ليس لديه المال ليعطيهم.

قال له المحققون: "الأمر لا يمكن أن تسير بخير على هذا النحو". هذا يعني أنه سيضطر لمراجعات عديدة حتى يتم الدفع. قال لهم أبو القعقاع مرة أخرى إنه لا يملك نقودا ولا يعرف أحدا قريبا لإقراضه المال.

وبعد انتظار دام ساعة تقريبا وفي في حالة من الإحباط ... عرض أحد المحققين أخيرا صفقة غريبة من نوعها على أبي القعقاع: "اسمع"، قال المحقق، "سنسمح لك بالمغادرة ولن نستدعيك مرة أخرى في هذه السفرة إذا أحضرت لنا كيلو سكر فقط". يبدو أن السكر في مكاتبهم أوشك على النفاد. وافق أبو القعقاع فوراً على العرض.

في ذلك الوقت، كان كيلو السكر يكلف 25 ليرة سورية تقريبا، أي حوالي نصف دولار، وهو جزء بسيط مما كان يدفعه يوسف عادة. اشترى السكر وسلمه لهم وسمحوا له بالمغادرة دون مزيد من المضايقات.

أصابته عبثية الموقف يوسف بالدهشة. كان يوسف يدفع رشاوي بمبالغ كبيرة مقارنة بما دفعه أبو القعقاع. لقد نفذ بكيلو من السكر - وهو نوع غريب وغير متوقع من "الخصومات" التي لم تقدمها أي من المحلات التجارية في ظل ذلك النظام الفاسد.

كان الابتزاز المستمر والمضايقات والاستجوابات التي لا نهاية لها تؤذي يوسف بشكل لا يوصف. كما أثرت الزيارات المستمرة لفروع المخابرات وعبء الرشوة عليه نفسيا. لم تؤذيه الرشوة ماليا كما آذته نفسيا، لأنه كان يعلم أنه كان يقوم بشيء محرم ... ولكن حكم الضرورة. تدريجيا، بدأ يوسف في إلغاء معظم خطط سفره إلى سوريا، وأصبحت حرية السفر - التي هي حق أصيل لكل مواطن في كل بلد محترم - مصدرا للإحباط بالنسبة له.

كانت آخر سفرة ليوسف إلى سوريا عبر الأراضي التي تقع تحت سلطة النظام في عام 2010 وذلك بسبب المضايقات المرهقة والتي لا تطاق ولا يمكن تحملها. اختار الابتعاد، كي لا يرى أولئك الأشخاص ولكيلا يزور فروع الأمن مرارا وتكرارا مع المزيد من الاستجوابات والرشاوي. تعكس تجربة يوسف الحقائق القاسية التي يواجهها العديد من السوريين الذين يعيشون في ظل نظام يفرض سلطته من خلال الخوف والفساد. ما كان يجب أن يكون أمانا للمواطن وأيام راحة يقضيها في بلده تحولت إلى قلق مستمر طوال تواجده في بلده. كانت الأجهزة الأمنية تمثل أرقا لكثير من الناس ... حولت أمورا بسيطة وروتينية مثل زيارة العائلة أو العودة إلى الوطن إلى كابوس يلاحقهم في عقر دارهم.

في عام 2010، شرع يوسف فيما كان يأمل أن تكون رحلة سهلة إلى سوريا برفقة عائلته. كان ينظر إلى تلك الرحلة كعلم شمل ولحظات يمكن لها أن تكون سارة ... فرصة لرؤية والديه المسنين والتواصل مع أقاربه الذين لم يرههم منذ وقت طويل. مع ذلك، كان يوسف يدرك كثيرا من الأمور خاصة الدورة العجيبة للزيارات المكوكية بين أفرع الأمن العسكري والسياسي.

في ذلك الوقت، كان الابن الأكبر ليوسف عبد الله، بالكاد يبلغ من العمر شهرا واحدا. كان السفر مع طفل حديث الولادة يمثل تحديا مستمرا، لكن يوسف كان مصمما على جعل الرحلة مريحة وسلسة قدر الإمكان. اختار السفر بالسيارة، متوقعا رحلة طويلة لكنه لم يتوقع أكثر من التعب المعتاد ... سارت الرحلة نفسها على ما يرام، دون أي تأخير يذكر على طول الطريق وعبر الحدود التي تفصل بين عدد من الدول.

عند وصوله، بدأ يوسف بالزيارات الروتينية كي ينتهي منها بأسرع وقت ممكن. وبعد الانتهاء من زيارته المقررة لفرع الأمن العسكري في مركز محافظة دير الزور، أخبره صديق له، كان له صلات بفرع الأمن السياسي، ما بدا في ذلك الوقت أنها أخبار سارة للغاية.

قال ذلك الرجل: "لا داعي للقلق بشأن زيارة الأمن السياسي هذه المرة. سأنهي لك الأمر دون أن تزور الفرع".

رفع هذا عبئا كبيرا عن كاهل يوسف. لقد كانت رحلته مخصصة للعائلة، وليس للتنقل في متاهات الفروع الأمنية التي لا نهاية لها. كانت فكرة تجنب أو التخلص من استجواب واحد بغيبض وممل كنسمة من الهواء النقي وسط عاصفة غبار.

لمدة أربعة أسابيع تقريبا، استمتع يوسف وعائلته بوقتهم في سوريا وزيارة الأقارب والتواصل مع الأصدقاء القدامى ... لكن الظل الدائم لأجهزة الأمن ... الذي تم رفعه مؤقتا ... لا زال حاضرا.

ومع اقتراب موعد رحلته إلى الكويت، أعد يوسف سيارته للانطلاق نحو دمشق ومن ثم الحدود السورية الأردنية على بعد سبع ساعات تقريبا من مدينة القورية ... عند وصوله إلى المعبر الحدودي، واجه يوسف مفاجأة من العيار الثقيل وغير مرغوب بها أبدا. أبلغه ضابط الحدود بصراحة أنه لن يسمح له بمغادرة البلاد. السبب؟ لم يزر فرع الأمن السياسي، وهي خطوة إلزامية أصر ضباط الحدود على أنه يجب أن يكون قد تم استكمالها قبل القدوم إلى المنفذ البري.

كان وقع هذا الخبر على يوسف عظيما ... بدا في تلك اللحظة أن الرحلة بأكملها لم تكن موقعة ... تلك الرحلة التي تم التخطيط لها بدقة ... انهارت في لحظة. لم يمنع من مغادرة البلاد لأسباب

ساذجة فحسب، بل كان عليه الشروع برحلة طويلة ومرهقة للعودة إلى دير الزور لإتمام إجراء ساذج وسخيف ... لم يكن هناك أسخف منه إلا عقل الذي وضعه.

والأسوأ من ذلك أن يوسف كان لديه التزامات ملحة تنتظره في الكويت ... العمل والمسؤوليات والحياة التي لا يمكن أن تتوقف إلى أجل غير مسمى.

بدأ اليأس يظهر على ملامح يوسف ... وبدأ في إجراء مكالمات هاتفية محمومة مع أي شخص يمكن أن يفكر فيه كصديق يمكنه المساعدة ... أو حتى عدو ... لكن عدو شريف ... اتصل بالشخص الذي أكد له أنه ليس بحاجة إلى زيارة فرع الأمن السياسي ... لم يستطع المساعدة لا هو ولا غيره ... توشي تلك التعقيدات بأن يوسف قد ارتكب جرماً عظيماً ... أو تسبب بانتهيار اقتصادي للبلاد ... أو أكثر من ذلك.

استمرت المحاولات لساعات وتوهجت الشمس ... والأسوأ من ذلك مرض ذلك الطفل الصغير، عبد الله، وارتفعت حرارته وأصيب بالحمى وبدأ يتقيأ على أبواب المعبر ... لقد كان وضعاً بائساً للغاية.

مرت ست ساعات من التوتر ... دون فائدة. كان يوسف مرهقاً ومتوتراً جسدياً بسبب الحرارة الشديدة وغمره الإحباط. كانت فكرة العودة إلى دير الزور ورحلتها التي تستغرق سبع ساعات في سيارته ... لا تحتل ... سفر فقط للإجابة على نفس الأسئلة التي أجاب عليها في الزيارة التي سبقت في نفس الفرع الأمني.

في الواقع، ربما كان السبب أيضا لدفع الرشوة ... أمر لا يطاق. كان يوسف يشعر بالاستياء العميق والكره لكل من حوله ... كره الأمن، كره السفر إلى سوريا، كره سوريا ذاتها واللحظة التي قدم بها إلى سوريا في ذلك اليوم ... لقد تحولت السفارة إلى كابوس مرير.

بعد أن تحدث يوسف إلى عدد من ضباط الحدود وعرض عليهم دفع الرشوة التي يطلبونها مهما كانت، قال أحد الضباط بالحرف: "نحن لا نستطيع أن نفعل شيئا مع الأفرع الأمنية هي التي تتصرف بكل شيء فلا تدخلنا بمشكلة معهم، وإذا أردت المغادرة فعليك العودة وزيارة الأمن السياسي". كانت إجابته جدا واضحة ... كل شيء بيد الفروع الأمنية!

في تلك الحالة المزريّة، ترك يوسف سيارته عند المعبر واستقل مع عائلته حافلة للعودة إلى دير الزور. في اليوم التالي، تم ذلك الاستجواب المقيت وخلال جلسة التحقيق، سخر المحقق من يوسف، قائلا: "يجب عليك ألا تنسى أبدا مسألة مهمة من هذا النوع. تريد أن تسافر دون زيارتنا، هذا لن يتم أبدا! في المرة القادمة، حاول أن تتذكر كل شيء بشكل أفضل".

تمتم يوسف مع نفسه، وقال: "أدعو الله ألا أراكم بعد هذا اليوم أبدا".

كانت هذه الدعوة في ساعة ظلم وشدة، ولكنها لم تكن دعوة فقط، بل نية صارمة بأن لا يزور سوريا مرة أخرى. وكان يوسف يعلم يقينا بأن الله جل وعلا إذا أرد شيئا كان. وكان يوسف يعلم أيضا أن النظام السوري كان محميا بشبكة علاقات دولية قدرة ... أي لا يمكن الخلاص من النظام في تلك الأيام إلا بمعجزة ... وقدرة الله سبحانه فوق كل شيء.

لكن يوسف قرر مذ تلك اللحظة ألا يزور سوريا بعد ذلك الموقف أبدا ... طالما كان ذلك النظام الفاسد يحكم البلاد. وبالفعل لم يسافر إلى سوريا حتى عام 2015، ولكن ليس عن طريق الأماكن الواقعة تحت سيطرة النظام ... ولم ير يوسف أي من أولئك المحققين بعد ذلك الموقف.

لقد أصبحت سوريا، في ذلك الوقت، بالنسبة ليوسف مصدر قلق ومعاناة ويأس، لذا قرر التخلي عنها وعدم زيارتها، ليس كرها لها، ولكن كرها لنظام كان يحكمها.

خلال هذا الفصل المظلم وبعد تلك الرحلة المعقدة مباشرة، حقق يوسف نجاحا من نوع آخر ... إذا كانت البيئة القمعية الفاسدة في سوريا هي السائدة، فقد كانت الكويت على عكس ذلك وكانت كل الأمور تسير فيها بشكل إيجابي. لقد اتخذ مؤخرا خطوة جريئة لتعزيز تطوره الأكاديمي والتحق في برنامج لدراسة الماجستير في جامعة مدراس - الهند.

جاءت هذه الفرصة من خلال تسهيلات قدمتها السفارة الهندية في الكويت لمواطنيها ولمرة واحدة ... استطاع يوسف الحصول على مقعد لمتابعة تحصيله العلمي في ذلك البرنامج.

لم يكن الحصول على درجة الماجستير في عام 2010 علامة فارقة شخصية فحسب أو مجرد إنجاز أكاديمي، بل كان أيضا رمزا للأمل وانطلاقة جديدة نحو الدكتوراه ... وتذكيرا بأنه رغم الاضطرابات والتحديات التي يواجهها السوريون، فإنه لا يزال هناك متسع للنجاح وبناء مستقبل أفضل.

في هذه الأثناء، وبالعودة إلى سوريا، جلبت أخبار النجاح الأكاديمي الفرح لكافة الأصدقاء الذين لم تتوقف إنجازاتهم رغم التحديات الكبيرة التي واجهوها. في ذلك العام، حصل محمد أيضا على

درجة الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة دمشق مما عزز إنجازات المجموعة بشكل كبير فقد كان أول واحد منهم يحصل على هذه الدرجة العلمية المرموقة والتي مثلت لحظة مشرقة وسط الظلام الذي كان يجتاح بلادهم.

كان نجاح محمد رمزا للتطلعات المشتركة بين العديد من الشباب السوري – الرغبة في المساهمة بشكل هادف في ثقافتهم ومجتمعهم وأمتهم. وقد شعر يوسف وكافة الأصدقاء بالفخر وتمنوا مزيدا من النجاحات والإنجازات لأفراد المجموعة.

إن رحلة يوسف إلى سوريا في عام 2010، التي اتسمت بالمصاعب وخيبة الأمل وكانت باعثة لليأس ... قد تم دفنها هناك قبل مغادرة الحدود السورية ... لم تكن تلك التجربة هي الوحيدة ... بل كان واقعا مليئا بالتجارب المماثلة ... حيث كانت أجهزة الأمن تمارس سلطة هائلة وتسلطا لا يوصف على حياة المواطنين العاديين.

لقد كان لها تأثيرها ليس فقط داخل البلاد، بل تخطا الحدود ليقيد حرية السفر ... وحرية كل شيء ... لقد أصبح السفر عملية معقدة ومحفوفة بالمخاطر في بعض الأحيان خاصة عندما يكون أحد الأفرع الأمنية غير راض عن شخص معين ... ليس لجريمة ارتكبتها ولا لخطأ اقترفه ... ولكن رغبة في التضييق لأن هذا التضييق يخدم مصلحة النظام ... عندما يعلم به الناس يجتهدون بعد ذلك ألا يفعلوا ما يغضب النظام حتى لا يدخلوا في مثل هذه الدوامة.

الفصل العاشر

نسمات الربيع العربي

2012 – 2011

في عام 2011، حدثت صحوّة ملحوظة بين أفراد الشعب السوري والتي أعقبت صحوّة أخرى عمت بعض البلدان العربية. تلك الصحوّة المجتمعية غزاها الأمل والطموحات السامية التي كانت تهدف إلى استعادة كرامة الإنسان وحرّيته. لعقود من الزمان، عانى السوريون من الظلم الممنهج والقمع المتواصل الذي كتم أنفاس الشعب وحرّمه حتى من أبسط حقوقه.

على مدار سنوات طويلة من المعاناة تحت وطأة الحكم القمعي للنظام السوري، تكبدت الأمة خسائر جسيمة ربما تحتاج إلى سنين لتتعاوى منها. ومع ذلك، ورغم كل هذه التحديات، برز توق جماعي نحو التغيير، حيث بدأ السوريون يتخيلون مستقبلاً تتحرر فيه بلادهم من نير الاستبداد.

في مختلف أنحاء العالم، تعاطف الكثيرون مع الشعب السوري لما قاساه من ظلم واضطهاد. لقد رأى العالم في السوريين شعباً صامداً كريماً، رغم كل المصاعب التي واجهها ... كانوا دائماً مثلاً للعطاء واللف، وقدموا الدعم لمن كان يحتاجه.

خلال الأزمات الإقليمية والكوارث الإنسانية، اشتهرت العائلات السورية بفتح أبواب منازلها للمتضررين وكانوا يعتبرونهم ضيوفاً، ليس لاجئين وطالما وفروا ملاذاً آمناً للمتضررين خاصة

عندما كانت المساعدات الرسمية غير كافية. على عكس كثيرين ممن لجأوا إلى الملاجئ العامة أو المدارس كأماكن مؤقتة في دول أخرى، كانت العائلات السورية تحيي روح الضيافة والكرم من خلال استقبال العائلات المنكوبة في منازلهم ومساكنهم الخاصة.

لقد جعل هذا التعاطف وحسن الضيافة من معاناة السوريين مأساة أكثر حزنا وإيلاما، حيث بدا واضحا أن من يمتلكون مثل هذا الحس والقلب الكبير يستحقون الاحترام والدعم، وقبل كل شيء، مستقبلا خاليا من الظلم والاضطهاد.

جاءت نقطة التحول الحاسمة في أوائل عام 2011، حين بدأ السوريون يعبرون علنا عن استيائهم من الممارسات القمعية والغير إنسانية للنظام الحاكم. كانت الاحتجاجات في بداياتها بسيطة، ولكنها ذات معنى عميق، حيث خرج الناس للمطالبة بشيء واحد فقط: الحرية.

لم يكن المتظاهرون يطالبون في البداية بإسقاط النظام، بل سعوا إلى الحصول على الحقوق الأساسية والكرامة والعدالة. يعكس هذا النهج الحذر رغبتهم في تحقيق إصلاح سلمي بعيدا عن الثورة العنيفة. فمفهوم الحرية وفق هذا الإطار يعني إزالة القيود التي تحد من حرية التعبير والتجمع والمشاركة السياسية، ومنح السوريين فرصة للعيش بكرامة داخل وطنهم.

في هذا السياق، قال يوسف: "ذلك المطلب المتواضع للحرية في ذلك الوقت قوبل برد فعل عنيف وقاس، لأن النظام رأى في فكرة الحرية ذاتها تهديدا لبقائه".

"بالضبط"، قال عماد. "بالنسبة للحكام الاستبداديين، الحرية ليست مجرد مسألة سياسية، بل هي خطر وجودي عليهم. تعني المحاسبة والشفافية والمساواة أمام القانون".

"هذه هي المشكلة الحقيقية بالنسبة لهم"، أضاف أحمد العطية. "الحرية تعني العدالة، والعدالة تؤدي إلى إنهاء الفساد والمحسوبية واحتكار السلطة من قبل قلة قليلة".

"هذا صحيح"، قال تميم. "الحرية تعني أن البلد ملك للجميع وليس فقط للنخبة الحاكمة وأصدقائهم الذين استولوا على الدولة ... وسخروها لتحقيق مصالحهم الخاصة".

"من وجهة نظرهم، الحرية هي النهاية"، قال يوسف، "نهاية سيطرتهم ونهاية الحكم لأن الفساد والحرية لا يستقيمان ...".

"هذا يفسر القمع الوحشي للمتظاهرين السلميين"، رد عماد. "تم استبدال الحوار بالوحشية، وتم سحق أي فرصة ممكنة للإصلاح".

لذلك، قال أحمد العطية: "ما بدأ كدعوات بسيطة للحقوق الأساسية سرعان ما تصاعد إلى مطالب بإسقاط النظام تماما".

"أدرك السوريون أنه لا يمكن أن يكون هناك مستقبل عادل أو سلمي ما دام هذا النظام في السلطة"، قال تميم. "لقد كشف العنف أنه لا يمكن التعايش مع ذلك النظام".

"تصاعدت شجاعة الشعب وإصراره جنبا إلى جنب مع رفع سقف مطالبهم"، قال يوسف. "لم يعودوا يطالبون بالحرية فقط، بل بدأوا بالمطالبة بإسقاط النظام بأكمله".

"ولم يكونوا غافلين عن الصورة الأكبر، النظام لم يكن يعمل بمفرده، بل كان يحظى بدعم من دول قوية، سواء بشكل علني أو خفي"، أضاف عماد.

"العديد من الدول المؤثرة التزمت الصمت"، قال أحمد. "رغم المجازر وانتهاكات حقوق الإنسان ... وصفوا الثورة بأنها غير ناضجة، أو اعتبروا أن النظام هو السبيل الوحيد للحفاظ على الاستقرار".

"لكن هذا الصمت؟" سأل تميم. "لقد كان دعما غير مباشر للنظام ... أعطى النظام الضوء الأخضر لمواصلة القتل والعنف والقمع".

"كانت حقيقة مأساوية"، قال يوسف. "الحرية لم تُقمع فقط من قبل النظام، بل أيضا من قبل العالم الذي أشاح بوجهه عنها".

شجع هذا الدعم غير المباشر النظام على تصعيد استخدامه للقوة، بما في ذلك اللجوء إلى الأسلحة الكيميائية وغيرها من الأسلحة المحظورة ضد المدنيين ... هكذا تشكلت بيئة أصبح فيها القتل الجماعي والتعذيب والدمار أمورا معتادة.

إن تردد المجتمع الدولي في اتخاذ إجراءات حاسمة عبر زيادة الضغط السياسي أرسل رسالة مقلقة مفادها أن وحشية النظام يمكن أن تمر من دون محاسبة. هذا القبول الضمني عمق مأساة الشعب السوري وأطال أمد الصراع، حيث ازداد شعور النظام بالقدرة على قمع الناس بلا عواقب. ومع ذلك، ورغم حجم التحديات والقمع الداخلي والدعم الخارجي للنظام، ظلت روح الشعب السوري حية لا تنكسر ... استمرت المقاومة، مدفوعة برغبة راسخة في الحرية والعدالة.

نمت الاحتجاجات واتسعت، لتشمل المدن والبلدات في مختلف أنحاء البلاد، وشارك فيها الناس من كل الفئات ... الشباب وكبار السن والرجال والنساء ... ومن المناطق الحضرية والريفية. لم تكن هذه مجرد حركة سياسية، بل كانت تحولا اجتماعيا شاملا. أراد السوريون بلدا لا تُحتكر فيه السلطة من قبل قلة، بل تُوزع عبر مؤسسات ديمقراطية تحمي الحقوق وتصون الحريات.

لقد شكلت أحداث 2011 محطة مفصلية في تاريخ سوريا ... كانت بمثابة صخرة جماعية لشعب طال قمعه، لكنه لم يُهزم. ومع مرور الوقت، تحولت الدعوات الأولى للحرية إلى مطلب واضح بتغيير كامل للنظام، بعد أن بدا لهم أن الإصلاح لا يمكن أن يتحقق ... بل يستحيل في ظل الاستبداد.

منذ اليوم الأول للثورة السورية، ومع بدء انتشار المظاهرات السلمية في جميع أنحاء البلاد، بدأ النظام الاستعداد للقتل عبر تفعيل آلية سُميت فيما بعد "إدارة الأزمة" حيث أصبح النظام وكأنه يعيش حالة حرب ... وسرعان ما أدركت القيادة التهديد الذي تشكله موجة الاحتجاجات الشعبية في إطار الربيع العربي، الذي اجتاحت البلدان المجاورة وألهم الدعوات للحرية والعدالة.

لكن في سوريا، لم يكن الرد هو التفاعل مع مطالب الشعب، بل العمل على احتواء الحراك المتصاعد وتقويضه، ثم القضاء عليه. منذ البداية، وضع النظام استراتيجية ممنهجة تهدف إما إلى قمع الاحتجاجات أو تشويهها من الداخل، بهدف قتل الأمل الذي بدأ ينمو في نفوس الناس.

"واحدة من أبرز تكتيكات النظام كانت إرسال عملاء سريين متخفين في هيئة متظاهرين عاديين"، قال عبد الرحمن. "كان لكل منهم مهام محددة ينفذها على الأرض".

وأشار ياسر إلى أن "العملاء الذين زرعهم النظام داخل الاحتجاجات السلمية لعبوا دورا خطيرا. فقد تسللوا إلى صفوف المتظاهرين لخدمة أجندة النظام القمعية".

"واحدة من مهامهم الأساسية كانت تحديد هوية المتظاهرين سرا"، قال أحمد التراك. "وتوثيق أسمائهم بهدف إعداد قوائم للاعتقال أو التعذيب أو ما هو أسوأ من ذلك".

"كانت هذه استراتيجية مقصودة لنشر الخوف"، أضاف سعود. "فقد بات الناس يعلمون أن مجرد المشاركة في المظاهرات قد تجر عليهم عواقب وخيمة".

تابع عبد الرحمن قائلا: "لكن الأمر لم يتوقف عند جمع الأسماء، بل سعى هؤلاء العملاء أيضا إلى تخريب الاحتجاجات وتشويه صورتها".

"بالضبط"، قال ياسر. "كانوا يفتعلون العنف ... أحيانا يطلقون النار وسط الحشود لخلق الفوضى، ثم يتهمون المتظاهرين بمهاجمة المدنيين".

أكد أحمد أن "هذه الاتهامات الكاذبة أثرت على السرد العام ... جعلت النظام يظهر بمظهر من يدافع عن الأمن، بينما صوّرت المتظاهرين كمجرمين عنيفين لتبرير القمع المتزايد".

"آلة الدعاية انطلقت بهذه الأكاذيب"، أضاف سعود. "... في محاولة لكسر التعاطف الشعبي والدولي مع حركة الاحتجاجات".

"من خلال إثارة الفوضى والارتباك داخل التجمعات السلمية، كان هدف النظام تقسيم صفوف المتظاهرين"، قال عبد الرحمن. "وتصوير الحراك على أنه تهديد أمني خطير".

"كل ذلك كان مدعوما من أجهزة المخابرات"، أوضح ياسر. "لقد مُنحت صلاحيات مطلقة وأوامر مفتوحة لقمع الاحتجاجات بأي وسيلة ممكنة".

"عملت هذه الأجهزة في ظل حصانة كاملة"، أضاف أحمد. "فنفذت اعتقالات واستجوابات وتعذيبا بلا أي تردد ... وبلا محاسبة".

"ارتفعت حصيلة القتلى بسرعة"، قال سعود بصوت خافت، "مع فتح قوات النظام النار على المتظاهرين، ومحاولة سحق أي صوت معارض".

"كانت حملة قمع منظمة"، قال عبد الرحمن. "بلا رحمة، هدفها إسكات صوت كل من يطالب بالتغيير أو الحرية".

كانت نظرة النظام اللإنسانية للمتظاهرين مفاجئة للجميع. لم يكن ينظر إلى المتظاهرين على أنهم مواطنون يمارسون حقوقهم، بل كعضو مريض في جسد الأمة ... كان لا بد من استئصاله للحفاظ على صحة ما تبقى من الجسد. برّرت هذه الاستعارة الوحشية حملة عنف بشعارات تقشعر لها الأبدان ... أطلقوا النار على الجميع أو اقتلوا الجميع ... أو الأسد أو نحرّق البلد ... اتبع النظام نهج القتل الجماعي للحفاظ على قبضته على السلطة.

كانت الفروع الأمنية المختلفة سيئة السمعة ومعروفة بقسوتها وممارساتها اللإنسانية بما في ذلك التعذيب والاختطاف والاحتجاز التعسفي. لم تصب هذه الفروع جام غضبها على المتظاهرين وحدهم ... فقد اعتقلوا عددا كبيرا جدا من المدنيين الأبرياء الذين لم يشاركوا في الاحتجاجات أو الأنشطة السياسية ... وزجوا بهم في غياهب السجون.

في الواقع، لم تكن هذه الاعتقالات عشوائية أو عرضية كما كان يظنها البعض، بل كانت تكتيكات محسوبة لإرهاب المجتمع ووضع حد للمشاركة المتزايدة في المظاهرات. لقد أدرك النظام أن الخوف من الاختفاء أو السجن أو الموت كان أداة قوية يمكن لها أن تخضع السكان.

على الرغم من أنها غالبا ما توصف بأنها "اعتقالات تعسفية"، إلا أن هذه الإجراءات كانت بعيدة كل البعد عن التعسف ... لقد تم تنفيذها لتحقيق أغراضا خبيثة متعددة.

أولا: كانت تهدف إلى إرهاب المجتمع بأسره – وإرسال رسالة واضحة مفادها أنه يمكن احتجاز وسجن أي شخص في أي وقت ولأي سبب من الأسباب. وقد خلق هذا جوا من الرعب والشك،

ودفع البعض للصمت وتجنب أي نشاط سياسي... وكان هدف النظام هو ثني الناس عن الانضمام إلى الاحتجاجات أو التحدث علنا بأي شكل يسيء إليه.

ثانياً، استُخدمت الاعتقالات كأداة للابتزاز. في كثير من الحالات، اضطرت العائلات لدفع مبالغ طائلة كفدية لإطلاق سراح ذويها، ما أضاف بعداً اقتصادياً قاسياً للأزمة التي كان يعاني منها الناس. أصبحت هذه الفديات مصدر كسب لجهات أمنية وكابوساً لعائلات تحاول بأي وسيلة إنقاذ أبنائها من سجون النظام.

امتد قمع النظام إلى مستويات غير مسبقة حين بدأ يستهدف بلدات ومجتمعات بأكملها لأنها كانت تظهر بوادر للمقاومة... عندما تثير بلدة ما غضب الأجهزة الأمنية بسبب مواقفها المعارضة، يُعتقل أي شخص منها يمر عبر نقاط التفتيش التابعة للنظام بغض النظر إذا ما كان مطلوباً للنظام أم لا... أو كان مشاركاً في مظاهرات أم لا.

كان الهدف من هذا العقاب الجماعي هو كسر روح المقاومة والتحدي من خلال معاقبة المجتمع بأسره ودفعه إلى الخضوع... كان الشباب على وجه الخصوص أكثر من يدفع ثمن هذه الممارسات التعسفية.

كثير من العائلات التي بحثت عن أبنائها المغيبين لم تعثر على أي معلومات... ولم تتلقَ أي تفسير رسمي أو اتهامات واضحة بشأن أسباب اعتقالهم. فقد كانت الأجهزة الأمنية تعمل خارج كل الأطر القانونية، متجاهلة تماماً حقوق الإنسان ومبادئ سيادة القانون.

تحولت الاعتقالات التعسفية والقتل الممنهج والخطف إلى أدوات يستخدمها النظام لإسكات الثورة ... فقد راهنت القيادة على أن القمع الوحشي كفيل بإخماد الانتفاضة وكسر إرادة السوريين.

اعتقد النظام أن الخوف سيكون أقوى من رغبة الناس في الحرية والعدالة ... هذا الاعتقاد الخاطئ غذى حلقة متصاعدة من العنف، حيث رفض النظام أي محاولة للحوار أو التنازل وفضل اللجوء إلى الترهيب للحفاظ على سلطته.

لكن كان لحملة النظام الوحشية نتائج غير متوقعة وأحيانا عكسية ... مع استمرار العنف ضد المحتجين السلميين، بدأ الكثيرون يشعرون أن الأساليب السلمية لم تعد كافية لحماية أنفسهم أو تحقيق أهدافهم، وقد دفع هذا التحول شرائح من المجتمع إلى حمل السلاح.

كان ذلك نقطة تحول في مسار الصراع، إذ بدأت تظهر مجموعات مسلحة تنادي بالدفاع عن الثورة ومواجهة قوات النظام. من بين أبرز هذه المجموعات، الجيش السوري الحر الذي أسسه ضباط منشقون عن جيش النظام، بهدف حماية المدنيين والتصدي لهجمات النظام.

أدى صعود الجماعات المسلحة إلى انتقال الحراك من مرحلة الاحتجاج السلمي إلى مواجهة عسكرية شاملة. وسرعان ما انقسمت البلاد إلى مناطق نفوذ، حيث بسطت قوات النظام سيطرتها على أجزاء معينة، بينما ظهرت قوى معارضة في مناطق أخرى.

هذا الانقسام جعل من البلاد ساحة حرب معقدة ومتقلبة ... اندلعت معارك في مدن وبلدات وقرى، وأدت في كثير من الأحيان إلى حصارات طويلة، ودمار واسع للبنية التحتية، ونزوح جماعي للسكان.

"النظام صعد من حملاته العسكرية"، قال عبد الرحمن. "... مستخدما الأسلحة الثقيلة، والغارات الجوية، والحصار لسحق أي تحركات شعبية أو محاولة مقاومة".

"في المقابل"، قال ياسر. "... كانت التحركات الشعبية وحركات المقاومة تواجه صعوبة في التنظيم، فالانقسامات الداخلية والتدخلات الخارجية جعلت التوحيد مهمة صعبة".

"الصراع خرج عن نطاق السيطرة"، أضاف يوسف. "تحول إلى حرب معقدة متعددة الأطراف والمصالح، بعد أن بدأ كحركة شعبية من أجل الإصلاح".

وأشار أحمد التراك إلى أن "محاولات النظام الأولى لإخماد المظاهرات من خلال الخوف والعنف لم تفلح، بل كانت الشرارة لصراع طويل ومدمر لا يزال يؤثر على حياة ملايين السوريين".

"أما العملاء السريون الذين زرعوا بين المتظاهرين منذ الأيام الأولى، فلم يكن وجودهم خبيثا فقط، بل مميتا"، قال سعود. "لقد تسببوا في موجة اعتقالات واسعة وتعذيب ومقتل كثير من الشباب الذين تجرؤوا على رفع أصواتهم".

"الخوف من التسلل خلق جوا من الشك والقلق"، قال عبد الرحمن. "أصبح من الخطر جدا المشاركة في الاحتجاجات، لأن النظام كان قد بنى شبكة ضخمة من الجواسيس على مدى عقود".

"لم يكن الأمر مجرد بضع عشرات من العملاء، بل آلاف المخبزين الذين جرى توزيعهم وتنظيمهم بعناية لضمان السرية"، قال يوسف. "أحيانا لم يكن العملاء أنفسهم يعرفون بعضهم أو من كان جزءا من الشبكة".

أوضح أحمد التراك أن "هذا التعقيد جعل من الصعب على المتظاهرين التعرف على الجواسيس أو تجنبهم ... البعض بدأ يغطّي وجهه لحماية هويته".

"لم يكن دور العملاء جمع المعلومات فقط، بل أيضا نشر الخوف والمعلومات المغلوطة"، قال سعود. "كانوا يهمسون في الخفاء بأن النظام يعرف كل شيء: الأسماء، الاجتماعات، الأماكن، وحتى التوقيت".

"هذا التهديد غير المرئي كان مرعبا"، أضاف عبد الرحمن. "ما كان يُفترض أن يكون مظاهرات سلمية أصبح أشبه بالسير إلى فخ مجهول".

وأكد ياسر أن "النظام استخدم كل وسيلة ممكنة لإسكات الحراك ... ليس فقط العنف، بل من خلال شن حرب نفسية".

"كان ذلك جهدا منظما لقتل الأمل وإسكات كل من يطالب بالتغيير"، أضاف يوسف.

لقد صُممت هذه الحرب النفسية لدفع الناس نحو الاستسلام، ولخلق قناعة بأن أي مقاومة مصيرها الفشل، وأن الاعتقال أو الموت لا مفر منه. بالغ عملاء النظام في تصوير قوة قبضته الأمنية، وروّجوا لروايات عن نصره المحتوم، وزعموا أن النظام قادر على تعقّب واعتقال كل متظاهر. كان الهدف من هذه الشائعات تخذيل الناس وبث الشك داخل صفوف المحتجين وتقويض الحراك من الداخل.

في المراحل الأولى من الثورة، كانت المشاركة في المظاهرات تمثل مخاطرة حقيقية بالحياة. وقد أوضح النظام منذ البداية أن أي شخص يجرؤ على التظاهر قد يواجه الاعتقال أو القتل في أي لحظة ... لم يقتصر التهديد على المتظاهرين أنفسهم، بل شمل أيضا أولئك الذين عبّروا عن تعاطفهم أو دعمهم لهم حتى ولو بشكل غير مباشر أو من خلال الكلام فقط.

لم يكن ترهيب النظام موجهًا ضد الأفراد فحسب، بل تعدى ذلك إلى عائلات المتظاهرين التي غالبا ما تعرضت للضغط والتهديد كوسيلة لإجبار أبنائها على التخلي عن مطالبهم ... عبر استهداف الأبناء أو إيداعهم، سعى النظام إلى خلق جو من الخوف الجماعي وكسر أي رغبة في المقاومة. وهكذا، أصبح ثمن التظاهر لا يتمثل فقط في المخاطرة بالحياة، بل أيضا في تعريض حياة الآخرين للخطر.

بسبب هذا القمع الشديد، لم تتحقق حرية حقيقية في الاحتجاجات إلا بعد طرد قوات النظام من بعض المناطق. هذه المناطق التي جرى تحريرها غالبا بعد معارك عنيفة، شكّلت بداية مرحلة

جديدة من الصراع السوري. ومع انسحاب النظام منها، بدأت تظهر مؤسسات بديلة مثل المجالس المحلية وجماعات المعارضة التي سعت لملء الفراغ الإداري.

سمح هذا التحول للناس في تلك المناطق بالمشاركة في الحياة السياسية والاحتجاجات بشكل أكثر حرية، دون الخوف من الاعتقال الفوري أو الإعدام. لكن هذا الواقع الجديد جاء أيضا بتحديات كبيرة، حيث أدى إلى تفكك البلاد وانقسامها إلى مناطق نفوذ متعددة، كل منها تقع تحت سيطرة جهة مسلحة.

بالنسبة للنظام، لم تعد وحدة سوريا أولوية ... كان هدفه الأساسي هو الحفاظ على سلطته بأي ثمن – حتى إن كانت تلك السلطة على جزء صغير من البلاد. فضّل النظام الحفاظ على قبضته على العاصمة ومناطق استراتيجية أخرى، ولو كان ذلك يعني فقدان السيطرة على بقية سوريا.

تعكس هذه الاستراتيجية عقلية انتهازية بحتة، حيث لم تعد مصلحة البلاد أو شعبها ضمن حسابات النظام. بدلا من الحفاظ على سوريا كدولة موحدة، تبنى النظام خيار تقسيم البلاد فعليا ... طالما أنه يضمن له البقاء في الحكم.

وقد أظهرت هذه السياسة بوضوح زيف الشعارات التي طالما رددتها النظام عن "الوحدة الوطنية" و"الدفاع عن الأمة". فقد استخدمت هذه العبارات كشعارات دعائية تهدف إلى إضفاء شرعية زائفة على حكمه ... في حين كان الواقع على الأرض يظهر العكس تماما.

تحت هذه الشعارات، سعى النظام إلى زرع الانقسام بين السوريين، مستغلا الهويات الطائفية والعرقية لإضعاف المقاومة وتثبيت حكمه. كانت هذه الاستراتيجية تهدف إلى تمزيق النسيج الاجتماعي السوري وتعميق الانقسامات.

وبينما كان الخطاب الرسمي يتحدث عن حماية البلاد، كانت الأولوية الفعلية هي البقاء في الحكم. لم يتردد النظام في التخلي عن مساحات واسعة من الأراضي، في مقابل تعزيز سيطرته على مناطق محددة ذات أهمية سياسية أو عسكرية.

تحولت هذه الاستراتيجية إلى أداة لإبراز قوة زائفة أمام الداخل والخارج. فمن خلال تقديم نفسه كدرع ضد "الإرهاب" أو "المؤامرات الخارجية"، حاول النظام كسب دعم الحلفاء والتأثير على الرأي العام المحلي، خصوصا بين من أنهكتهم الحرب والذين كانوا يبحثون عن الاستقرار وسئموا من استمرار المعارك.

لكن هذه الصورة سرعان ما تصدعت ... الواقع كان مغايرا تماما ... البلاد كانت تعيش انقسامات سياسية وجغرافيا واجتماعيا عميقا. العائلات تفككت، المدن دمرت، والملايين هُجروا من بيوتهم. ومع ذلك، استمر النظام في التمسك بالسلطة، ولو على أنقاض وطن ممزق.

في بدايات الثورة، دار حديث بين يوسف وأحد زملائه في العمل حول الوضع المتدهور في سوريا. كان زميله، أبو محمد الذي تربطه صلات عدة بالنظام السابق، قد عبّر في بداية الثورة عن رفضه لأساليب النظام، لكنه بحلول عام 2015 غيّر موقفه تماما، معلنا ولائه الكامل للنظام.

خلال ساعات العمل، قال يوسف بهدوء: "أبو محمد! النظام بحاجة إلى أن يخفف الضغط ويتوقف عن القمع. أنت ترى كيف تغير المشهد السياسي في دول مثل تونس ومصر وليبيا ... كلها واجهت اضطرابات بسبب تعنت أنظمتها. إذا استمرت سوريا على هذا النهج، فستواجه المصير نفسه".

استمع أبو محمد جيدا، وبدأت على وجهه ملامح تردد للحظة قبل أن يرد قائلا: "يوسف! أنا أتفهم قلقك، لكن دعني أقول لك شيئا علمته مؤخرا. كنت في دمشق الأسبوع الماضي جالسا مع مجموعة من الشخصيات المؤثرة، من بينهم وزير في الحكومة - آنذاك. خلال النقاش، طُرح نفس الموضوع الذي نتحدث عنه الآن. سأل أحدهم الوزير عن إمكانية تخفيف القمع وتقليل العنف ضد المتظاهرين، فكانت إجابته صادمة. قال: 'نقلنا هذه الرسالة تحديدا إلى الرئيس بشار الأسد في آخر اجتماع لنا ... ذكرناه بخطورة الوضع في المنطقة، وطلبنا منه تخفيف القمع. لكن رده كان مباشرا وحاسما: افعلوا ما تريدون، لدي ضوء أخضر للتصرف كما نشاء'".

لقد كانت عبارة "الضوء الأخضر" مفاجئة جدا ليوسف لأنها إذن مفتوح لعمل أي شيء دون محاسبة.

توقف أبو محمد لوهلة ثم تابع: "هذا الضوء الأخضر يعني أن قوات الأمن مخولة بإطلاق النار على أي شخص يشكل تهديدا، دون أي مساءلة. كان بشار الأسد قد تلقى تطمينات من حلفائه الدوليين بأنه لن يواجه عواقب على الجرائم التي يرتكبها. هذا الدعم الخارجي، هذه الموافقة الضمنية من قوى كبرى، كانت أهم أسباب استمرار النظام في ارتكاب المجازر".

شعر يوسف بالقلق وكان وقع الكلام ثقيلا، وأضاف أبو محمد: "لو لم يكن هذا الغطاء الدولي موجودا، لما تجرأ النظام على ممارسة هذا العنف. الخوف من المساءلة، وخاصة فيما يتعلق بجرائم مرتبطة بحقوق الإنسان، كان سيشكل رادعا ... لكن النظام كان يعلم أنه محمي، فتصرف كما يشاء، بلا حدود ولا خوف من المحاسبة. أصبح أكثر شراسة وارتكب جرائم لا يمكن لأي حكومة أن تتغاضى عنها".

ثم أضاف بجدية أكثر: "ما يكشفه هذا الموقف هو مدى اعتماد النظام على قوى أجنبية في قمع شعبه وتدمير بلده. هذا يوضح هشاشته الحقيقية، فبدون دعم هؤلاء الحلفاء كان سيسقط بسرعة، ربما خلال أشهر. لم يكن بوسعه البقاء في وجه انتفاضة شعبية لو ترك وحده".

هز يوسف رأسه ببطء وقال: "إذن، لم يكن النظام يقاتل من أجل بقائه فقط، بل أيضا لخدمة مصالح تلك القوى التي دعمته؟"

رد أبو محمد بثقة: "بالضبط. لم تكن وحشية النظام فقط للحفاظ على سلطته في الداخل، بل كانت جزءا من تنفيذ أجنادات أنانية لقوى خارجية رأت في سوريا ساحة لصراعاتها الجيوسياسية. كان النظام أداة، لكنه أيضا شريك متعاون في تنفيذ تلك المخططات".

ما صدم يوسف أيضا هو تغير موقف أبو محمد مع الوقت. في بداية الثورة، كان ينتقد القمع علنا ويظهر تعاطفا واضحا مع مطالب المتظاهرين. كان يتحدث بصراحة ... ربما لأن الأمل كان لا يزال موجودا. لكن مع مرور الوقت، وخاصة بعد 2015، خفت صوته، وبدأ يتحدث بحذر. وفي النهاية، أعلن ولاءه للنظام، وأصبح مؤيدا للرواية الرسمية بشكل واضح.

قصة أبو محمد كانت أيضا دليلا على دور القوى الكبرى في إطالة أمد الصراع، وبإعطاء بشار الضوء الأخضر، منحوه فعليا الإذن باستخدام العنف بلا قيود. هذا الدعم شجعه على تصعيد قمعته، لأنه لم يكن يواجه تهديدا حقيقيا من المجتمع الدولي بالمساءلة. بل إن الصمت الدولي، أو المشاركة الانتقائية أرسلت رسالة واضحة بأن الجرائم يمكن أن تستمر دون عقاب.

كشفت محادثة يوسف وأبي محمد عن حقيقة موجعة: الصراع في سوريا لم يكن مجرد شأن داخلي، بل أصبح ساحة لصراعات إقليمية ودولية. بقاء النظام كان مرهونا بدعم خارجي، وجاء ذلك الدعم على حساب دماء السوريين. كانت المأساة جزءا من لعبة أكبر ... تخطت حدود الوطن. ولكن في وسط كل ذلك الظلام، كانت هناك مساحات من الأمل والنجاح ... في عام 2011، بدأ غنام مسيرته المهنية كطبيب أطفال في مركز السد لطوارئ الأطفال التابع لمؤسسة حمد الطبية في قطر. ومنذ ذلك الحين، كرس نفسه لتقديم الرعاية العاجلة للأطفال، واكتسب خبرة واسعة في التعامل مع مختلف الحالات.

بعيدا عن عمله، كان غنام شغوبا بكرة القدم، ومشجعا لنادي برشلونة. وقد تمكن من تحقيق توازن فريد بين حياته المهنية وهواياته، مما يعكس التزامه بالتطور المستمر والنجاح على الصعيدين المهني والشخصي. خلال رحلته، استمر في تطوير مهاراته في بيئة عمل تنافسية تحترم وتقدر المواهب الاستثنائية والأداء المميز.

هذا المسار المهني لم يكن سهلا، لكنه منحه فرصا كثيرة للمتابعة والإنجاز، وأثبت من خلاله أنه طبيب موثوق يُعتمد عليه من ناحية الالتزام والتفاني والقدرة على التألق في أصعب الظروف.

الفصل الحادي عشر

إدارة الأزمة وتفعيل النظام البطوطي

2014 – 2013

عندما اندلعت الثورة في البلاد، تيقن النظام بأنه غير مستعد وغير قادر على مواجهة الأزمة التي تصاعدت بسرعة وبشكل غير متوقع. رغم إمكانيات النظام الأمنية والاستخباراتية والعسكرية الواسعة التي صممت أصلاً للحفاظ على أمن النظام واستقراره، إلا أن كل هذه الإمكانيات فشلت في قمع الانتفاضة الشعبية التي اجتاحت الشوارع. كانت هذه الهزة بمثابة اختبار قاس كشف ضعف النظام وأظهر محدودية أفقه وأدواته في مواجهة مطالب التغيير الحقيقية.

رداً على هذا التحدي الكبير، سارعت قيادة النظام إلى وضع سلسلة من القواعد والخطط لإدارة الأزمات العاجلة بهدف استعادة الأمن وقمع المظاهرات المتنامية. من بين الخطوات التي اتخذها النظام كان تشكيل لجنة عليا مختصة بإدارة الأزمة، تم تكليفها بتنسيق الجهود الأمنية والسياسية. لكن هذه اللجنة، كما هو الحال مع إدارة البلاد خلال تلك المرحلة الحرجة، كانت تحت سيطرة وهيمنة كاملة من قبل الأجهزة الأمنية. هذا الأمر يعكس اعتماد النظام على السرية والمراقبة والاستخدام المكثف للإكراه بدلاً من تبني سياسة حكيمة تعالج جذور الأزمة.

منذ بداية الأحداث، كان الشباب السوريون، مثل محمد، على دراية بأن جهود النظام كانت محكومة بالفشل مسبقاً. فقد أشار محمد إلى أن "الفشل كان واضحاً منذ البداية، وظل يرافق النظام حتى

النهاية". رغم بعض النجاحات التكتيكية المؤقتة التي حققها النظام، مثل استعادة السيطرة على مناطق معينة لفترات قصيرة، إلا أن الاستراتيجية العامة للنظام كانت فاشلة وغير فعّالة. تلك الانتصارات المحدودة جاءت بثمن باهظ جداً، سواء على الصعيد البشري أو المادي.

وقد أثار ياسر سؤالا آخر مهما عن "تكلفة استعادة تلك المناطق؟" كانت الإجابة قاتمة وواقعية.

أجاب سعود بأن "الثمن تضمن آلاف القتلى وتدمير المناطق نفسها التي كان من المفترض أن تُستعاد. انتصارات النظام المزعومة غالبا ما كانت مجرد أوهام تحققت عبر قمع وحشي أدى إلى دمار مجتمعات بأكملها وترك أثرا مدمرا يصعب تجاوزه".

أضاف أحمد العطية بأن "فشل النظام الأساسي يكمن في عدم قدرته على تكييف سياساته مع الأزمنة. بدلاً من إعادة التفكير في النهج المتبع، ضاعف النظام من استراتيجيته طويلة الأمد التي تركز على بث الخوف واستغلال الانقسامات الطائفية والاجتماعية لتعزيز سلطته. كان أسلوب "فرق تسد" هو حجر الزاوية في هذه السياسة ... النظام لم يغير سياسته القائمة على نشر الخوف، لأن هذه السياسة مكنته من البقاء في الحكم لأكثر من خمسين عاما".

"اعتقدت قيادة النظام أن الحفاظ على هذه السياسة سيمنحهم نفوذا إلى أجل غير مسمى"، قال محمد. "لقد توقعوا أنه من خلال استمرار غرس الخوف وتعزيز الانقسام ... سيتمكنون من الصمود أمام الاحتجاجات ... والحفاظ على قبضتهم على السلطة. لكنهم، ولسوء حظهم، لم تكن حساباتهم دقيقة، بل أصبحت وبالا عليهم فيما بعد".

مع تفاقم الأزمة، تابع بشار الأسد نهجه عبر تفعيل "النظام البطوطي" في قمع الثورة، وهو أسلوب اتسم بتخويف الناس عبر إطلاق النار العشوائي دون تمييز، تماماً كما حدث في معسكر التدريب الجامعي والذي تسبب في حالة من الذعر الشديد وأجبر الكثيرين على الفرار من موقع الحدث في اتجاهات مختلفة هرباً من الرصاص. أصبح هذا الأسلوب نموذجاً لاستراتيجية السيطرة الأوسع للنظام، التي تقوم على زرع الخوف والفوضى لكسر إرادة الشعب.

"عندما فعل بشار الأسد النظام البطوطي، كان ذلك بمثابة ضوء أخضر لإطلاق النار على الجميع"، قال يوسف. "... بغض النظر عن دورهم، طالما أن ذلك يساهم في قمع الثورة. لم يكن هناك تمييز بين مدني أو مقاتل ... أطلقت النار على الجميع دون حساب للعواقب، مما جعل من الأزمة كارثة إنسانية لا يمكن تصورها".

يعمل النظام البطوطي وفق مبدأ بسيط لكنه صارم، وهو: "اسمع ونفذ" دون أي سؤال أو تساؤل عن ماهية الأوامر أو الأمر ودون تمييز بين من سيُستهدفون سواء كانوا مؤيدين للنظام أو معارضين له. في بعض الحالات، وصل الأمر إلى حد إطلاق النار حتى على الموالين للنظام إذا كان ذلك يخدم مصالحه بطريقة أو بأخرى.

أحياناً، كانت هذه العمليات تستخدم كحيلة ساخرة لإلقاء اللوم على أطراف أخرى في عمليات القتل، مما يعكس مدى القسوة والفوضى التي تسود آليات الحكم. أصبح هذا النهج القاسي وغير المدروس في استخدام العنف أسلوب عمل ثابتاً لحكم البلاد خلال الأزمة، حيث كانت الحياة الإنسانية تُهدر بسهولة تحت شعار الحفاظ على النظام.

"إن بشار وبطوط يمثلان وجهين لعملة واحدة"، أضاف يوسف. "عندما أطلق بطوط النار على الطلاب، لم يميز بينهم ... أطلق النار على الجميع، بما في ذلك يوسف نفسه الذي أصدر الأمر له بإطلاق النار. وبالمثل، كانت إدارة بشار الأسد مستعدة لقتل ليس فقط معارضيها، بل وأحياناً مؤيديها أيضاً، سواء كان ذلك بشكل مقصود أو غير مقصود، إذا ما خدم ذلك هدف النظام الأكبر في استمرار الحكم".

"كل واحد منهم استراتيجيته، بشار وبطوط"، قال محمد. "اعتقد بطوط أن إطلاق النار على الجميع سيعيد الهدوء والأمن إلى المعسكر، بينما تبنى بشار الأسد هذه الفكرة ووسعها ليتم تطبيقها على مستوى الدولة ... معتقداً أن قتل المعارضين وبعض المؤيدين، عند الحاجة، من شأنه أن يزرع الخوف ويكسر المقاومة، وبالتالي يعيد مظهراً زائفاً للأمن في كل أنحاء البلاد. مع ذلك، لا يزال الغموض يحيط بمن أثر على الآخر أكثر ... هل كان بطوط أم بشار؟ ما هو واضح فقط أنهم كانوا منسجمين تماماً ... متوافقين في أساليبهم ... متبعين نفس القواعد".

لم يكن فشل النظام بسبب تكتيكاته القمعية فحسب، بل أيضاً بسبب فشل القيادة على كافة المستويات، كما أشار سعود: "قيادة المعسكر، حيث يخدم بطوط، كان لها دور كبير في تفاقم الأزمة. بدلاً من اتخاذ إجراءات فعالة ومعقولة للسيطرة على العنف، اختارت القيادة التهرب من المسؤولية وفشلت في نزع سلاح بطوط أو إبعاده عن المشهد ... لو تم التعامل مع بطوط بشكل حكيم بعد الحادث العنيف الأول، ربما كان بالإمكان تفادي الكثير من الحوادث اللاحقة ... تسبب إهمال العنف بحوادث أخرى خرجت عن السيطرة وكادت أن تتسبب بكارثة".

في الوقت نفسه، أسهم سوء تعامل بشار الأسد مع الأزمة الوطنية في تعميق الاضطرابات وزيادة انقسام المجتمع ... بدلاً من السعي إلى الحوار أو البحث عن حلول سياسية جذرية، اختار النظام تصعيد قمعه عبر تسليح ميليشيات موالية له، مما زاد من عسكرة الصراع وتعقيده. بدلاً من الانخراط مع جماعات المعارضة أو معالجة المظالم المشروعة، شن النظام حملة قمع عنيفة ومستمرة أدت إلى نفور واسع بين السكان ... مما أثار مقاومة متزايدة وأدى إلى تصاعد العنف وفقدان الاستقرار.

كان إصرار النظام على الاستمرار في الاعتماد على سياسته البطوطية والعنف العشوائي عاملاً رئيسياً في سقوطه لاحقاً. النهج الذي ساعد النظام على الحفاظ على قبضته لفترة طويلة، تحول إلى آلية أدت إلى تآكل شرعيته وأشعل ثورة واسعة النطاق ضد حكمه. حملة القمع الوحشية لم تؤد فقط إلى تدمير المجتمعات، بل خلقت دائرة من العنف المستمر التي كان من المستحيل احتوائها أو تهدئتها.

أدى تمسك النظام بسياساته، بدلاً من تبني إصلاحات حقيقية، إلى انهيار كامل لسيطرته. ما بدأ بمحاولة لقمع الاحتجاجات عبر الإرهاب واستغلال الانقسامات، تحول إلى صراع شامل لم يعد النظام قادراً على السيطرة عليه. امتدت الأزمة وتعمقت إلى ما هو أبعد من قدرة النظام على الاحتواء ... وبلغت ذروتها قبيل سقوطه النهائي.

خلال هذه الفترة المضطربة في سوريا، أجبر عدد هائل من الناس على مغادرة منازلهم هرباً من ممارسات النظام الوحشية واللاإنسانية، بالإضافة إلى المواجهات العنيفة مع مختلف الجماعات المسلحة التي كانت تنشط في البلاد.

كان المدنيون هم الأكثر تضرراً، إذ كانوا الضحايا الأبرياء الذين فقدوا كل شيء تقريباً. انقلبت حياتهم رأساً على عقب، وأصبح مستقبلهم قائماً وتلاشى إحساسهم بالأمان أولاً والأمل ثانياً.

في مواجهة هذا العنف والدمار المستمر، لم يجد كثير من السوريين خياراً سوى الفرار من مسقط رأسهم. هاجر البعض داخلياً، باحثين عن ملاذ آمن في مناطق أخرى من البلاد أقل خطورة، بينما عبر آخرون الحدود إلى دول مجاورة.

أصبحت دول مثل تركيا ولبنان والأردن الوجهات الأولى للاجئين الفارين من ويلات الحرب، بينما كان كثيرون يتطلعون أيضاً إلى دول أوروبية آملين أن توفر لهم حياة أكثر استقراراً وأماناً بعيداً عن مشاهد العنف المستمرة.

"لقد خاض الكثير من السوريين رحلة محفوفة بالمخاطر إلى أوروبا، بحثاً عن ملاذ آمن"، قال يوسف. "كل تلك المحاولات الخطيرة تمت للهروب بعيداً عن الواقع المرير في بلادهم".

"شعر هؤلاء الناس أنهم لا يملكون خياراً آخر"، قال حمزة. "فقد كانوا يهربون من جحيم اصطنعته وحشية النظام وتفاقم بفعل الصراعات المسلحة المتعددة ... لم يكن الوضع مجرد خوف عابر، بل كان يأساً عميقاً اجتاح معظم الناس".

وصف عماد نزوح الأهالي بقوله: "غادر الناس منازلهم في مناطق أصبحت فيها الحياة شبه مستحيلة. تركوا كل شيء يملكونه ... منازل وممتلكات ومجتمعات، فقط ليبقوا على قيد الحياة".

"الجزء المرعب في هذه القصة هو أن لا مكان كان آمناً لفترة طويلة"، أضاف تميم. "فقد يعم الهدوء منطقة ما قليلاً، لكن هذا الهدوء لم يكن ليديم ... استمرت الحرب بالانتشار كالنار في الهشيم ... كانت تنتقل من مكان إلى آخر".

"لهذا السبب استمر عدد كبير من السكان بالتنقل خاصة نحو الشمال"، قال ياسر. "عندما تم طرد قوات النظام من تلك المناطق، أصبحت ملاذاً مؤقتاً للعديد من النازحين من مختلف أنحاء البلاد".

"تدفقت أعداد هائلة من الناس إلى الشمال من كل أنحاء البلاد"، أضاف تميم. "... هرباً من موجات العنف في مدنها، على أمل أن يجدوا هناك بعض الأمان والاستقرار".

"لكن الشمال لم يكن مستعداً لاستقبال هذا الكم الهائل من النازحين"، أكد حمزة. "كانت المدن هناك هادئة نسبياً، ولكن تعرضت فجأة لموجات من النزوح ... امتلأت بالسكان الجدد، مما خلق ضغطاً هائلاً على الموارد والبنية التحتية".

"لم يتوقف الأمر عند ذلك"، قال عماد. "فقد اضطرت العديد من العائلات إلى التنقل مراراً وتكراراً ... فقط عندما كانوا يظنون أنهم وجدوا ملجأً آمناً، تحدث موجة جديدة من العنف".

كان لهذا الأمر تأثيراً على أكثر من صعيد، أضاف تميم: "لم تكن صدمة الحرب فقط، بل النزوح المتكرر الذي أرهق الناس جسدياً ونفسياً ومالياً".

وأشار ياسر إلى الصعوبات المتزايدة في الحصول على الضروريات الأساسية قائلاً: "حتى الأشياء الأساسية مثل الغذاء والمياه النظيفة والمأوى والرعاية الطبية أصبحت نادرة وصعبة المنال".

وقد دفع الضغط الهائل نتيجة النزوح الكبير إلى إنشاء مخيمات للنازحين في الداخل، لكن هذه المخيمات غالباً ما كانت مكتظة ولم تتمكن من استيعاب الجميع ... وجد كثيرون أنفسهم بلا مأوى أو مكان يقيمون به ... اضطروا لتحمل ظروف معيشية صعبة لا يمكن وصفها.

كان الوضع الإنساني كارثياً، فقد وجد الناس أنفسهم أمام خيارات صعبة ... لا أمل يلوح في الأفق ... مغادرة منازلهم لم تعني فقط فقدان ممتلكاتهم، بل فقدان وسائل عيشهم أيضاً. استنزفت العديد من العائلات مدخراتها فقط للنجاة بأنفسهم في المراحل الأولى من النزوح.

ومع انهيار الاقتصادات المحلية وغياب فرص العمل في المناطق التي لجأوا إليها، أصبح من الصعب جداً تأمين لقمة العيش. كانت الخسائر المادية مذهلة، وكانت الخسائر النفسية أشد وطأة وأعمق تأثيراً.

وفي ظل هذا الواقع الصعب، شهدت الأسر التي يعمل بعض أفرادها في الخارج وضعاً اقتصادياً أقل قسوة نسبياً، إذ تمكن أفراد العائلة في الخارج من مساعدة ذويهم وكانت تلك المساعدات تمثل شريان حياة لهم، ومكنت الكثير من الأسر على الاستمرار وتجاوز تلك الأوقات العصيبة. بالنسبة لكثيرين، كانت هذه المساعدات هي الفارق بين الجوع والبقاء وبين اليأس والأمل.

لكن الغالبية العظمى من السوريين الذين لم يحظوا بمثل هذا الدعم عانوا بشدة، إذ تضررت حياتهم من الناحية النفسية والعملية. فقدوا فرص العمل والدخل ... لم يكن أمامهم أي أفق للمستقبل ... واجهوا قسوة النزوح وسط تراجع الموارد وقلة المساعدات، حيث حرمتهم الحرب من منازلهم وممتلكاتهم وفرصهم ... وتركهم مشردين عاجزين.

إلى جانب المعاناة المادية، أثرت الحرب والنزوح بشكل عميق على الصحة النفسية للسكان. فقد سببت صدمة التهجير المفاجئة وفقدان الأقارب وتدمير المجتمعات والشكوك التي كانت تساورهم جروحا نفسية لا تندمل. وقد نشأ أطفال تلك الفترة وسط الفوضى والخوف وتمزق العائلات والنسيج الاجتماعي، مما زاد من معاناة السكان الذين عانوا بالفعل من ظروف صعبة لا تطاق.

ونظرا لطول أمد الصراع، أصبح النزوح حالة دائمة لكثيرين، إذ لم يكن بإمكانهم العودة إلى منازلهم طالما استمر العنف، وهو أمر ظل بعيد المنال لسنوات عديدة. ومع مرور الوقت، تراجعت فكرة الاستقرار والحياة الطبيعية أكثر من أي وقت مضى.

تعكس معاناة هؤلاء الأشخاص التكلفة البشرية الهائلة للحرب والقمع، وهي تكلفة تجاوزت ساحة المعركة لتصل إلى كافة جوانب الحياة. فكانت أزمة النزوح واحدة من أكبر الكوارث الإنسانية في التاريخ الحديث، وآثارها ما زالت مستمرة ومتعددة الأبعاد عبر سوريا والمنطقة بأكملها.

علق ياسر على ذلك الوضع المزري، قائلاً: "عندما خسر النظام مساحات كبيرة من الأرض، بدأ يتصرف بجنون، يدمر كل شيء يمكن أن يضع يده عليه".

وأشار تميم إلى أن "هذا النهج العشوائي والمدمر كان أبرز سمات المحاولات الأخيرة للنظام للتشبث بالسلطة، مما يعكس قيادة تفتقر إلى الاستراتيجية وتعتمد على الذعر واليأس كقاعدة أساسية للعمل".

ربط يوسف الخوف الذي يعاني منه السكان اليوم بالخوف الذي شهده الطلاب في معسكر التدريب الجامعي، قائلاً: "عانى الناس من الفوضى والخوف، تماماً كما عانى الطلاب الذين تعرضوا لإطلاق النار العشوائي من قبل بطوط في معسكر التدريب".

"إن نمط العنف الذي اتبعه النظام، والذي يتميز بالعشوائية والوحشية المفرطة، لم يكن أمراً جديداً على البلاد، لكنه اشتد واتسع ليشمل مدناً وبلدات بأكملها، حيث أصبح الخوف الذي دب يوماً في معسكر التدريب يتحول الآن إلى حالة عامة تطال كل مناطق البلاد"، قال عبد الحميد. "هذا العنف تحول إلى ظاهرة متفشية تتغلغل في نسيج الحياة اليومية للسوريين، فأصبح الكل يعيش تحت وطأة تهديد مستمر".

وقال أحمد العطية "إن الانزلاق المتصاعد للنظام نحو الجنون كان واضحاً بشكل صارخ في الفترة بين عامي 2013 و2014، حين اقترب النظام من حافة الانهيار الكامل".

"وذلك الجنون...، قال عبد الحميد، كان ناتجاً عن إدراك النظام لحقيقة فقدانه السيطرة، مما دفعه إلى تبني أساليب قمع عنيفة ومكثفة تهدف إلى ترهيب السكان وإرهابهم لإجبارهم على الخضوع". كما وصف صعود هذه المرحلة بأنها من أخطر المراحل في الصراع السوري، قائلاً: "في هذه المرحلة كان النظام يلجأ إلى قصف مكثف عبر القذائف والبراميل المتفجرة التي أطلقت بلا هوادة،

مسببة دمارا هائلا وعددا كبيرا من القتلى والجرحى، وأزمات كارثية لحياة الناس في مناطق واسعة".

"أدت تكتيكات النظام الوحشية إلى معاناة غير مسبوقة"، قال تميم. "إذ تحولت العديد من المدن السورية إلى ساحات معارك حقيقية، وتحول المدنيون إلى ضحايا العنف العشوائي الذي لا يفرق بين مدني أو مقاتل ... هذه السياسة أدت إلى تدمير مجتمعات بأكملها، وخلقت مأساة لا تزال آثارها ماثلة".

وصف يوسف الدمار الذي حل بالبلاد بقوله: "اجتاح الدمار مدنا وبلدات كاملة، مما جعل وضع الناس أكثر سوءا ... الملايين من السوريين أصبحوا بلا مأوى أو ملجأ ... الكثير من المجتمعات تحطمت نتيجة العنف، وتحولت المنازل إلى أنقاض، مما أجبر العائلات على النزوح المفاجئ دون أي مساعدات أو تحضير مسبق. كان ذاك الوضع كارثي ... تسبب في اقتلاع الملايين من جذورهم وشردهم إلى أماكن مختلفة ... يبحثون عن مكان يصلح للعيش وسط أنقاض بلادهم".

"لقد تمزقت البلاد وتعرضت لدمار لا يوصف"، أضاف سعود. "لم تكن حتى البلدات التي لم تُدمر مسبقا في أمان، لأن معظم المدن والبلدات كانت تشهد مواجهات عنيفة وتعرض لقصف مستمر ... وكأن كل واحدة تنتظر دورها".

ركزت سياسة النظام "البطوطية" على ألا تترك شيئا سالما، خاصة أن أتباع النظام احتشدوا خلف شعار وحشي هو "الأسد أو نحرق البلد" ... لقد نفذوا هذا حرفيا، مما أدى إلى تحويل العديد من

المدن إلى أنقاض وأرض محروقة ... تركوا عددا لا يحصى من الأشخاص ما بين قتيل ومشرّد وجريح.

كانت تلك الشعارات والسياسة التدميرية دليلا على استعداد النظام للتضحية بالبلاد والشعب من أجل الحفاظ على السلطة بأي ثمن، حتى لو كان الثمن هو حرق البلاد بأكملها.

ومن الأمثلة التي تعكس هذا الواقع، مدينة القورية التي شهدت وضعاً محلياً مزريراً للغاية، حيث فقد الكثير من سكانها مصادر رزقهم ووظائفهم ... توقفت العديد من الأنشطة الاقتصادية بسبب استمرار الصراع. ورغم الفوضى، حاول بعض السكان التكيف والبقاء على قيد الحياة. من بين أولئك، قرر باسل ونادر، اللذان يحملان شهادات جامعية في القانون والأدب الإنجليزي أن يفتتحا بقالة صغيرة ... كانت خطوة عملية لمواجهة تدهور الأوضاع الاقتصادية وتقلص فرص العمل.

لكن مع استمرار تدهور الأوضاع الأمنية، اضطر الاثنان في نهاية المطاف إلى إغلاق بقالتهما والخروج من مدينتهم. وهذا يسلط الضوء على جزء بسيط جداً من الواقع القاسي الذي عاشه كثير من السوريين الذين أجبروا على التخلي عن أعمالهم ومشاريعهم الصغيرة للنجاة بحياتهم. كان تحول باسل ونادر، من حاملين لشهادات أكاديمية، إلى بقالين دليلاً واضحاً على انهيار الحياة الطبيعية تحت وطأة الحرب.

مع مرور الأيام في القورية، أصبح الوضع أكثر سوءاً وتفاقم انعدام الأمن ونقص الغذاء والاحتياجات الأساسية وازداد التضخم بشكل كبير مما أدى إلى انخفاض قيمة الليرة السورية

وتفانم الأزيمة الاقتصاوية. بالنسبة للمواطن العاوي؁ تحولت الحياة اليومية إلى معركة مستمرة من أجل البقاء ... بءلا من السعي لتحقيق أي نوع من التءقم أو الاستقرار.

ما بين الفينة والأخرى يلوح بصيص أمل ... خاصة عندما يتم طرد قوات النظام من بعض المناطق مثل مءينة القورية. خروج قوات النظام ساهم في ءحسن مؤقت في أوضاع المءينة ... لكن هذه اللحظات لم ءدم طويلا؁ إذ سرعان ما استعاد النظام سيطرته؁ وعاء الوضع إلى التءهور مما أءى إلى مزيد من المعاناة والفوضى. وقد تم تكرار هذا النمط في العديد من المناطق؁ حيث كانت الانتعاشات القصيرة تعقبها نكسات ءءيدة تزيب من يأس السكان وءعمق معاناتهم.

كان رد النظام على خسارة الأراضي يتمثل في إطلاق موجه ءءيدة من الءمار لتءتاح مزيدا من المءن والبلءات. هذه السياسة وءفعيل "النظام البطوطي" من ءلال التءمير العشوائي ما هي إلا ءطبيقا لسياسة النظام الأساسية ... وهي افعل كل شيء في سبيل الحفاظ على السلطة ... لا أولوية فوق هذه الأولوية بما في ذلك سلامة مواطنيه ... وسلامة البلاد ... من الحرء.

في خضم هذه الفترة العصيبة والمليئة بالاضطرابات؁ كان فلاح قء خرج من مءينة القورية في رحلة شاقة إلى مءينة ءير الزور. كانت رحلته؁ كما هو حال الكثير من الرحلات في ذلك الوقت؁ محفوفة بالمخاطر؁ لكنه كان يأمل أن يصل إلى وءهته بسلام. مع اقتراب الحافلة التي يستقلها من أءد نقاط التفتيش التابعة للنظام – حيث كانت تلك النقاط مشهورة بسوء سمعتها وقسوة جنودها – ءغيرت الأجواء فجأة وبشكل كبير.

عند نقطة التفتيش، طلب منه الجنود النزول من الحافلة بينما سمحوا لبقية الركاب بالمرور، ومنذ تلك اللحظة اختفى فلاح تماما. لم تستطع عائلته ولا أي أحد آخر أو أصدقاؤه معرفة أي معلومات عن مصيره. ظل اختفاؤه لغزا مؤلما، لم يعرف أحد ماذا حدث له بعد تلك اللحظات وإذا ما كان قد تم اعتقاله وسجنه أو إذا ما تم نقله إلى مكان سري لا يعلمه أحد.

النظام، المعروف بأساليبه القمعية السرية والوحشية، أبقى الأمور طي الكتمان، ولم يصدر أي توضيح أو رد حول مصير آلاف الشباب الذي لا زالت عائلاتهم تعيش في حالة انتظار وعذاب نفسي بسبب غيابهم ... وإلى يومنا هذا ... بعد مضي أكثر من عشر سنوات.

قصة فلاح ليست استثناء، بل هي واحدة من آلاف الحالات المماثلة في سوريا ... في كل أنحاء البلاد، اختفى عدد هائل من المدنيين في ظروف مشابهة ... عند نقاط التفتيش ... وغيرها ... احتجزتهم قوات الأمن، ومنذ ذلك الحين لم يسمع أحد عنهم أي شيء.

هؤلاء الشباب لم يكونوا معروفين بأنهم يشكلون أي تهديد للنظام ولم يرتكبوا أي جرم يُبرر اعتقالهم، بل كانت اعتقالاتهم تعسفية وعشوائية وبدت بلا هدف قانوني لكنها كانت جزءا من استراتيجية قمع ممنهجة تهدف إلى نشر الخوف بين الناس.

كان النظام يستخدم هذه التكتيكات كأداة للإرهاب والسيطرة ليرسل رسالة مفادها أن أي شخص قد يُؤخذ في أي وقت ولأي سبب أو حتى بدون سبب. لم يكن هناك من يستطيع أن يشعر بالأمان حتى أولئك الذين لم يكن لهم أي نشاط سياسي أو معارض.

سعى أقارب المفقودين بلا هوادة للحصول على إجابات، متوجهين إلى كل الجهات الممكنة، بما في ذلك محاولات التواصل مع شخصيات مؤثرة في دوائر النظام على أمل الحصول على أدنى معلومة عن ذويهم. لكن جميع جهودهم باءت بالفشل حيث استمرت أجهزة الأمن التابعة للنظام بغلق كل الأبواب ومنعت تسريب أي معلومات، محيطين أنفسهم بسياج من السرية التي يصعب اختراقها إلا من قبل نخبة صغيرة جدا من كبار العاملين في تلك الأجهزة.

واحدة من أكثر الأساليب مكررا وإجراما كان يستخدمها النظام لإخفاء جرائمه ومصير المحتجزين هي عدم تسجيل أسمائهم الحقيقية. ففي أغلب الأحيان، كانت السجلات الرسمية ناقصة أو مزورة بشكل مقصود، حيث يُعطى كل معتقل رقما أو رمزا مجردا عن هويته الشخصية. مثلا، قد يتم الاحتفاظ بشاب اسمه محمد أو علي بمجرد رقم مثل "120" أو "247" في سجلات النظام.

لم تكن هذه مجرد مصادفة، بل كانت خطة محكمة لمحو وجود الأفراد تماما من السجلات بحيث يصبح من المستحيل على العائلات تتبعهم أو حتى إثبات وجودهم.

حول النظام البحث عن المفقودين إلى مهمة شبه مستحيلة، إذ بدون اسم حقيقي لم يكن بإمكان العائلات حتى أن تبدأ في متابعة ذويهم عبر القنوات الرسمية ... حتى داخل جهاز الأمن نفسه، لم يكن سوى عدد قليل جدا من العناصر على علم برقم المعتقل وما يمثله وكان هؤلاء يمثلون كاتمي أسرار النظام.

إذا حاول أي شخص خارج هذه الدائرة الضيقة متابعة قضية معتقل، فلن يصل إلى شيء مفيد إلا إذا تمكن من تحديد موقع الاحتجاز بدقة، وهو أمر معقد للغاية بسبب تعدد مراكز الاعتقال المختلفة

ثم عليه التنسيق مع الوحدة الأمنية المسؤولة وهو أمر نادر الحدوث. أحياناً، لا يمكن حتى للشخصيات البارزة داخل النظام الكشف عن الرقم المقابل لمعتقل معين إلا من خلال تدخل خاص ومتابعة حثيثة.

لذلك، أصبح الرقم الذي يُخصص لكل معتقل هو الرمز السري الوحيد الذي يمكن من خلاله تتبعه أو حتى التعرف على أنه حي أو ميت مما يعكس مدى الإخفاء المتعمد الذي كان النظام يمارسه. هذه الممارسة ليست جديدة، بل هي جزء من أساليب القمع التي استُخدمت منذ سنوات طويلة قبل اندلاع الثورة بكثير لأنها تساعد النظام على إخفاء أي شخص دون أن يتحمل مسؤولية أو يخضع للمساءلة.

كانت العواقب مأساوية للغاية، إذ لم يُرَ العديد من هؤلاء المحتجزين مرة أخرى. ويُعتقد أن البعض أعدموا في سرية تامة ولم تُسجل وفاتهم ولم تصل جثثهم إلى عائلاتهم أبداً، تاركين وراءهم فراغاً مريراً وأسرار لا يعلمها إلا القليل.

ترددت الكثير من الشائعات حول نقل آخرين من المحتجزين إلى الخارج لأغراض أكثر سوء وخطورة ... أمر يثير الرعب والقلق. وقد نُشرت تقارير متعددة تنتهم النظام السوري بالتورط في جرائم خطيرة مثل الاتجار بالبشر وتجارة الأعضاء، وهو اتهام يعكس مدى القسوة التي وصل إليها النظام في سبيل تثبيت سلطته وتحقيق مكاسب مالية غير مشروعة.

هذا النوع من الاتهامات يسلط الضوء على الظلامية التي يغوص فيها النظام حيث لم يعد هناك حد لما يمكن أن يرتكبه من أفعال ... طالما أنها تخدم هدفه الأساسي في البقاء والاستمرار.

ولا تتوقف جرائم النظام عند هذا الحد، فقد توسع في ارتكابه لمجموعة واسعة من الأنشطة غير القانونية التي تجاوزت الحدود ومنها تجارة وتهريب المخدرات التي اجتاحت سوريا وامتدت إلى الدول المجاورة. أصبحت المخدرات أداة خطيرة في ترسانة النظام إذ استُخدمت لتمويل الفساد والعمليات العسكرية مما زاد من معاناة السوريين الذين وجدوا أنفسهم محاصرين بين الفقر والعنف ومخاطر المخدرات.

تكشف هذه الأفعال الشنيعة عن عقلية النظام التي لا تعترف بأي حدود أخلاقية أو إنسانية. في نظر النظام، لا يوجد فعل محظور طالما أنه يساهم في الحفاظ على الرئاسة، بقاء النظام، وقمع الشعب مهما كانت العواقب على البلاد وشعبها. هذه الحسابات المجنونة تتيح دفع أي ثمن مهما كان فادحا وتجعله مبررا في سبيل الحفاظ على السلطة.

كان لذلك الواقع المرير أثرا مدمرا على النسيج الاجتماعي السوري حيث ترك أثرا عميقة في المجتمع. ساهمت حالات الاختفاء القسري المتكررة وسياسة الصمت والسرية التي يفرضها النظام في خلق جو مشحون بالخوف واليأس. عاشت العائلات حالة مستمرة من القلق والحيرة لا تعرف شيئا عن مصير ذويهم ... أحياء أم قضوا نحبتهم؟ وهكذا تمزقت المجتمعات بين الشك والخوف والاضطهاد.

الفصل الثاني عشر

تقسيم البلاد وتدميرها

2020 – 2015

دخلت سوريا مرحلة من الفوضى والاضطرابات العميقة وشهدت تدهورا غير مسبوق في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مما شكل نقطة تحول جديدة في تاريخ البلاد. في قلب هذا الانقسام، بقي النظام الحاكم يحاول الحفاظ على قبضته على السلطة من خلال اللجوء إلى عدد من الميليشيات المسلحة.

هذه الميليشيات لم تكن مجرد أدوات عسكرية، بل تحولت إلى أدوات قمع وإرهاب موجهة ضد المدنيين في المناطق التي يسيطر عليها النظام، حيث كانت تمارس مهامها الموكلة إليها من قبل النظام بقسوة شديدة وعشوائية مما أوقع أضرارا جسيمة على سكان تلك المناطق.

كانت الميليشيات تتمتع بحصانة شبه كاملة تحميها من العقاب إذ كانت تعمل تحت حماية النظام الذي زودها بالأسلحة والموارد اللازمة لتعزيز قوتها. هذا الدعم مكنها من فرض سيطرتها عبر نشر الرعب والعنف، مستغلة الخوف كأداة للسيطرة على السكان. تحت مظلة شرعية النظام، تورطت هذه الميليشيات في أعمال قمعية وجرائم عديدة دون أي محاسبة.

وصف يوسف ذلك الوضع المزري بقوله: "تبنى النظام استراتيجية همجية ... لم يعد يعتمد فقط على المؤسسات الحكومية الرسمية، بل أنشأ مراكز قوة محلية تتمثل في ميليشيات ... تم تحميلها مسؤولية فرض الولاء والسيطرة عبر الترهيب".

"هذه الميليشيات أصبحت القوة الفعلية على الأرض"، قال حمزة. "... ليست مجرد أداة تنفذ أوامر النظام، بل قادرة على إرهاب السكان خصوصا الفئات الفقيرة والمهمشة مما جعل الاعتقالات التعسفية أمرا عاديا قد يحدث كل يوم".

"الاعتقالات كانت تتم دون أي مبرر قانوني"، أضاف عماد. "يتم القبض على الأشخاص بلا دليل أو تهمة ... فقط من أجل الإيذاء والضغط. هذا الأمر خلق المزيد من الكوابيس للعائلات ... لم تقتصر المعاناة على المعتقلين فقط، بل شملت أسرهم التي كانت تعيش في حالة من الخوف والابتزاز المستمر".

"كانت العائلات مجبرة على دفع فديات باهظة مقابل الإفراج عن أفرادها"، قال تميم. "وإذا عجزت عن الدفع، كانت العواقب وخيمة ولا يمكن توقعها".

"كانت الميليشيات تقيم نقاط تفتيش في كل مكان"، قال ياسر. "... تستهدف المسافرين والشباب وكثير من الأفراد".

أشار يوسف إلى أن "هذه الأعمال لم تكن مجرد أفعال فردية، بل تحولت إلى نشاط ربحي يخضع لحماية النظام حيث أصبحت حياة البشر سلعة للتكسب".

"كانت السيطرة الكاملة لهذه الميليشيات على المناطق التي تديرها تفتح الباب أمام الانتهاكات المتكررة"، أضاف سعود، "إذ أصبحت الإساءة والتعذيب أمرا معتادا".

أما عماد فقد وصف العنف الممارس بأنه "كان مرعبا حيث تعرضت المجتمعات للسحق ... كان الأكثر ضعفا هو الأكثر تضررا".

" يحكم النظام بقبضة من حديد ... تتصرف الميليشيات الخارجة عن القانون كأمرأء حرب"، قال تميم. "لا وجود للعدالة ... التفكير كان منصبا على مسألة واحدة ... البقاء على قيد الحياة".

"وسط الخوف والرعب الذي اجتاح كل جانب من جوانب الحياة"، أضاف ياسر، "كل شخص كان يفكر فيما إذا سيكون الهدف القادم".

في سياق مواز، برزت شخصية بطوط خاصة أثناء استخدام السلاح ضد الطلاب على عكس ميليشيات النظام. بينما استهدفت الميليشيات الفقراء والمهمشين، كان هجوم بطوط عشوائيا لكنه غير موجه لفئة معينة، بل استهدف الجميع: الطلاب والسلوك العسكري نفسه. بالرغم من عنفه، بدا أن بطوط ينتهج نوعا من العدالة التي لا تفرق بين الناس على أساس وضعهم الاجتماعي أو مكانتهم السياسية.

في المقابل، كانت ميليشيات النظام مدفوعة بالجشع والجبن حيث تستهدف الضعفاء فقط وتتجنب مواجهة الأقوياء مما يوضح الفرق الكبير بين بطوط وتلك الميليشيات التي كانت مجرد أدوات للقمع والاستغلال ... بلا أي شرف أو مبادئ. هذا يعني أن النظام الذي واجه المظاهرات على "الطريقة البطوطية" لم يحسن حتى تلك الطريقة ولم يرتق لمستوى بطوط في التعامل مع الأزمة.

لقد عمت تلك الأزمة كافة أرجاء البلاد وامتد هذا الانقسام والتشرذم ليعيد تشكيل خريطة سوريا بشكل جذري، فباتت البلاد مزيجا من مناطق متناحرة تخضع كل منها لقواعدها الخاصة مما جعل التنقل بين هذه المناطق صعبا وخطيرا ومكلفا للغاية ... وزاد من حالة الانقسام والصراع التي كانت تعصف بالبلاد.

في الجزء الشرقي من البلاد، أقامت الميليشيات الكردية سيطرتها على الأراضي التي تحكمها. في تلك المناطق، كانت حركة السوريين الآخرين، خصوصا غير الأكراد، مقيدة بشدة إذ وضعت تلك الميليشيات قيودا صارمة على التنقل مبنية على التمييز العنصري لأن الأكراد كانوا يتمتعون بحرية التنقل وتم منع الفئات الأخرى وفرضت أحيانا منعا تاما للدخول على السوريين أو وفق شروط معقدة.

في الوقت ذاته، ظل الجزء الغربي من سوريا تحت سيطرة النظام ... وعانى العديد من السوريين الذين فروا من البلاد أو غادروها بسبب الحرب، من صعوبات كبيرة في العودة إلى مناطق النظام، خصوصا أولئك المطلوبين للخدمة العسكرية الإلزامية أو الذين لديهم مواقف سياسية معارضة.

احتفظت الأجهزة الأمنية التابعة للنظام بقوائم دقيقة ومطولة للمطلوبين مما جعل التنقل داخل هذه المناطق محفوفًا بالمخاطر والخوف، خاصة لأولئك الذين يخالفون سياسات النظام أو يشتبه فيهم بمعارضة نظام الحكم. بهذا الشكل، ساهمت سياسات النظام في تقسيم السكان بشكل فعلي حيث قيدت حريات التنقل وزادت من عمق الانقسامات المجتمعية.

أما في شمال سوريا، فقد هيمن على المشهد مجموعات معارضة متعددة كل منها تتحكم في بلدات ومناطق مختلفة مما أضاف مدى آخر من التعقيد إلى الوضع الجغرافي والسياسي في البلاد. تحولت سوريا إلى فسيفساء من المناطق المتناحرة، مع قواعد وسياسات خاصة بكل مجموعة مهيمنة.

أصبح التنقل والسفر عبر هذه الأراضي المقسمة كابوسا حقيقيا للسوريين. ما كان يُعدّ في السابق رحلة مباشرة نسبيا، تحوّل إلى مغامرة معقدة تتطلب التنقل عبر شبكة متداخلة من نقاط التفتيش والمناطق الخطرة والطرق المتغيرة باستمرار تبعا لتغير خطوط السيطرة بين الميليشيات والفصائل المسلحة.

لم يكن طول الرحلة متأثرا فقط بزيادة المسافة لتجنب مناطق النزاع، بل بسبب عمليات التفتيش المكثفة التي كانت تستغرق وقتا طويلا، بالإضافة إلى التوقيفات المتكررة وخطر الهجمات المفاجئة التي قد تحدث على طول الطريق.

نتيجة لذلك، ارتفعت تكلفة النقل بشكل كبير حيث اضطر المسافرون لدفع مبالغ كبيرة للمهربين أو لدفع رشاوي للمسؤولين والميليشيات المختلفة مقابل المرور الآمن. بالنسبة لكثير من السوريين، كانت هذه النفقات عبئا ماليا ثقيلا زاد من معاناتهم الاقتصادية الناتجة عن الصراع المستمر. وفي الوقت نفسه، لم تكن سلامة المسافرين مضمونة بأي حال، إذ كانت حوادث المضايقات أو السرقة أو العنف شائعة مما جعل من رحلة التنقل تجربة مليئة بالمخاطر والتوتر المستمر.

كان لهذا التشرذم وانهيار الأمن أثرا عميقا على الحياة اليومية للسوريين ... تفككت الأسر نتيجة العجز عن التنقل بين المناطق وتعطلت التجارة وتآكل النسيج الاجتماعي الذي كان يوحد المجتمعات فيما قبل. لم يؤثر هذا الانقسام على النشاط الاقتصادي فقط، بل امتد ليشمل الوصول إلى الخدمات الأساسية مثل التعليم والرعاية الصحية التي أصبحت نادرة أو موزعة بشكل غير مناسب بين المناطق المختلفة مما زاد من معاناة السكان.

قُسمت البلاد إلى ثلاثة مناطق رئيسية: شرق تحت سيطرة الأكراد وغرب تحت سيطرة النظام وشمال يسيطر عليه معارضون مختلفون مما خلق عددا من الحواجز التي تحول دون التنقل الحر وزاد من تعميق الانقسامات وجعل معاناة الشعب السوري تمتد وتطول بلا آفاق واضحة.

في عام 2015، خاض يوسف رحلة طويلة وشاقة لزيارة والديه المسنين في مسقط رأسه، مدينة القورية. كانت هذه الرحلة واحدة من التجارب الصعبة التي مر بها، حيث امتدت لأكثر من 48 ساعة، وتطلبت استخدام وسائل نقل متعددة مثل الطائرات والحافلات والمركبات الخاصة مع التنقل عبر بلد ممزق ومقسم بين جماعات مسلحة مختلفة. كانت الرحلة في الظروف العادية تستغرق ثلاث ساعات فقط من الكويت إلى القورية، لكن الحرب والظروف الأمنية المعقدة حولت هذه الرحلة إلى مغامرة.

بدأت الرحلة من مطار الكويت الدولي، حيث استقل يوسف طائرة متجهة إلى إسطنبول في تركيا. كانت هذه المرحلة الأولى من الرحلة سهلة ودون أي عقبات، لكنها تمثل بداية لطريق أكثر تعقيدا.

عند وصوله إلى إسطنبول، التقى يوسف بمسافرين آخرين، جميعهم مغتربون سوريون، كانوا يريدون التوجه إلى مدنها وقراهم في محافظة دير الزور.

شملت المرحلة الثانية رحلة داخلية على متن الخطوط الجوية التركية من إسطنبول إلى مدينة غازي عنتاب الواقعة جنوب تركيا. من هناك، انتقل يوسف ورفاقه برا إلى مدينة كلس التركية، التي تقع قرب الحدود السورية، وتعتبر نقطة عبور رئيسية للسوريين العائدين خاصة في سنوات النزاع.

أمضى يوسف ورفاقه ليلة في كلس للراحة قبل استكمال المرحلة التالية من الرحلة عبر الحدود إلى سوريا. كانت الأجواء في كلس مزيجا من التوتر والترقب، فالمدينة نفسها كانت هادئة، لكن قربها من الحدود جعل الجميع يشعرون بهشاشة الوضع الذي يعكس واقع الحرب على بعد بضعة كيلومترات فقط.

كان عبور الحدود السورية هو الجزء الأكثر غموضا وخطورة في الرحلة. في عام 2015، كانت سوريا دولة مقسمة إلى مناطق سيطرة متعددة من قبل جماعات مسلحة متنافسة. كان الطريق الذي يجب أن يسلكه يوسف معقدا للغاية، ويستلزم تجنب مناطق النظام التي كانت محصنة بشدة وعادة ما تكون معادية لأي شخص يعود من الخارج ... كان النظام يعتبر كل العائدين عبر تركيا مشتبها بهم وخطرا عليه.

في الوقت ذاته، كان رواد الطريق يحاولون أيضا تفادي مناطق سيطرة الميليشيات الكردية التي كانت تفرض قيودا صارمة على دخول غير الأكراد، وربما تمنعهم كليا. لذلك، كان المسار يمتد

عبر الأراضي التي يسيطر عليها الجيش السوري الحر في البداية، ثم المناطق التي كانت تحت سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) وكل منهما يشرف على مناطق مختلفة من الطريق.

كان الطريق متعرجا كثيرا بصورة تعكس تعقيد وخط القوى التي تسيطر على الأراضي السورية آنذاك. ما كان يفترض أن يكون رحلة سهلة تحولت إلى مسار مليء بالتحويلات يمر عبر الصحاري والأراضي الزراعية والبلدات الصغيرة حيث تتغير السيطرة من منطقة إلى أخرى. خطر الكمائن والهجمات كان حاضرا بشكل دائم، ورغم ذلك كانت المناطق التي يسيطر عليها الجيش الحر وداعش أقل خطورة نسبيا، بل وُصفت بأنها مقبولة إن لم تكن آمنة تماما بالنسبة للمسافرين.

على طول الطريق، تم إيقاف حافلتهم عند عشرات نقاط التفتيش التي أقامها مقاتلو الجيش الحر وتنظيم الدولة. في بعض هذه النقاط، كان الحراس المسلحون يقومون بتفتيش المركبات وقراءة الأسماء والاستفسار عن الوجهات، مما أضاف المزيد من التوتر والقلق على المسافرين في تلك الرحلة.

في حين تسببت حواجز التفتيش في تأخيرات متعددة على الطريق، أشار يوسف إلى أن الجنود في نقاط التفتيش التي مر بها كانوا يتعاملون مع المدنيين بقدر كبير من الاحترام والكرامة. على عكس نقاط التفتيش التي يديرها النظام السوري، حيث كانت الرشوة والمضايقات أمرا شائعا، لم تتجاوز هذه الحواجز عمليات التحقق البسيطة من الهوية والأوراق الرسمية. رغم أن بعض

إجراءات التفتيش كانت تستغرق وقتا طويلا، إلا أن العملية بشكل عام كانت تسير بسلاسة نسبيا، حيث سمح للمسافرين بالمضي قدما دون تعرضهم لأي ابتزاز أو تهديد.

مع ذلك، ورغم مظهر الكياسة خلال الرحلة، كانت المنطقة التي يسيطر عليها تنظيم داعش تحكمها مجموعة من القواعد غير المتوقعة والمتناقضة في كثير من الأحيان. رغم أن يوسف والركاب الآخرين لم يتعرضوا لأي ضرر خلال مرورهم، إلا أن يوسف مني لاحقا بخسارة شخصية: فقد صادر تنظيم داعش منزله في مدينة القورية دون أي تهمة رسمية أو مبرر واضح. لم تكن هناك إجراءات قانونية أو أسباب معلنة واكتفى مقاتلو داعش بالادعاء بأن يوسف كان يقيم خارج البلاد لفترة طويلة، وبناء على ذلك فقدت ممتلكاته الحماية القانونية بموجب قواعدهم وتشريعاتهم التي لا يعلم أحد من أين جاؤوا بها.

الأمر الذي زاد المسألة سوءا هو أن المنزل نفسه تم تسليمه إلى مقاتل أجنبي، صيني، انضم إلى داعش. هذا الاستيلاء التعسفي على الممتلكات الخاصة كان مخالفا بشكل واضح لكافة المبادئ والتشريعات الإسلامية التي يدعي التنظيم تطبيقها. ففي الشريعة الإسلامية، يعتبر الحق في الملكية الخاصة حقا مقدسا، ويُمنع منعاً باتاً مصادرة ممتلكات أي شخص دون اتباع الإجراءات القانونية الواجبة أو تقديم دليل واضح للقيام بمثل تلك الممارسات.

رغم هذا التطور المؤلم، تمكن يوسف في نهاية المطاف من تحقيق الهدف الأساسي من رحلته، وهو لقاء والديه بعد أكثر من خمس سنوات من الغياب. مدينة القورية، رغم ما تعرضت له من

أضرار بسبب الحرب ما زالت تحتفظ ببعض من سحرها وألفتها القديمة مما منح يوسف شعورا غامرا بالراحة في تلك الأيام.

كان برد فبراير القارس ممتعا رغم قسوته التي زالت بألفة المجتمع ... لقد كانت كافية لتعويض برودة الجو. على مدار أسبوعين، قضى يوسف أياما جميلة وسار في شوارع المدينة المألوفة التي حملت ذكريات الطفولة. أعاد التواصل بأصدقائه القدامى والأقارب الذين لم ير أغلبهم منذ بداية الحرب.

بدا هذان الأسبوعان وكأنهما عودة إلى حياة أخرى، حياة هادئة قبل أن تجتاح الفوضى والدمار البلاد. ومع ذلك، ظل يوسف يدرك طوال فترة إقامته أن هذا السلام المؤقت سينتهي قريبا.

وبعد وداع والديه، شرع يوسف في رحلة العودة إلى الكويت، متبعا نفس الطريق المعقد والمرهق، مع نقاط التفنيش والتأخيرات والضغوط النفسية التي لم تتغير. مرة أخرى، كانت الرحلة طويلة، لكن بفضل من الله جل وعلا تمكن في النهاية من العودة بأمان.

بالعودة إلى الكويت، استمرت الحياة على وتيرتها ولم ينسَ يوسف أن العديد من أصدقائه ما زالوا يعيشون بعيدا ولم يتمكنوا من زيارة عائلاتهم وذويهم ... أو فقدوا كل شيء في الحرب. على الرغم من المعاناة، ظهرت قصص صمود وإنجاز بين الشتات السوري، من بينها قصة عبد الحميد الذي غادر سوريا قبل سنوات، وواصل طموحاته الأكاديمية في الخارج.

في عام 2016، حصل عبد الحميد على درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، وهو إنجاز مهم ليس فقط له شخصيا، بل لجميع زملائه والمجتمع السوري في الشتات. في وقت نُشوه فيه صورة

البلاد ويُساء فهمها، يمثل نجاح عبد الحميد علامة مضيئة تعبر عن العودة إلى المسار الصحيح والمساهمة الفكرية البناءة. كانت شهادته أكثر من مجرد نجاح شخصي، بل رمزا لإمكانات السوريين في تجاوز الصراعات والسعي نحو التميز عبر التعليم والمثابرة.

أظهر إنجاز عبد الحميد أن البُعد عن الوطن لا يمنع المرء من المساهمة الفعالة والهادفة في تراثه وعقيدته. بالنسبة ليوسف وغيرهم، كانت هذه النجاحات تمثل بصيص أمل وتذكيرا بقدرة السوريين على تحقيق المزيد من الإنجازات عندما تتاح لهم فرص العيش والتعلم في بيئة آمنة ومستقرة.

بحلول عام 2017، شهدت المنطقة الشرقية من سوريا واحدة من أحلك مراحل الحرب وأكثرها فوضوية. تعمق الصراع الذي كان معقدا أصلا، مع اندلاع معارك جديدة بين عدة أطراف تتنافس على السيطرة على الأراضي.

تذكر عبد الرحمن تلك الفترة بقلب مثقل بالأسى، قائلاً: "في عام 2017، ساءت الأمور كثيرا في المنطقة الشرقية من سوريا بسبب اندلاع الحرب بين العديد من الأطراف المتناحرة. لقد فاقمت تلك المعارك حجم الدمار السابق في المنطقة وضاعفت القلق الذي اجتاحت وادي الفرات لا سيما في دير الزور والبلدات والقرى المجاورة".

وصلت وتيرة الصراع إلى ذروتها عندما وجد تنظيم الدولة نفسه محاصرا بهجومين متزامنين عبر جبهتين قويتين. على الضفة اليمنى لنهر الفرات، شنت قوات النظام السوري بدعم كبير من

القوات الجوية الروسية والميليشيات الموالية لها هجوما شرسا لاستعادة السيطرة على مواقع داعش.

في الوقت نفسه على الضفة اليسرى، شن التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة وبالتنسيق مع الميليشيات الكردية حملة عسكرية قوية تهدف إلى طرد داعش من الأراضي التي كان يسيطر عليها.

هذا الضغط العسكري المتزامن من الجبهتين حوّل المنطقة إلى ساحة معركة شرسة حيث تحولت المدن والقرى والأراضي الزراعية إلى أهداف دائمة للقصف المدفعي والغارات الجوية والهجمات البرية. تحمل المدنيون العبء الأكبر من هذا العنف المستمر، كما هو الحال دائما في الحروب.

وصف تميم تلك الفترة بأنها من أكثر أوقات الحرب رعبا قائلا: "كانت واحدة من أسوأ المراحل في المنطقة... كان الناس محاصرين... لم يكن بالإمكان التنقل بسهولة بين المناطق بسبب القصف المستمر. كانت الحركة محفوفة بالمخاطر حتى لأولئك الذين حاولوا الفرار. لم يكن هناك مكان للأمن والسلامة... أينما كانت الوجهة".

أكد ياسر على وحشية النظام وحلفائه بقوله: "أسوأ القصف كان من قبل النظام السوري وروسيا وميليشياتهم المسلحة. لم يكن لديهم أي اعتبار للمدنيين، كانوا يقصفون كل شيء بلا تمييز... منازل، مدارس، أسواق، ومستشفيات، كل منطقة كانت هدفا، بغض النظر عما إذا كانت مأهولة بالمدنيين أو المسلحين".

تسببت حملات القصف العشوائية بدمار واسع ... تحولت المنازل والمدارس والأسواق والمستشفيات إلى أكوام من الأنقاض لا حياة فيها. إلى جانب الغارات الجوية والقصف المدفعي، لم تتردد طائرات الهليكوبتر التابعة للنظام بإلقاء البراميل المتفجرة على المناطق المكتظة بالسكان مما زاد من حجم الدمار وعمق المأساة ونشر الموت التي كانت رائحته تملأ تلك المناطق المنكوبة.

وصف سعود المشهد بتفاصيل مروعة قائلا: "أمطرت البراميل المتفجرة والصواريخ على المناطق ... قتلت عددا كبيرا من المدنيين خلال هذه الفترة. كانت فوضى ... تم القضاء على عائلات بأكملها. أصبحت الشوارع التي امتلأت بالحياة في يوم من الأيام أنقاضا ... لا يسكنها إلا الأشباح".

"في مواجهة هذه الظروف التي لا تطاق"، أضاف سعود، "حاول الناس الفرار ... انتشر الذعر بسرعة وكان تهديد الموت يلوح في الأفق ... من السماء ومن الأرض. هرع الناس بسرعة بحثا عن الأمان، محاولين مغادرة تلك المناطق والانتقال إلى مناطق أكثر أمنا".

"هذه الهجرات الجماعية الضخمة كانت أحد أكثر جوانب الحرب مأساوية"، قال تميم. "أدى ذلك إلى اندلاع هجرة داخلية داخل البلاد، اضطرت فيها آلاف العائلات إلى مغادرة منازلها وبلداتها للانتقال إلى مناطق آمنة نسبيا خاصة في الشمال. أصبح الجزء الشمالي من سوريا ملجأ لعدد لا يحصى من العائلات".

انتشرت الخيام والملاجئ المؤقتة في الحقول والمناطق المفتوحة، وواجهت البنية التحتية المحلية صعوبات كبيرة في تحمل أعباء هذا العدد الكبير من النازحين. كان هناك نقص حاد في الغذاء

والماء والمساعدات الطبية والاحتياجات الأساسية الأخرى، ومع ذلك استمر الناس في التوافد، لأن أي خيار آخر كان أسوأ ... الموت والدمار الذي تركوه خلفهم.

خلال هذا النزوح الجماعي، توفي الكثيرون أثناء محاولتهم الفرار وهم على الطرقات أحيانا، ولم يكن القصف وحده هو التهديد، بل الجوع والعطش والإرهاق ... كانوا أيضا أعداء قاتلين.

وصف عبد الرحمن تلك الظروف الصعبة بقوله: "كان من الصعب جدا على الناس العثور على مأوى لأن كل شيء كان صعبا في تلك الأوقات، حتى التنقل كان معقدا للغاية. ارتفعت تكاليف النقل بشكل كبير بسبب المخاطر وكانت الكثير من العائلات فقيرة جدا ولا تستطيع تحمل نفقات الرحلة ... لكن لم يكن لديهم خيار على الحقيقة ... فالبقاء كان يعني تعريض حياتهم للفناء".

كانت الرحلات التي عادة ما تستغرق ساعات تمتد إلى أيام طويلة حيث تحركت قوافل من العائلات اليانسة عبر مسارات خطيرة وتضاريس وعرة، محاولين تجنب خطوط النار الأمامية والألغام الأرضية. حملت النساء الأطفال على ظهورهن وكان الرجال المسنين يسيرون بصعوبة بينما كان المرضى ينتظرون مساعدة الآخرين لنقلهم بعيدا عن مناطق الخطر.

روى يوسف تجربة عائلته في تلك الفترة المأساوية قائلا: "كان الوضع كارثيا بكل ما تحمله الكلمة من معنى. غادر والدي وعائلات إخوتي المدينة متجهين نحو الشمال في رحلة استغرقت عدة أيام. كانت رحلة مؤلمة وصعبة للغاية، وقد مرت الكثير من العائلات الأخرى بنفس الظروف أو أسوأ بكثير".

أضاف يوسف "مثل آلاف العائلات الأخرى، عبروا أراض وعرة ... مروراً ببلدات مدمرة ونقاط تفتيش خاصة من قبل الميليشيات الكردية التي سمحت للناس بالعبور خلال تلك المرحلة فقط ... ورغم التعب والإرهاق الشديد، دفعهم تصميمهم على النجاة إلى الاستمرار حتى وصلوا في النهاية إلى منطقة أكثر أمناً ... إلا أن الصدمة النفسية التي عاشوها في تلك الفترة لم تفارقهم أبداً وظلت حية في ذاكرتهم كجزء لا يُمحى من معاناتهم".

في خضم هذه الفوضى والدمار، قرر باسل ونادر أن الوقت قد حان للمغادرة أيضاً. أغلقا متجر البقالة الخاص بهما للمرة الأخيرة وكل منهما لا يعلم إن كان سيعود يوماً أم لا. لم يكن رحيلهما مجرد فقدان لمصدر رزق أو عمل، بل كان نهاية حقبة مهمة في حياتهم في مجتمعهم الصغير. انضم الاثنان إلى الحشود الكبيرة التي كانت تتجه شمالاً في رحلة لم تكن سهلة أو مضمونة النتائج. ظل باسل ونادر، مثل غالبية سكان مدينتهم، نازحين لسنوات طويلة. استقروا في الشمال حيث سمحت لهم السلامة النسبية بأن يعيشوا حياة مؤقتة تحمل بريقاً من الأمل والهدوء مقارنة بما تركوه خلفهم. كثير من العائلات التي فرّت في تلك المرحلة لم تعد إلى ديارها حتى سقوط النظام وبعضها لم يعد أبداً إذ دُمّرت منازلهم بالكامل وفقدوا كل ما كانوا يمتلكونه.

وفي عام 2017، خاض إبراهيم رحلة محفوفة بالمخاطر، للابتعاد عن الدمار والدماء التي اجتاحت المنطقة التي كان يقيم فيها، متجهاً إلى ألمانيا باحثاً عن الأمان له ولعائلته. ترك إبراهيم خلفه منزله الذي نشأ فيه ... تعرض للمخاطر في سبيل النجاة، لكنه كان يحلم بحياة جديدة خالية

من العنف والفوضى التي حولت حياته اليومية إلى كابوس. لم تكن رحلته مجرد انتقال من مكان إلى آخر، بل كانت قفزة نحو أمل متجدد بالمستقبل والسلامة.

وفي هذه الأثناء، أتم مظفر دراسته في تخصص طب الأنف والأذن والحنجرة في جامعة دمشق، حيث طور مهارات عالية في تشخيص وعلاج أمراض متعلقة بهذه الأعضاء. بعد التخرج، توجه إلى اليمن ليعمل في عدد من المستشفيات، مثل المستشفى الملكي في صنعاء حيث اكتسب خبرات عملية قيّمة في بيئة مليئة بالتحديات مما مكنه من صقل مهاراته والمساهمة بشكل ملموس في رعاية المرضى.

أما يوسف، فقد واجه حزنا عميقا في الخامس من فبراير 2018 حين فقد والده الذي وافته المنية بعيدا عن منزله ومدينته. توفي، رحمه الله جل وعلا وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، في مدينة الدانا في محافظة إدلب وجاءت وفاته بعد رحلة شاقة وطويلة من المعاناة المرتبطة بالنزوح والصعوبات الصحية وفقدان الرعاية الطبية المناسبة في بلد مزقته الحرب. كان والده يبلغ من العمر 76 عاما، وعانى في الشهور الأخيرة من النزوح المتكرر والظروف القاسية.

كانت الظروف التي أدت إلى وفاة والد يوسف مأساوية، لكنها تمثل جزءا من المعاناة الواسعة التي تحملها ملايين السوريين. تدهور الوضع الأمني في أوائل 2018 إلى حد كبير، حيث انقسمت البلاد بين جماعات مسلحة مختلفة، وتكررت الاشتباكات العنيفة بشكل يومي. لم يكن هناك ممر آمن بين المناطق المختلفة، مما جعل السفر من وإلى سوريا مهمة شبه مستحيلة. المحاصرون

داخل البلاد، خصوصاً في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة مثل إدلب، وجدوا أنفسهم معزولين تماماً عن العالم الخارجي.

كانت المعابر الحدودية مغلقة أو تقتصر على حركة عبور محدودة بشروط صارمة، مما جمّد حركة السفر بشكل شبه كامل. سواء كان السبب هو الحاجة إلى تلقي العلاج الطبي أو لمّ الشمل أو مجرد الهروب من العنف ... كان الواقع قاسياً: لم يكن هناك طريق للخروج. شعر الناس وكأنهم مسجونون في وطنهم داخل سجن مفتوح لا يمكنهم التحكم فيه بحركتهم أو سلامتهم أو حتى مستقبلهم.

تعقدت الأمور أكثر بفعل الأزمة الاقتصادية والمالية والسياسية التي اجتاحت البلاد. أصبحت الحياة اليومية معركة للبقاء حيث كانت الضروريات الأساسية مثل الخبز والمياه النظيفة والوقود نادرة أو مكلفة للغاية.

دُمرت المرافق الطبية والتي لم تدمّر كانت تعاني من نقص حاد في المعدات والكوادر الطبية. كانت الصيدليات فارغة والمستشفيات التي لم تُستهدف بالغارات كانت تعاني من ضغط كبير ونقص في الموارد. بالنسبة لكبار السن مثل والد يوسف الذين كانوا بحاجة لرعاية طبية عاجلة كانت هذه الظروف تمثل خطراً حقيقياً على حياتهم.

في تلك الظروف الصعبة، عاش والد يوسف أيامه الأخيرة محاطاً ببيئة غير مستقرة ... بعيداً أو معزولاً عن أي مرافق صحية مناسبة ... واجه تحديات جسيمة لا ينبغي أن يتحملها أي شخص

في مثل عمره ... لم تكن وفاته نتيجة طبيعية للشيخوخة، بل كانت نتيجة مباشرة لنظام صحي
انهار تحت وطأة العنف والإهمال والدمار.

الفصل الثالث عشر

سقوط النظام الخاطف

2024 – 2021

منذ اندلاع الثورة السورية عام 2011، واجه يوسف ودائرتة الصغيرة من الأصدقاء تحديات متزايدة في الحفاظ على التواصل فيما بينهم، خصوصا مع أولئك الذين ظلوا داخل البلاد. اشتداد الصراع وتدهور شبكات الاتصال جعلنا من أبسط أشكال التواصل كالمكالمات الهاتفية أو المراسلات عبر الإنترنت أمورا صعبة في كثير من الأحيان. ومع مرور الوقت، أصبحت المسافات الجغرافية تتسع ليس فقط بفعل الحدود، بل أيضا بسبب واقع الحرب الذي فرض عزلة قسرية على الجميع.

تمكّن بعض الأصدقاء من مغادرة سوريا واللجوء إلى بلدان مختلفة أملا في العثور على الأمن والاستقرار لكن حتى بعد الخروج لم يكن التواصل المنتظم سهلا. فالحياة في الخارج جلبت معها أعباء جديدة: محاولات التكيف مع مجتمعات أخرى والصعوبات القانونية والمعيشية، إضافة إلى الصدمات النفسية التي خلفتها سنوات الحرب. ومع مرور الوقت، خلقت هذه التحديات أبعاد نفسية جديدة أثرت على العلاقات القديمة قليلا رغم الحنين المشترك للماضي.

أما أولئك الذين استقروا في الكويت فكان وضعهم أفضل نسبيا. وجودهم في بلد واحد أتاح لهم فرصة اللقاء من حين لآخر واستعادة بعضا من دفء العلاقات القديمة. خلال أحد هذه اللقاءات القليلة، جلس يوسف وأصدقاؤه يتبادلون أطراف الحديث حول طبيعة النظام السوري، متسائلين كيف تمكن من الصمود كل هذه السنوات رغم الثورة العارمة والحرب التي أعقبتها.

قال يوسف وهو ينظر إلى البعيد: "النظام السوري كان دائما غامضا ... كأن الغموض جزءا من هويته ... لا شيء فيه كان واضحا، لا سياساته ولا نواياه ولا حتى تحالفاته. كل شيء كان تحوطه السرية والغموض، وكأن السرية بحد ذاتها هي الطريقة التي يحكم بها".

هز أحمد العطية رأسه موافقا وأضاف: "بالضبط، لم يكن النظام يعمل وحده أبدا. كانت لديه شبكة من الحلفاء تحميه دبلوماسيا وعسكريا. على مر السنين، نسج علاقات مع أطراف متعددة: أنظمة سياسية، وشبكات إجرامية، وتجار سلاح ومخدرات ... حتى جماعات من المرتزقة ... هذه لم تكن تحالفات مؤقتة، بل كانت ركائز بنى عليها استمراريته".

تابع ياسر قائلا: "هذا بالضبط ما جعله يصمد كل هذا الوقت. تنويع التحالفات حتى مع أكثر الأطراف فسادا ... منحه هامشا من المناورة. كلما انسحب طرف كان هناك طرفا آخر مستعد لتقديم الدعم. إنها براغماتية قاسية لكنها فعالة".

أضاف ياسر بنبرة أكثر جدية: "الكثير من الدول دعمت النظام علنا رغم معرفتها بجرائمه وانتهاكاته بينما فضلت أخرى العمل في الخفاء ... تجاهلوا التعذيب والتجويع واستخدام الأسلحة الكيميائية ... كأن حياة السوريين لا تعني لهم شيئا".

"بعض الدول تظاهرت بالدفاع عن حقوق الإنسان"، قال أحمد العطية بمرارة. "لكنها كانت تتعامل مع النظام بشكل غير مباشر ... ربما كان دعمها غير معلن لكنه كان مؤثرا بنفس القدر".

عندها تدخل سعود، الذي ظل صامتا معظم الوقت، قال بنبرة غاضبة: "هؤلاء هم الأسوأ في رأيي ... المنافقون. يرفعون شعارات الحرية والعدالة لكنهم في الواقع متواطئون. يخفون دعمهم خوفا من الرأي العام بينما يدعمون النظام ويساهمون في استمراره بكل ما يملكون من نفوذ".

أوماً أحمد برأسه وقال: "هذه الشبكة الواسعة من الدعم بتعقيدها وتعدد مستوياتها ... هي ما أبقي النظام لعقود رغم كل ما خسره".

على مدى سنوات الحرب، فقد النظام السيطرة على مساحات شاسعة من البلاد ومع ذلك ظل متمسكا في مركز دمشق وبعض المواقع الاستراتيجية في مدن أخرى. كانت العاصمة بالنسبة له أكثر من مجرد مركز سياسي؛ كانت رمز الشرعية وبوابة البقاء. طالما بقيت دمشق تحت قبضته ... كان النظام يستطيع الادعاء أنه لا يزال يمثل الدولة السورية.

"النظام لم يهتم ببقية البلاد"، قال يوسف. "ترك مدنا بأكملها تحترق أو تسقط طالما أن العاصمة في قبضته ... كان يشعر بالأمان. بالنسبة له، دمشق كانت كل شيء وما تبقى فهو مجرد تفاصيل".

بهذا المنطق الأعوج، استطاع النظام أن يُظهر نفسه بمظهر القوة رغم الخسائر الفادحة ... قد قدم نفسه على أنه آخر ما تبقى لحماية البلاد من فوضى عارمة ... مما جعله يبدو لبعض المراقبين الدوليين وكأنه الخيار الأقل سوءا.

لكن خلف هذه الواجهة، كان الخوف ينهشه من الداخل. منذ اندلاع الربيع العربي، عاش قادة النظام في دوامة من الشك والارتياب. كانوا يدركون هشاشة موقفهم ويعلمون أن الغضب الشعبي مبرر وأن الخيانة يمكن أن تأتي من أي زاوية أو مكان ... حتى من أقرب المقربين لهم.

قال أحمد وهو يتأمل حديث الأصدقاء بصوت منخفض لكنه حاد في معناه: "الخوف من الانهيار لم يفارقهم يوما ... كان يسكنهم كظل دائم. عاشوا في حالة رعب مستمرة، يخشون اليوم الذي ينهار فيه كل شيء فوق رؤوسهم. كانوا خائفين مثل المدنيين الذين قمعوهم وربما أكثر ... كانوا يدركون أن سقوط النظام لن يعني مجرد خسارة للسلطة، بل نهاية لا مفر منها. كانوا يعلمون أنه لا ملاذ ولا مغفرة لأن دماء كثيرة سفكت على أيديهم".

ومع مرور الوقت، ازداد الوضع داخل النظام سوءا بسبب انعدام الثقة بين كبار المسؤولين. كان كل واحد منهم غارقا في مستنقع الجرائم والفساد ... تعذيب وقتل واختلاس وتهريب مخدرات وتجارة غير مشروعة. كانوا جميعا شركاء في الجريمة، لكن هذا التواطؤ لم يوحدهم كما كان متوقعا، بل جعلهم أكثر خوفا من بعضهم البعض. كل مسؤول يعرف ما فعله الآخر وكل واحد يحمل معه أسراراً يمكن أن تطيح بالآخرين إذا كُشفت.

"لذلك الأسباب كان هناك توازن غريب داخل النظام"، قال يوسف. "توازن مبني على خوف المتبادل. من ناحية، كانوا مضطرين لحماية بعضهم البعض لأن سقوط واحد منهم قد يعني انهيار السلسلة بأكملها. لكن في الوقت نفسه، كانوا يكرهون بعضهم البعض بشدة، لأن كل واحد منهم يعرف فساد الآخر ... لم يكن هناك ولاء حقيقي ... فقط مزيج من الرعب والانتهازية".

ذلك التوازن الهش – كما وصفه يوسف – كان في الحقيقة أحد العوامل التي أضعفت النظام من الداخل. فعلى الرغم من الصورة الموحدة التي حاول إظهارها للعالم، كانت الشكوك والعداوات تمزق صفوفه العليا بصمت. كانت الخيانات الصغيرة والمناورات السرية والصراعات الداخلية جزءا معتادا من حياة القادة ومن تلك المشاهد تصفية بعضهم بعضا خلال الأزمة... وبمرور السنوات، بدأ النظام الذي صور نفسه على أنه قادر على تجاوز كل أزمة، يتآكل من الداخل كخشب قديم تأكله السوس.

ومع اقتراب نهايته، بدأت ملامح اليأس تظهر بوضوح ... حتى الدعم المستمر من الحلفاء الخارجيين لم يعد كافيا لتهدئة مخاوفهم. كان مسؤولو النظام يشعرون أن الأرض تهتز تحتهم ببطء. العالم لم يعد مهتما كما كان، وشبكة التحالفات التي اعتمدوا عليها لسنوات بدأت تتفكك. بينما في الداخل، ظلت جيوب المقاومة الصغيرة تظهر في أماكن لم يتوقعوها، كأن البلاد ترفض أن تستسلم لهم تماما.

بحلول عام 2024، وصلت التصدعات في هيكل النظام إلى مرحلة اللاعودة. وفي ديسمبر من العام نفسه، جاء الانهيار أخيرا، ليس على شكل معركة كبرى أو مواجهة – إما يموت المرء فيه عزيزا أو يحيا عزيزا – جاءت نهايته كتحلل بطيء لبنية مهترئة فقدت تماسكها ... أو كعضو أصابه مرض فأسقطه عن ذاك الجسد ... سقط النظام كما يسقط بيت من ورق ... كان يحيا على الوهم والخطرة ... وكذلك سقوطه بدا كوهم.

تابع يوسف الأخبار مع أصدقائه في تلك الليلة ... كانت المشاعر متناقضة. لم يشعروا بالنصر ولا بالفرح، بل بمزيج غريب من الراحة والحزن العميق ... لقد انتهى الكابوس، لكن بأي ثمن؟ كان الثمن باهظا للغاية ... ملايين الأرواح أزهقت ومدن بأكملها مسحت من الوجود وجيل كامل عاش مشتتا بلا وطن ولا أمل ... آلاف الأسماء لم يكن لها أثر في صحائف النظام ولا أثر في القبور.

ومع ذلك، بدا سقوط النظام السوري حدثا لا يشبه أي سقوط آخر في التاريخ الحديث. حتى نهايته حملت طابعا عجيبا ... كما لو أنه كان ينهار خارج إطار المنطق والزمن ... منذ ظهوره إلى لحظة أفوله، كان كيانا غريبا في كل شيء: في طريقة حكمه، في تحالفاته، وفي قدرته المستمرة على النجاة لعقود وفي قدرته الفائقة على خذلان غيره في سبيل النجاة بنفسه.

جنوره تعود إلى انقلاب عسكري قديم ... أسس لعقود من الحكم الاستبدادي الذي تغذى على الخوف والولاءات القسرية. على مدى تلك العقود، بنى النظام سلطته من خلال التناقضات: استغلال القضايا الوطنية، اللعب على وتر القومية، والتظاهر بالدفاع عن الثوابت، بينما كان الهدف الحقيقي هو البقاء في السلطة بأي ثمن.

لم يكن بقاءه الطويل نتيجة قوة حقيقية أو شرعية شعبية، بل بسبب قدرته الفائقة على التلاعب بالانقسامات داخل المجتمع واستغلال المخاوف الداخلية لتبرير قبضته الحديدية. رفع شعارات المقاومة والوحدة الوطنية وتحدث باسم الدولة والكرامة لكنه في الواقع كان يختطف هذه القيم ليغطي بها وجهه الحقيقي.

قال يوسف بصوت هادئ: "كان النظام يتحدث دائما عن بناء جيش قوي للدفاع عن الوطن، لكن الحقيقة أنه كان يبني جيشا لحماية نفسه فقط".

"كل ما ضُخ من أموال وثروات في الجيش وأجهزة الأمن لم يكن لحماية السوريين، بل للسيطرة عليهم"، قال عبد الرحمن. "لإبقاء الجميع تحت المراقبة والخوف".

بينما ساد الصمت للحظات، أدركوا أن ما انتهى في تلك السنة لم يكن مجرد نظام سياسي، بل مرحلة كاملة من تاريخ سوريا ... مرحلة تركت البلاد تنن من جروح عميقة ستحتاج أجيالا لتتعافى منها.

قال تميم بنبرة حازمة: "لم يكن الجيش في أي مرحلة أداة للدفاع عن الوطن كما زعم النظام طوال تلك العقود. منذ اللحظة الأولى، أعيد تشكيله ليكون أداة للسيطرة الداخلية لا للحماية من الأخطار الخارجية. لم يُوجه سلاحه يوما إلى الأعداء على الحدود، بل صوبه دائما إلى صدور أبناء الوطن أنفسهم. عندما انطلقت شرارة الثورة عام 2011، استخدم النظام جيشه ضد المدن والبلدات السورية. لم يتردد في قصف الأحياء السكنية وإطلاق النار على المتظاهرين السلميين وسحق المجتمعات الفقيرة تحت جنازير الدبابات ... كأن العدو الحقيقي هو الشعب نفسه".

أضاف ياسر بعد لحظة صمت قصيرة، "ولا يمكننا أن نغفل عن الدور الذي لعبته أجهزة المخابرات. لقد كانت العمود الفقري لذلك النظام القمعي. قد يظن البعض أن مهمتها كانت حماية الأمن العام أو الحفاظ على الاستقرار ... في الحقيقة كانت مؤسسات بُنيت على الخوف وتغذت

عليه وعملت على نشره في كل زاوية من البلاد. لم تكن مهمتهم حماية الناس، بل إسكاتهم ومراقبتهم وخنق أي بادرة احتجاج تتاح لها الفرصة".

"عشرات الآلاف اختفوا داخل سجون النظام المظلمة"، قال أحمد التراك. "أصبح الاعتقال العشوائي جزءا من الحياة اليومية. كان الناس يُؤخذون من بيوتهم ... وكثير منهم لم يعودوا أبدا. التعذيب لم يكن حالة استثنائية، بل كان ممارسة ممنهجة ومدرسة وتشرف عليها مؤسسات الدولة نفسها. كانت فروع المخابرات تعمل كالشرطة السرية، هدفها الأساسي ليس إنفاذ القانون، ولكن القضاء على الأمل وعلى أي فكرة يمكن أن تُشعل في الناس رغبة في التغيير".

"حين اندلعت الثورة، كان النظام مستعدا تماما"، قال ياسر. "كل الأجهزة الأمنية والعسكرية كانت مهيأة لمواجهة الناس، لا لمواجهة خطر خارجي. ما واجهته المظاهرات السلمية في أيامها الأولى من اعتقالات وتعذيب لم يكن عشوائيا، بل جزءا من خطة مدرّسة لزرع الخوف وإجبار الناس على الصمت. لم يكن الهدف تحقيق استقرار ... إنما خلق سكون مرعب ... ذلك النوع من الصمت الذي لا يأتي إلا بعد الاختناق".

"قضى النظام عقودا وهو يهيئ نفسه لهذا النوع من الحكم"، قال تميم. "كل قانون وكل مؤسسة وكل جهاز إداري صُمم ليقدم هدفا واحدا: بقاء النظام في السلطة. لم تكن هناك شرعية ... فقط منظومة من التهيب والإكراه والتلاعب الطائفي".

"لكن الخوف لا يدوم إلى الأبد"، أضاف ياسر. "قد تنجح القوة في إسكات الناس لبعض الوقت، لكنها لا تستطيع إطفاء رغبتهم في الحرية ... التاريخ مليء بالأمثلة على إمبراطوريات وأنظمة ظنت نفسها خالدة، ثم انهارت في لحظات".

"لا طغيان يبقى إلى الأبد"، قال أحمد. "ولا يمكن دفن الحقيقة إلى الأبد ... ما لم يدركه النظام هو أن إرادة الناس مهما خُنقت ستجد طريقها للتجدد والعودة دائما".

"عندما سقط النظام أخيرا، كانت المفارقة أنه سقط بطريقة صادمة وحتمية في آن واحد"، قال عبد الرحمن. "بعد كل تلك العقود التي أمضاها في تحصين دمشق، وتكريس الموارد لبناء ما ظنه قلعة وقوة لا تُقهر ... انهيار كل شيء فجأة ودون معركة، دون مقاومة. ما أدهشني هو أنه حين جاءت اللحظة الحاسمة، لم يقاتل أحد من أجله ... هرب القادة وتخلت الوحدات العسكرية عن مواقعها وحررت العاصمة في صمت غريب ... كما لو أن النظام اختفى ... أو تبخر".

"ذلك السقوط الخاطف كشف هشاشة النظام أكثر من أي شيء آخر"، أكد تميم. "لسنوات طويلة ادعى أنه قوة لا تُهزم، لكنه كان في الحقيقة مبنيا على شبكة من الاعتماد الخارجي والدعم الأجنبي. وبمجرد أن بدأ حلفاؤه في التراجع، أو حين لم يعودوا قادرين على الاستمرار في دعمه، بدأ الهيكل كله ينهار من تلقاء نفسه".

أضاف ياسر بأنه "لم تكن قوة النظام يوما نابعة من تماسك داخلي أو دعم شعبي حقيقي، بل من علاقات سياسية ومصالح اقتصادية مع قوى خارجية. كانت تحالفات مؤقتة ... وصفقاته مبنية

على المصلحة المؤقتة ... وتمويلات مشبوهة أبقتة على قدميه ... لا أكثر. وعندما جف هذا الدعم، كُشِف ولم يبق له أي غطاء".

فكّر عبد الرحمن قليلا ثم قال: "لقد كشفت تلك اللحظة مدى الانقسام الذي كان يعيشه النظام ... وأنه كان مفصولا عن الواقع ... لم يكن هناك ولاء حقيقي للنظام ... حتى من اتباعه ... فقط خوف طويل الأمد. كانوا يحكمون من خلال القمع والمراقبة وليس عبر أي شرعية أو تمثيل. لذلك، حين انهار لم يدافع عنه أحد ولم يحزن عليه أحد ... إلا قلة قليلة ممن كانوا يحبون انتشار الفساد".

أشار تميم إلى أن "الشعب السوري عاش لعقود تحت عين المراقبة والقمع وسوء المعاملة. كانت الحياة اليومية سلسلة من الخوف، من الصمت القسري، من الشعور بالعجز. ورغم ذلك، عندما سقط النظام، لم تكن تلك لحظة انتقام أو فوضى كما توقع البعض، بل كانت لحظة ارتياح عميق ... في كثير من المدن، خرج الناس إلى الشوارع ليس للتأر، بل للاحتفال بنهاية كابوس".

أطرق ياسر قليلا ثم قال: "أتذكر المشاهد الأولى بعد السقوط. الناس في الشوارع يرفعون الأعلام ويغنون، لكن بوجوه يغمرها الحذر. كانوا فرحين، نعم، لكنهم ما زالوا لا يصدقون أن الخوف انتهى فعلا. لأول مرة منذ أجيال، شعر السوريون أن المستقبل يمكن أن يكون مختلفا، أن الوطن يمكن أن يُعاد بناؤه على قيم جديدة ... بلا طغيان ولا خوف".

أضاف أحمد بصوت متأمل: "ما حدث لم يكن مجرد سقوط نظام، بل بداية جديدة. كانت تلك اللحظة تذكيرا بأن الاستبداد مهما طال لا بد أن ينهار في النهاية. ومع انهياره، تظهر الفرصة لبناء وطن مختلف أكثر عدلا وإنسانية".

"لقد كانت بداية جديدة"، قال عبد الرحمن. "... هشة، ولكنها مليئة بالأمل ... وهذا يعني أن أكثر الطغاة قوة يمكن أن يسقطوا، ومع السقوط تأتي الفرصة لإعادة بناء شيء أفضل".

رغم الخراب الكبير الذي خلفته الحرب، كان اللافت في الأيام الأولى بعد السقوط أن معظم السوريين لم ينزلقوا إلى الفوضى كما كانت تتنبأ دعايات النظام. لم يندفع الناس إلى نهب المؤسسات أو تخريب المرافق العامة. بالعكس، في العديد من المدن، نظمت المجتمعات المحلية نفسها لحماية المرافق الحكومية وغيرها. تصرف الناس بعقلانية وكرامة وكأنهم يريدون أن يثبتوا للعالم أنهم لم يكونوا كما صورهم النظام يوماً.

كانت تلك الروح الجماعية، ذلك الوعي الجديد، دليلاً على نضج شعب أنهكه القمع ... لكنه لم يفقد إنسانيته. في النهاية، لم يكن سقوط النظام مجرد نهاية لعهد ظالم، بل إعلان بداية عصر جديد ... يتمنون أن يكون أكثر إشراقاً وأكثر أملاً.

ومن المفارقات المؤلمة ... أولئك الذين هرعوا لحماية النظام العام بعد سقوط السلطة وإعادة شيء من النظام إلى شوارع المدن كانوا في الغالب نفس الأشخاص الذين شيطنهم النظام لسنوات طويلة. هؤلاء الذين وصفهم إعلامه الرسمي بالخونة والإرهابيين والعملاء واتهمهم بأنهم يشكلون تهديداً لبنية المجتمع، هم أنفسهم الذين وقفوا في الخطوط الأمامية لحماية الناس والممتلكات عندما انهارت مؤسسات الدولة.

كان النظام قد صورهم مرارا كأعضاء مريضة في الجسد الوطني ... يجب "استئصالها" حفاظا على ما سماه "الصحة الوطنية"، وقارن قمعه الوحشي لهم بعمليات جراحية ضرورية ... متجاهلا الحقيقة وهي أن المرض الحقيقي كان هو النظام نفسه.

لقد كشف الواقع بعد الانهيار زيف تلك الرواية تماما ... هؤلاء الذين وُصفوا بالأعداء كانوا في الحقيقة عماد المجتمع، واليد التي امتدت لتمنع الانهيار الكامل ... كانوا مواطنين عاديين وأطباء ومعلمين ومهندسين ونشطاء مدنيين، جمعهم إيمان بسيط بكرامة الإنسان وحقه في الحرية. تصرفاتهم بعد سقوط النظام نسفت عقودا من الدعاية الرسمية المزيفة، وأثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن الشعب لم يكن يوما هو المشكلة، بل كان الضحية. أما النظام، فقد كان المرض الذي نخر جسد البلاد لعقود.

وربما كان أكثر ما أثار الألم بعد الانهيار هو انكشاف الأسرار التي ظلت مدفونة لعشرات السنين ... مع انسحاب أجهزة الأمن وتخليها عن مقراتها، دخل الناس إلى المباني التي طالما أرعبتهم هناك، في أقبية المخابرات والسجون السرية، ظهرت فصول الرعب التي عاشتها البلاد خلف الأبواب المغلقة. عُثر على مقابر جماعية تضم آلاف الجثث، بعضها لأشخاص كانت عائلاتهم تبحث عنهم منذ سنوات. وُثقت غرف التعذيب ... الجدران المطلخة بالدماء والملفات التي كشفت تفاصيل دقيقة عن حملات الاعتقال والتصفية التي كانت تدار باسم "الأمن الوطني".

كان الألم لا يوصف، لكنه في الوقت نفسه كان ضروريا ... بعد عقود من الصمت والإنكار، خرجت الحقيقة أخيرا إلى النور. واجه السوريون ماضيهم المظلم بعيون مفتوحة، وبدأوا الخطوة

الأصعب: محاولة التوفيق بين الذاكرة والجراح وبناء مستقبل مختلف. فتح سقوط النظام الباب ليس فقط للتغيير السياسي، بل أيضا لعملية تعافٍ وطني طويلة ومؤلمة.

ومع ذلك، لم يكن الطريق أمامهم ممهدا ... مجرد سقوط الديكتاتورية لا يعني ولادة ديمقراطية مستقرة. ما حدث كان نهاية كابوس، لا بداية حلم مكتمل. ومع ذلك، شعر الكثيرون أن تلك اللحظة تمثل فرصة تاريخية نادرة، لحظة يمكن فيها للشعب أن يعيد كتابة تاريخه بيده، وأن يتنفس لأول مرة منذ أجيال دون خوف من العيون التي كانت تراقبه في كل مكان.

لكن الثمن الذي تركه النظام خلفه كان هائلا ... لم يكن الأمر مجرد نهاية مرحلة سياسية، بل انكشاف كامل لدولة محطمة ... ترك وراءه بلدا مثقلا بالديون، غارقا في الفساد، وممزقا بانقسامات طائفية واجتماعية عميقة.

لم تكن تلك الانقسامات عرضية أو وليدة الحرب، بل أدوات متعمدة استخدمها النظام لترسيخ سلطته. غدّى التفرقة بين الطوائف، واستغل الانتماءات الدينية والمناطقية ليحول المجتمع إلى فسيفساء من الشك والخوف المتبادل، مما جعله أكثر قدرة على التحكم بالجميع.

خلال عقود حكمه الطويلة، لم يعبأ النظام يوما بمصالح الشعب أو بمستقبل البلاد. كان تركيزه منصبا بالكامل على هدف واحد: البقاء في السلطة مهما كان الثمن. كل من تجرأ على معارضته، أو حتى حاول الإصلاح من الداخل، أُسكت إما بالقوة أو بالإقصاء أو بالفساد الممنهج. هذا النهج الأناني، القائم على حماية الذات، أدى في النهاية إلى تآكل كل مؤسسات الدولة.

ما تبقى اليوم هو بلد يقف على حافة الانهيار الكامل. تحتل سوريا المراتب الأخيرة في معظم المؤشرات العالمية: الأمن، الحوكمة، حرية التعبير، الاقتصاد، التعليم، الرعاية الصحية، البنية التحتية، وغيرها. أصبحت رمزا عالميا لفشل الدولة الحديثة، وشعبها يدفع الثمن في كل مكان، سواء في الداخل أو خارج البلاد.

ربما لا شيء يجسد هذا الانحدار أكثر من جواز السفر السوري ... تلك الوثيقة التي كانت يوما رمزا للهوية والانتماء وكانت تمتع بوضع مرموق بين وثائق السفر العالمية ... تحولت إلى عبء ثقيل ... أحد أضعف جوازات السفر في العالم وأقلها قدرا. لا تتيح لحاملها السفر إلى أي مكان تقريبا، ومع ذلك تعد من أغلى الجوازات ثمنا ... أصبحت رمزا مؤلما لمعاناة السوريين.

أما التعليم الذي كان يفترض أن يكون حجر الأساس لأي نهضة، فقد انهار تماما تحت سلوكيات وأساليب النظام. المدارس تحولت إلى أماكن للتلقين والرقابة بدلا من التفكير والمعرفة ... الجامعات فقدت مكانتها ومصادقيتها والأساتذة الذين حاولوا الحفاظ على نزاهة العلم إما هاجروا أو أُجبروا على الصمت. نشأت أجيال كاملة داخل منظومة تقديس الولاء وتحتقر الإبداع، مما جعل البلاد تتراجع عقودا عن الركب.

لم تكن الرعاية الصحية أفضل حالا ... المستشفيات الحكومية تُركت لتنتهار تحت وطأة الفساد وسوء الإدارة ... نقص في المعدات والأدوية وغياب الكوادر المدربة ... في الوقت الذي كان فيه المسؤولون يتفاخرون بإنجازات وهمية لا وجود لها على أرض الواقع.

وبالمثل، انهارت الخدمات العامة والبنية التحتية بشكل مأساوي ... دمرت الطرق ... ووسائل النقل العامة أصبحت متهاكة وشبكات الكهرباء والاتصالات باتت بأسوأ حال. في المقابل، تضخمت ثروات قلة من المسؤولين الفاسدين الذين بنوا إمبراطوريات شخصية على أنقاض الدولة ومعاناة المواطنين.

لقد فشل النظام في أبسط واجبات الدولة، لكنه نجح في أمر واحد: في جعل فشله شاملاً بحيث لا ينجو منه أحد.

ومع ذلك، ورغم هذا الخراب، بدأت بوادر وعي جديد تتشكل في أذهان السوريين. بعد كل ما انكشف، لم يعد أحد يصدق أسطورة "الدولة الحامية"، ولا رواية "الاستقرار عبر القمع" ... ربما كانت البلاد مدمرة، لكنها أخيراً حرة من الوهم.

داخل سوريا، كانت حياة المدنيين اليومية محاطة بالرعب ونقص الخدمات. لم يكن الناس يعيشون تحت سلطة دولة طبيعية، بل تحت منظومة أمنية قائمة على الرعب. تعرض المواطنون بشكل روتيني للمضايقات والاعتداء والاعتقال من قبل الأجهزة الأمنية والاستخباراتية التابعة للنظام، وكأن وجودهم نفسه موضع اشتباه دائم.

وفي الخارج، لم يكن حال السوريين أفضل بكثير. فبعد أن فرّ الملايين بحثاً عن ملجأ، وجدوا أنفسهم أمام جدران جديدة من الإذلال. أصبح السفر معاناة مستمرة، والحصول على تأشيرة أمر شبه مستحيل. تحول جواز السفر السوري إلى عبء، لا إلى وسيلة عبور. كان الناس يُعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية، مهما بلغت كفاءتهم أو مستوى تعليمهم.

شعر كثير من اللاجئين وكأنهم عالقون بين عالمين: وطن لم يعد آمناً، وعالم خارجي لا يريد استقبالهم. أصبحوا، في نظر كثيرين، بلا هوية حقيقية أشبه بأشباح على هامش الحياة، يدفعون ثمن نظام لم يختاروه ولم يدعموه يوماً.

وهذا الألم، لم يكن مجرد معاناة سياسية أو اقتصادية. كان شخصياً أيضاً، يلامس كل تفاصيل الحياة الصغيرة والكبيرة ... يلامس الطلاب والمصاعب التعليمية التي مروا بها ... المريض الذي لا يستطيع الحصول على علاج ... العائلة الممزقة بين حدود ودول مختلفة ... الشاب الذي يحاول فقط العيش بكرامة في وطن فقد وظائفه ومؤسساته ... وروحه. لم يكن الضرر ملموساً فقط في البنية التحتية، بل في البنية النفسية لكل سوري.

لقد ترك النظام وراءه ندوباً عميقة في روح المجتمع. لم يدمر الاقتصاد فحسب، بل مزق النسيج الاجتماعي، وأفقد الناس ثقتهم ببعضهم وبالدولة. أصبح الخوف جزءاً من الثقافة اليومية، يتوارثه الأبناء عن الآباء كما لو كان غريزة بقاء. وحتى بعد سقوط النظام، استمر هذا الإرث الثقيل ... يسكن في ذاكرة الناس وكلماتهم وسلوكهم ... ولو إلى حين.

ومع ذلك، يعرف السوريون أن الشفاء ممكن، وإن كان بطيئاً. إعادة بناء المؤسسات واستعادة الثقة وتوحيد المجتمع الممزق ليست مهام سهلة، لكنها تبدأ بالوعي بما حدث، وبالاعتراف أن جرح البلاد أعمق من أن يندمل بالخطابات. يحتاج السوريون إلى وقت طويل لاستعادة الإحساس بالوطن وإلى جهد جماعي لتفكيك الخوف الذي زرعه النظام في أرواحهم.

كثيرا ما جلس يوسف وأصدقاؤه يتحدثون عن ذلك الإرث الثقيل. أكثر ما كان يدهشهم هو مدى الكراهية العالمية لذلك النظام، ليس فقط من السوريين الذين عانوا تحت قبضته، بل من شعوب بعيدة لم تعرف سوريا إلا من خلال أخبارها المأساوية. لم يكن النظام مجرد استبداد محلي، بل أصبح رمزا عالميا للوحشية ولانتهاك الكرامة الإنسانية.

في اليوم الذي أعلن فيه رسميا عن سقوطه، تلقى يوسف سيلا من الرسائل والاتصالات من أصدقاء حول العالم. لم يكن السوريون وحدهم من يحتفلون، بل أناس من كل مكان: هنود، باكستانيون، بريطانيون، أمريكيون، وعرب من دول مختلفة. لم يعيشوا في ظله، لكنهم شعروا جميعا بأن شيئا مظلما في العالم قد زال. هذا الأمر أدهش يوسف، وتساءل: لماذا اهتم هؤلاء الناس كثيرا؟ ما الذي جعل نظاما محليا يثير كل هذا الاشمزاز على مستوى العالم؟ ما علاقة شخص من الهند ومن أميركا بهذا؟ لماذا بدا عليهم كل ذلك الفرح؟

جاءت الإجابة سريعا من خلال الحديث مع أولئك الأشخاص. كثير من أصدقائه غير العرب تحدثوا عن مشاهد الفيديوهاات والتقارير التي وثقت الرعب في سجن صيدنايا. قال أحدهم: "ما رأيناه هناك كان خارج نطاق المنطق وربما الخيال. مكان يفوق كل ما يمكن أن يتخيله العقل من قسوة". فقد تحولت صيدنايا إلى رمز للعذاب الإنساني ... إلى مرآة تعكس أعماق انحدار يمكن أن تبلغه السلطة عندما تفقد إنسانيتها.

كشفت الوثائقيات وشهادات الناجين والتقارير المسربة عن أهوال تفوق الوصف: غرف مكتظة بالسجناء الجوعى، عمليات إعدام جماعية، وتعذيب منهجي صُمم لإذلال الإنسان وتحطيمه تماما.

بالنسبة لكثيرين حول العالم، لم تكن صيدنايا مجرد سجن، بل كابوسا تجسد على أرض الواقع، شاهدا على مدى ما يمكن أن تفعله السلطة حين تُنزع عنها كل القيود الأخلاقية.

قال صديق أمريكي ليوسف: "لم يكن الأمر سياسيا فقط ... كان إنسانيا. صيدنايا كانت أشبه بفيلم رعب، لكنه لم يكن خيالا. كان حقيقة أقرته حكومة ضد شعبها. وهذا ما جعله مرعبا إلى هذا الحد". وأضاف صديق آخر من الهند قائلا: "لم يكن علينا أن نكون سوريين لنشعر بالغثيان من تلك القصص ... يكفي أن تكون إنسانا لتشعر بالاشمئزاز من ذلك النوع من السلوك".

لكن، لم تكن صيدنايا سوى وجه واحد من الوجوه العديدة للمعاناة السورية.

قال يوسف في إحدى الأمسيات: "أحيانا أشعر أن سوريا كلها كانت صيدنايا كبيرة. كل شارع، كل بيت ... كان محاطا بالخوف والصمت. لم تكن الجدران التي تحبس الناس من إسمنت فقط، بل كانت جدراننا من الرعب المغروس في العقول".

هز عماد رأسه وقال: "يجب أن يُمحى اسم ذلك المكان. إنه مقيت. لا أحد يريد أن يتذكره، يجب أن يزال من الوجود".

قال أحمد مخالفا عماد الرأي: "لا، لا يجب أن نغيره ... يجب أن نحافظ عليه كما هو تماما ... لننتذكر. يجب أن يكون هذا المكان بمثابة تذكير دائم بما مررنا به ... يجب أن يبقى هذا المكان بمثابة تذكير حي بما يمكن أن تفعله السلطة عندما تُترك بلا مساءلة، وبما يحدث عندما يُنزع من الإنسان حقه في الكرامة والحرية".

أوماً عبد الرحمن برأسه بالموافقة: "نعم، يجب ألا نخفي الجرح، بل نحوله إلى شيء يعيد للضحايا أصواتهم. يجب أن يتحول صيدنايا إلى متحف، إلى نصب تذكاري وطني ... يكرم الذين عانوا وماتوا هناك، ويُعلّم الأجيال القادمة ما يمكن أن يحدث عندما تتحول الدولة إلى أداة قمع بدلا من أن تكون ملاذا للناس. نحن بحاجة إلى التذكر لا إلى المحو، لأن الذاكرة هي الضمانة الوحيدة لعدم تكرار الكارثة".

انضم الآخرون إلى هذا الرأي بإجماع صامت. كانت الفكرة أبعد من مجرد ترميم مبنى قديم، بل كانت محاولة لترميم الوعي نفسه، لحفظ الحقيقة من الضياع. الحفاظ على صيدنايا، لا كمكان للعباد، بل كمكان للذاكرة، كمكان يمكن أن يكون عملا من أعمال المقاومة الإنسانية ضد النسيان ... نصباً لأولئك الذين اختفوا في ظلامه، ورسالة إلى كل من سيحكم مستقبلا بأن العدالة ليست ترفاً، بل ضرورة لبقاء الأمة.

قال يوسف وهو ينظر إلى رفاقه: "إذا أردنا بناء سوريا جديدة، علينا أن نعمل بصدق ومنطق. لا يمكننا أن ندفن الماضي وكأنه لم يكن ... يجب مواجهته. كانت تلك اللحظة بداية وعي جديد ... إدراك أن التغيير الحقيقي لا يولد من الصمت، بل من الاعتراف ... من تحويل الألم إلى ذاكرة مشتركة لا تُنسى".

ومع رحيل النظام، بدا وكأن باباً كان مغلقاً منذ عقود قد فُتح أخيراً. عاد الضوء يتسلل ببطء إلى أماكن طغى عليها الظلام طويلاً. السوريون الذين تفرقوا في أصقاع الأرض بدأوا يفكرون

بالعودة، لا كلاجئين هذه المرة، بل كمواطنين يحملون أملا في وطن يمكن أن يُعاد بناؤه على أسس مختلفة.

بدأت الرحلات الجوية تستأنف إلى دمشق، وبدأت الطائرات تحمل على متنها أولى موجات العائدين. وجوه متوترة ومتحمسة في آن واحد، قلوب تخفق بين الخوف والحنين.

كان يوسف من أوائل أولئك الذين قرروا العودة ... لم يتردد ... بمجرد أن سمع أن السفر أصبح ممكنا، حجز تذكرته وعاد إلى سوريا بعد غياب امتد عقدا كاملا. رافق يوسف في تلك الرحلة ولده، عبد الله، الذي زار سوريا - لأول مرة قبل سقوط النظام - عندما كان عمره شهرا واحدا. عندما دخل سوريا للمرة الثانية كان عمره خمسة عشر عاما وأحب سوريا كثيرا ولم يرغب بالعودة والخروج منها ... لكنها الظروف. لم يدرك عبد الله أيضا ما عاناه على أبواب سوريا عندما كان عمره شهرا واحدا ... كل تلك المعاناة حدثت فقط لكيلا تهتز صورة الأمن السياسي أو يشعر أي مواطن كان بأن القبضة الحديدية بدأت تتكسر أو تضعف ... هم لم يعلموا بأن الحديد لا بد أن يصيبه الصدا ... وإن طال به الزمان.

كانت لحظة وصول يوسف إلى المطار أشبه بعودة الروح إلى الجسد ... رائحة الهواء، ضجيج المدينة، ضوء الشمس على الأبنية القديمة ... كل شيء بدا مألوفا وغريبا في الوقت ذاته. كانت دمشق التي تركها مختلفة، لكنها ما زالت مدينته التي درس فيها وقضى فيها سنين طوال.

لم يكن يوسف وحده في تلك الرحلة الرائعة ... بعد أسابيع قليلة، تبعه بعض أصدقائه واحدا تلو الآخر ... البعض جاء من أوروبا، والبعض من تركيا أو الخليج، وآخرون من مخيمات اللاجئين

التي قضوا فيها سنوات من الغربة. حتى أولئك الذين لم يتمكنوا من العودة مباشرة بدأوا بالتخطيط ... يعدون الخطط للسفر في الصيف القادم.

كانت العودة خطوة ومرة في آن واحد ... الفرح بالعودة إلى الوطن ... ولكن بعد طول الغياب تغيرت أمور كثيرة وذهب أناس كثير ... لقد اكتشف العائدون أن بعض البيوت قد اختفت وأن كثيرين ممن وعدوا أنفسهم برؤيتهم مجددا لم يعودوا موجودين. ومع ذلك، كان مجرد إمكانية العودة إنجازا في حد ذاتها.

لم يكن سقوط النظام عصا سحرية تصلح ما فُسد، لكنه خلق مساحة جديدة ... مساحة للصدق والذاكرة والأمل ... ومن بين ركام السنين والدمار، بدأ السوريون يكتبون فصلا جديدا في تاريخهم، فصلا يخصهم وحدهم هذه المرة، فصلا يبدأ من الحقيقة وينتهي بالحرية التي يجب عليهم أن يحافظوا عليها مهما غلا ثمنها.

الفصل الرابع عشر

خارطة طريق ما بعد السقوط

نهاية 2024 وما بعدها

الوعي، الوعي، الوعي ولا شيء سواه. في مراحل الاضطرابات السياسية والتحولات الوطنية والمجتمعية التي تعصف بسوريا أو أي بلد آخر يعلو صوت واحد فوق كل الأصوات، إنه صوت الوعي والعقل. وهو حجر الأساس الذي تبني من خلاله الأمم مستقبلها في أصعب اللحظات وأشدّها تقلباً. في مثل هذه الظروف التي ربما تتعارض فيها المصالح وتتنافس فيها قوى مختلفة، يصبح الوعي العام هو الملاذ الآمن والسلاح الأقوى لمواجهة التحديات الهائلة.

وقد تتكرر في الأذهان قصة الحركات الثورية التي اجتاحت البلاد العربية، تلك الحركات التي حملت على كاهلها أحلام التغيير والحرية والعدالة، لكنها اصطدمت بقسوة جدران المصالح الراسخة. كثيراً ما قوبلت هذه الثورات بالعداء من الداخل والخارج، حيث تلاقت قوى متنوعة في مواجهة الحراك الشعبي الذي أراد قلب صفحة الظلم لأن الظلم الذي يقع في بلادنا يخدم الإرث الاستعماري الذي لا زال ماثلاً في كثير من جوانب الحياة، خاصة بين شعوب الشرق الأوسط وأفريقيا.

لكن ما هو الوعي العام المقصود؟ إنه الفهم الجماعي العميق للقضايا التي تهم الناس والقضايا التي قد تُستغل لجر البلاد نحو ما يريده أعداء سوريا ... وما أكثرهم. وتشمل أيضا فهم أو استيعاب معنى الإصلاحات السياسية وحقوق الإنسان وحق الناس في التعليم والصحة والتعبير عن الرأي، مروراً بالسياسات الاقتصادية التي تمس حياة الناس اليومية، فالناس حين يكونون على دراية حقيقية، لا يمكن لأحد أن يظلمهم بالمعلومات المزيفة أو يزرع فيهم الخوف أو الطائفية، بل يصبحون فاعلين حقيقيين في صناعة مستقبل وطنهم، لا مجرد ضحايا أو مواطنين لا كلمة لهم في وطنهم ولا حق ولا رأي.

تعزيز هذا الوعي ليس مهمة جهة واحدة بعينها، بل هو مسؤولية جماعية مشتركة تقع على عاتق الجميع: الحكومات، منظمات المجتمع المدني، وسائل الإعلام، المدارس والجامعات، وحتى القطاع الخاص ... كلهم لهم دور لا غنى عنه في توعية الجمهور، وتنمية الفكر النقدي الذي يهدف إلى البناء لا الهدم، وكذلك تشجيع المشاركة المدنية.

أما وسائل الإعلام فعليها أن تعطي الأولوية للحقيقة بعيداً عن الإثارة التي تشتت الأفراد، والمدارس والجامعات عليها أن تعلم طلابها كيف يفكرون ويحللون وكيف يكونون أحراراً في نهجهم وتفكيرهم وألا تأخذهم في نصرة أو قول الحق لومة لائم، وكذلك توعية الناس بالحوكمة وحقوق الإنسان. وهنا نقصد الوعي النسبي فلا يمكن أن يكون الناس على صعيد واحد أو بمستوى واحد من الوعي، ولكن يمكن تعزيز الوعي بين أكثرية الناس وهذا هو الهدف المنشود ... أما

المنظمات غير الحكومية فتعمل على إيصال الرسائل إلى الفئات المهمشة، والحكومة عليها أن تخلق بيئة من الشفافية وتعمل على تسهيل تدفق المعلومات بحرية.

والفرد هو أساس كل شيء، فكل شخص هو لبنة بناء في المجتمع، والمجتمع هو الأساس الذي تبنى عليه الأمة. فإذا غاب دور الفرد ومشاركته الفعالة، يضعف دور المجتمع ويضعف معه الوطن ... لذلك يتحمل كل مواطن مسؤوليات تجاه مجتمعه وأمته وحتى الأجيال القادمة، وفي المقابل يجب أن يتمتع بحقوقه الأساسية مثل الحق في الاحترام والعيش بكرامة وأمان والحق في التعبير عن آرائه بحرية كاملة ويجب علينا جميعا تقبل الرأي الآخر ... هذا يجب أن يعطى أولوية قصوى لأن البلد كله حُرَم من ذلك لعقود من الزمن.

حرية التعبير ليست مجرد شعار، بل هي ركيزة لأي مجتمع متطور أو ينشد التطور. يجب أن يشعر كل فرد بأنه يستطيع أن يشارك مخاوفه وأفكاره ويناقش قضايا مجتمعه بما في ذلك إبداء رأيه في سياسة الدولة دون خوف من أي عواقب وأن كان رأيه يخالف آخرين. لكن هذه الحرية يجب أن تكون مصحوبة بالمسؤولية والاحترام للآخرين لأننا عندما ننتقد شخصا ننتقده لأدائه لا لشخصه بالذات ... الهدف هو تحسين الأداء وليس إيذاء ذلك الشخص وهذا هو النقد البناء. فلا يجوز أن يتحول النقد إلى أداة لإيذاء الآخرين أو التحريض على الكراهية. إن احترام الرأي الآخر هو علامة على نضج المجتمع وتقدمه.

لقد كانت تجربة سوريا وغيرها في المنطقة مليئة بالتحديات فالمشاكل الاقتصادية وانعدام الثقة والفساد والخوف كلها تركت جروحا غائرة في النسيج الاجتماعي، وازدادت هذه الأوضاع تعقيدا بفعل التحديات الإقليمية والدولية التي سببت ضغطا هائلا على البلاد.

في هذا السياق، قال يوسف بينما كان يتحدث إلى بعض أصدقائه: "بعض القوى تخشى تأثير الدومينو ... عندما تنهض دولة واحدة، قد تلهم الدول المجاورة للقيام بمثل ما قامت به الأولى وهذا يزعج أولئك الذين يريدون بقاء الأمور على حالها".

رد عماد قائلا: "صحيح، المشكلة ليست فقط في القوى الأجنبية، بل هناك نخب محلية وإقليمية وجماعات سياسية وحتى بعض الناس من عامة الشعب الذين تم تضليلهم ... إنهم يؤيدون مقاومة التغيير لأنهم: إما يكونون قد استفادوا من الأنظمة القديمة، ولم يكتروا للظلم الذي وقع ... وإما إنهم يسировون على غير هدى".

أضاف يوسف: "لهذا السبب الوعي العام هو الأساس، هو النور الذي يخترق ضباب الدعاية والخوف والارتباك. عندما يكون الناس واعين ومتعلمين، يصبح من الصعب التلاعب بهم أو تقسيمهم، وهذا هو الطريق الحقيقي لبناء الأمة".

"هذا صحيح"، قال ياسر. "لكن علينا أن نكون واقعيين أيضا. الانتقال من نظام استبدادي أو دولة مفككة إلى نظام ديمقراطي عادل ليس بالأمر السهل ... ستكون هناك أخطاء ونكسات واضطرابات ... هذا جزء لا يتجزأ من المخاض".

"المفتاح هو كيف نتعامل مع هذه التحديات"، تابع ياسر. "يجب أن يكون هناك صبر والتزام متبادل بين الشعب والحكومة. الأخطاء واردة، لكن إذا تعاملت الحكومة معها بشفافية وجدية ومسؤولية... يمكنها استعادة ثقة المواطنين بسهولة".

"كما يحتاج المواطنون إلى أن يدركوا أن الإصلاح ليس أمراً فورياً"، قال عماد. "إعادة بناء المؤسسات وتغيير القوانين وحتى تشكيل الهوية الوطنية كلها عمليات تستغرق وقتاً".

"إذا فقدنا التركيز على الأهداف الكبيرة ولم نتجاوز عن سفاف الأمور، فقد تنهار الأمور"، قال عبد الحميد. "وبدون وعي وصبر، قد تعود البلاد إلى الفوضى التي تتمناها بعض الأطراف الخارجية".

قال ياسر بنبرة حادة تفيض بخبرة الواقع: "تستفيد القوى الخارجية من حالة عدم الاستقرار التي تعيشها البلاد. هم لا يريدون لسوريا أن تصبح دولة قوية أو موحدة، بل يفضلونها ضعيفة ومنقسمة حتى تتحقق أهدافهم الاستراتيجية غير المعلنة. والسبيل الوحيد لمنع ذلك هو الوحدة واليقظة المستمرة، وقبل كل شيء وجود سكان مطلعين مدركين لما يدور حولهم".

في تلك اللحظة قال يوسف: "في النهاية، الكفاح من أجل مستقبل أفضل هو مسألة حكمة وصبر... بقدر ما هو عمل ونضال. إذا ظل الناس مدركين لما حولهم وملتزمين بحقهم في التغيير، فسيتولد أمل حقيقي بمستقبل أفضل يلبي تطلعات الجميع".

تابع يوسف وأضاف بنبرة ملؤها الإصرار: "هناك شيء مهم آخر لا بد من التركيز عليه، وهو التغلب على الانقسامات التي تعصف بالمجتمع السوري... سواء كانت انقسامات قبلية، طائفية،

أو حتى شخصية ... يجب أن نتجاوزها جميعا. علينا أن نضع مصالح الأمة فوق كل اعتبار وننظر إلى ما يجمعنا لا إلى ما يفرقنا".

بالضبط، قال عماد: "يحتاج السوريون الآن إلى العمل معا ... تجاوز الحدود التي تفرضها انتماءات ضيقة، والتركيز على الصالح العام. فقط عندما نضع المصلحة الجماعية فوق المصالح الفردية، يمكننا أن نواجه التحديات بعد سنوات طويلة من الصراع والدمار".

"نعم، التعاون هو المفتاح الحقيقي للتقدم"، أضاف عبد الحميد. "وهذا التعاون لا يقتصر على المواطنين فقط، بل يجب أن يمتد إلى كافة المؤسسات والأفراد ... وكذلك بين الشعب والحكومة. المجتمع الذي يقدر التقدم الجماعي ويقدمه على المكاسب الفردية هو الذي يستطيع بناء مستقبل مستقر ومزدهر".

وأكد ياسر بدوره على "أهمية الوحدة والتي تعد أحد الأمور الأساسية ... بل هي الأساس الذي سنبنى عليه استعادة الأمن والثقة والتنمية في وطننا. بدونها قد ننخرط مجددا في دوامة الانقسامات وعدم الاستقرار التي طالما عانينا منها".

"في الوقت الراهن"، قال يوسف. "يتوجب على الجميع تقديم تضحيات. سواء كان مسؤولا حكوميا، مدرسا، رجل أعمال، أو حتى طالبا ... لكل منا دور لينجزه. أحيانا هذا الدور يعني تجاوز المظالم الشخصية أو العمل بجد دون انتظار مكافأة فورية".

أضاف يوسف متفائلاً: "حتى أبسط الأفعال، مثل مساعدة جار يحتاج المساعدة يمكن أن تحدث فرقاً كبيراً ... هذه التضحيات ليست مجرد أعمال بسيطة، بل هي استثمارات حقيقية في مستقبل لا يزال يحمل الكثير من الخير لشعبنا السوري".

"فكرة أن الأفضل لم يأت بعد ليست مجرد أمل أو تمنى"، قال عبد الحميد. "بل هي رؤية قابلة للتحقيق. لكن ذلك لن يتم إلا إذا استمر السوريون بمواصلة التحديات وتسلحوا بالوعي وصمموا على بناء وطنهم".

"التحديات التي نواجهها في هذه المرحلة صعبة بلا شك"، قال ياسر. "لكنها في الوقت نفسه فرص حقيقية ... إذا توحد الناس، يمكن تحويل هذه العقبات إلى نقاط قوة للانطلاق نحو التنمية والتجديد".

"سوريا تقف على مفترق طرق مصيري"، قال يوسف. "لا يمكننا التركيز فقط على مشاكل اليوم، بل علينا النظر إلى المستقبل والعمل على تحقيق الأهداف العظيمة ... وهذا يعني أن نتعلم ونستفيد من أخطاء الماضي ... ونفهم كيف استمرت ظواهر الفساد والدكتاتورية لعقود".

أضاف عماد قائلاً: "إذا لم نتعلم هذه الدروس، سنعيد تكرار نفس الأخطاء التي أوصلتنا إلى ما كنا فيه. أما إذا تعلمنا منها، فسنتمكن من بناء مستقبل مختلف تكون فيه تلك الفصول المظلمة فقط صفحة من الماضي".

قال ياسر معرباً عن موافقته: "مستقبل سوريا مرهون بهمة وتعاون الجميع وكذلك التزامنا بهذه المرحلة المعقدة".

وبعد ذلك انحرف النقاش قليلا نحو واحدة من أسوأ الظواهر السياسية التي تؤدي إلى النفور بين أفراد المجتمع وهي التطبيل. هذه الصفة البغيضة يمكن وصفها على أنها شكل من أشكال الإطراء الأعمى والولاء الفاسد لأناس فاسدين ... وهو سبب رئيسي في ترسيخ الاستبداد.

إذا أراد أي شعب في العالم بناء مجتمع عادل ومتطور وديمقراطي، فإنه يجب عليه رفض مثل هذه الممارسات المدمرة. التطبيل هو أكثر من عادة سيئة، إنه شكل من أشكال النفاق والتدهور الذاتي والأخلاقي الذي يقلل من قيمة المُطْبِلِ والمُطَبَّلِ له ويهدم القيم النبيلة كالنزاهة الجدارة والاحترام وينافي حسن الخلق.

إنها عملية مدح مفرط وغير صادق لمن هم في السلطة وغالبا ما يكون مقابل مكاسب شخصية يحصل عليها المطبيل. في هذه الحالة، يحاول المطبلون أن يرفعوا من قيمة الشخص المُطَبَّلِ له وإن كان لا قيمة له ... إذا انتشرت هذه الظاهرة على نطاق واسع، تصبح مرضا مزمنيا يتوجب على الناس استئصاله ... قد يساعد التطبيل أشخاصا غير أكفاء لتولي مناصب لا يستحقونها ولا قدرة لهم على إدارتها ... ويعمل من يتولى ذلك المنصب على إسكات الأصوات الناقدة ويقمع الحرية والحق ويستمتع إلى التطبيل الذي لا يطربه شيء غيره.

قال يوسف خلال حديث مع أصدقائه: "بالنسبة لي، أكثر كلمة أحببتها في اللغة الإنجليزية هي (bootlicker)، أي المطبل وإذا ترجمناها ترجمة حرفية فمعناها "لا عاق الأحذية".

وافقه عماد قائلًا: "أنت على حق تماما".

تابع يوسف بقوله: "هؤلاء هم الأشخاص الذين يصنعون الطغاة. بدونهم، لم يكن هؤلاء الحكام ليتصوروا أنفسهم أنهم خارقون أو مميزون أو أنهم أفضل من الآخرين ... عندما لا يمدحهم أحد ربما يعيدوا التفكير في أدائهم، ولكن التطبيل يدفعهم نحو الرضا عن الأداء وإن كان سيئاً".

"هذه الحقيقة مرة للغاية"، قال أحمد التراك. "فالدكتاتوريون لا يولدون بهذه القوة، بل يُصنعون ويدعمون من قبل من يحوطنهم بمدح غير مستحق وولاء أعمى ... لا شيء يستحقونه ... يعمل المطبلون أيضاً على إخفاء عيوب أسيادهم ويتلاعبون بالرأي العام لصالحهم".

"عندما يرى الحكام مثل هؤلاء الناس يخضعون لهم ويطلبون، ربما يشعرهم هذا بالغرور ... وأنه بدونهم لن تستقيم حياة البلاد والعباد ..."، أضاف سعود. "يستشهدون بإنجازات تافهة ... ويتشدقون بها على أنها دليل على عظمتهم ... وبعد ذلك ربما يتوهم الدكتاتور بأن الجمهور يحترمه ويحتاجه ... من دونه تتدمر البلاد وهو الشخص الوحيد الذي يصلح لقيادتها ... وأنهم يستحقون البقاء في السلطة إلى الأبد ... والمزيد من هذا الهراء".

"هذا الوهم خطير جداً"، قال تميم. "لأنه يعمي الحكام عن الحقيقة ويمنعهم من التفكير الذاتي ويبعدهم عن الناس الذين من المفترض أن يخدموهم. والأسوأ من ذلك، أنه يؤدي إلى قمع أي نقد حقيقي، حيث يُوصف كل من يجرؤ على قول الحقيقة بالخائن بينما يُكافئ المطبلون والمتملقون".

"ليس كل المطبلين سواسية"، قال يوسف. "هناك نوعان: النوع الأول هم المفلسون، لأنهم أشخاص جاهلون وغير مدركين ... لدرجة أنهم يمدحون السلطة دون أن يستفيدوا شيئاً. هم يؤمنون

حقا بمن يمدحون ويقدمون له الثناء بلا سؤال أو معرفة عن أفعالهم وإنجازاتهم ... ربما يكتفون
بسماع الشعارات الزائفة".

"هؤلاء غالبا ما يفعلون ذلك لأن أدمغتهم مغسولة"، أضاف يوسف. "هم يفعلون ذلك ليس
للحصول على مكاسب، لكن ولاءهم أعمى وهو ضار إلى درجة كبيرة لأنه يدعم نظاما لا مكان
فيه للحقيقة أو الجدارة، بل تُهمّش فيه كل هذه القيم لصالح السلطة ... وذاك الحاكم المحب للتطيل".

تابع يوسف حديثه عن النوع الآخر من الأشخاص المطبلين قائلا: "النوع الثاني: أشبه بالمرتزقة،
هؤلاء هم الذين يمدحون المسؤولين الفاسدين ليس بدافع الإيمان أو القناعة بإنجازاتهم، بل من
أجل الحصول على مزايا مالية أو مكانة اجتماعية أو نفوذ سياسي. هم يعلمون أنهم لا يقولون
الحقيقة، لكنهم ببساطة يقولون بما لا يؤمنون به ... فقط لتأمين مصالحهم الشخصية، لا أكثر ولا
أقل".

هنا تدخل سعود مشيرا إلى خطورة هذا النوع من الأشخاص وقال: "النوع الثاني هو الأخطر،
لأنهم يضعون مصالحهم الشخصية فوق مصلحة الوطن والمجتمع. هم مستعدون لبيع كل شيء
... من أجل مكاسب مؤقتة ... ستنتهي يوما ما تلك المكاسب ولن يبقى لها ولهم أي اعتبار".

هؤلاء المرتزقة كثيرا ما يجدون لأنفسهم مواقع نفوذ وسلطة في ظل أنظمة فاسدة، يستخدمون
مواقعهم لخدمة الشيطان وإسكات المنتقدين واستدامة الاضطهاد الذي يعاني منه الناس. أفعالهم
تؤدي إلى إضعاف المؤسسات العامة وربما ترفع الوضيع وتحط الشريف الذي اعتاد على قول
كلمة الحق.

"ثم إن رفض التطبيل"، أوضح يوسف، " لا يعني أن نكون جاحدين أو غير محترمين لمن يخدم البلد أو ينجز عمله بجد واجتهاد ... هذا الرفض لا يعني أن الناس يجب أن يتوقفوا عن شكر بعضهم البعض أو تقدير الجهود المثمرة ... لكن من الضروري أن ينظر الشعب إلى المسؤولين مهما كانت مناصبهم كموظفين حكوميين فقط، فهم موجودون لخدمة الشعب لفترة محددة، وبعد ذلك يتركون مناصبهم ... فلا تطبيل ولا تصفيق وخاصة التصفيق عند العرب ... فهو مدخل وبداية للتطبيل. ويجدر بكل العرب تجنب التصفيق لأنه ارتبط بالتطبيل في العقود الأخيرة ... فالتصفيق عند الغرب إعجاب وعند العرب يصعب أن يخلو من النفاق.

في العالم الحر، تقول المبادئ والقواعد العامة أنه لا يجوز أبدا اعتبار أي مسؤول مهما بلغ من القوة أو المكانة منقذا أديا أو حاكما لا يمكن أن يُزاح. ويجب أن تكون السلطة متداولة، وأن تخضع القيادة للمساءلة، وأن يتم تقييم المسؤولين بناء على أفعالهم وليس على أقوالهم لمجرد توليهم المناصب. عندما يتم مدح القادة يجب أن يكون فقط عندما يحققون نجاحات واضحة لا لبس فيها ... وإذا حدث ذلك فيجب أن يعزز تواضعهم ويجعلهم أكثر مسؤولية ويدفعهم إلى التركيز على الخدمة بدلا من البحث عن المدح لأمر لم يفعلوها.

"كل المسؤولين سيرحلون عن مناصبهم عاجلا أم آجلا"، قال حمزة. "وإذا حاولوا الاستيلاء على الدولة أو التمسك بالسلطة بعد انتهاء فترة حكمهم، فإنهم سيلاقون في النهاية نفس مصير الأنظمة السابقة التي سقطت. التاريخ لن يكون لطيفا معهم، وسيتم ذكرهم بازدراء سواء في حياتهم أو بعد هلاكهم".

هذه حقيقة واقعية لا خفاء فيها ... والتاريخ يؤكد ذلك، فلا طاغية يدوم إلى الأبد ولا يمكن لأي نظام فاسد أن يبقى إلى أجل غير مسمى. ما يبقى بعد كل شيء هو الإرث الذي يتركه القادة ... وكيف سنذكر أفعالهم ... هل ساهموا في تقدم الأمة أم ألحقوا بها الضرر والأذى؟ هذا الإرث لا تصنعه الدعاية أو الإعلام المزيف، بل تصنعه الإنجازات وتجارب الناس الحقيقية وما يلمسونه في حياتهم اليومية.

لذلك فالوعي السياسي لا يقتصر فقط على فهم السياسات أو دعم الإصلاحات، بل يشمل أيضا التعرف على السلوكيات الثقافية الضارة مثل التطبيل والعمل الجماعي على تفكيكها. يتضمن هذا أيضا تعليم الأجيال القادمة أهمية النقد البناء وتحمل المسؤولية والريادة الأخلاقية.

ولمنع عودة الاستبداد يحتاج الشعب السوري إلى التمسك بالشفافية وتقديم الجدارة على الولاء الأعمى وتنمية مجتمع يحترم حرية التعبير والمساءلة والكرامة كقاعدة ثابتة لا مجال للنقاش فيها. ومن الضروري أن يتمكن المواطنون – من خلال أعضاء مجلس الشعب الذين ينتخبونهم – من استجواب القادة واستبدالهم، إذا لزم الأمر، عبر طرق سلمية وديمقراطية.

غالبا ما يؤكد يوسف على رؤية يطمح إليها الكثيرون ... دفع الوطن إلى الأمام، والاقتراب خطوة نحو حضارة حقيقية، وهذا يستلزم تبني مجموعة من القيم الأساسية التي تشكل عادة الأساس لأي مجتمع مزدهر. تشمل هذه القيم العمل الجاد وأداء الواجبات على أكمل وجه والنزاهة والعدالة والشفافية وحرية الرأي والاستقامة والتفاني في خدمة الوطن والتسامح واحترام آراء الآخرين

حتى وإن اختلفنا معهم. وقبل كل شيء، يجب أن نعطي الأولوية للمصلحة العامة ونعمل بلا كلل لضمانها والحفاظ عليها.

هذه المبادئ ليست مجرد شعارات سامية، بل هي أدوات عملية وأساسية لبناء الدولة والحفاظ على تقدمها ... والتقدم نحو الحضارة لا يعني التخلي عن ديننا أو قيمنا الثقافية أو تقاليدنا ومبادئنا، بل على العكس، فإن أعظم الحضارات هي تلك التي احترمت أسسها الروحية والثقافية وبنّت عليها تقدمها.

يمثل إيماننا وقيمنا البوصلة الأخلاقية والقوة التي قادت أسلافنا إلى المجد والعظمة. واليوم نحتاج إلى الحكمة الكافية لمدح من يستحق وفقا للإنجازات وانتقاد من يعيق التقدم.

إن النقد عندما يمارس بمسؤولية، فإنه يكون أداة قوية للتطوير، ولا يجب أن يكون سلاحا لمآرب شخصية أو بهدف إحداث انقسامات مدمرة، بل هو وسيلة لتحديد نقاط الضعف التي تحتاج إلى إصلاح أو إدارة أفضل.

النقد البناء هو أحد الأسباب التي جعلت العديد من الدول المتقدمة تحقق نجاحات كبيرة ... تلك الدول بنّت مجتمعات تحترم الاختلافات في الرأي وتشجع الحوار المفتوح، لأنها تدرك الفوائد الكبيرة للنقد الهادف في تحسين الحوكمة والمؤسسات والسياسات.

يساعد النقد البناء على تعزيز مبدأ المساءلة، ويحث المسؤولين على تلبية احتياجات الشعب. ولكي يكون النقد فعالا، يجب أن يكون مركزا وموجها نحو الحلول وليس مجرد شكاوى بلا هدف ولا جدوى.

لهذه الأسباب يعد تعزيز الوعي السياسي بين الجمهور أمرا بالغ الأهمية. عندما يفهم المواطنون حقوقهم ومسؤولياتهم ويتمكنون من الوصول إلى المعلومات بشفافية، يمكنهم المشاركة بشكل فعال في مناقشات هادفة حول مستقبل بلادهم.

ويمكن لوسائل الإعلام أن تلعب دورا حيويا في هذا السياق، فالمؤسسات الديمقراطية تعتبر وسائل الإعلام "السلطة الرابعة" جنبا إلى جنب مع السلطة القضائية والبرلمان والحكومة. تتحمل الصحافة والإعلام مسؤولية أخلاقية لتعزيز الممارسات الإيجابية داخل البلاد، وفضح الأخطاء والانتهاكات عبر نقد بناء ومدرّس ليتم التعامل مع تلك الأخطاء.

عندما تسلط وسائل الإعلام الضوء على الفساد أو الأخطاء، يصبح المسؤولون أكثر حرصا ووعيا في عملهم، مدركين أن المراقبة العامة ستحملهم المسؤولية وتساعد أيضا على زيادة الشفافية وترسيخ ثقافة النزاهة والاجتهاد.

في المجتمعات التي تتمتع فيها وسائل الإعلام بالاستقلالية والحرية، يحصل المواطنون على معلومات دقيقة ولا يمكن للحكومة أن تتصرف دون محاسبة. عندما يكشف الإعلام بعض جوانب القصور الحكومي، يصبح هذا الكشف من قضايا الرأي العام عندها تتصرف الحكومة لمعالجة القصور شاءت ذلك أم أبت. لذلك، تفعيل دور الإعلام ضروري لبناء الثقة بين الجمهور والحكومة ولتشجيع الإصلاحات التي تخدم في النهاية مصلحة الشعب والدولة ككل.

إن الوعي السياسي يتجاوز فهم الأحداث الجارية ليشمل المشاركة النشطة في العملية الديمقراطية ... هذا يعني أن على الناس التصويت وانتخاب الأفراد الأمناء الذين يضعون المصلحة العامة

فوق المصالح الشخصية. المصلحة العامة تعود بالنفع على الجميع، وتخلق الاستقرار والنمو الاقتصادي والوئام الاجتماعي، بينما تخدم المصالح الشخصية عادة فئة صغيرة على حساب المجتمع بأسره.

ينبغي على المواطنين أن يدركوا القوة الحقيقية التي يمتلكونها من خلال ممارسة حقهم في التصويت، وأن يستخدموا هذا الحق بمسؤولية كاملة لدعم المرشحين الذين يتمتعون بالنزاهة والكفاءة والالتزام الصادق بخدمة الوطن. فقط عندما يحدث ذلك يمكن للديمقراطية أن تعمل بكامل طاقتها وتنتج قادة يتحملون المسؤولية أمام الشعب ويعملون لصالحه.

على الجانب الآخر، يجب أن يكون الوزراء وجميع المسؤولين العموميين على دراية تامة بأن القيادة لا تقوم على الوعود أو الأقوال، بل على النتائج الفعلية الملموسة التي يحققونها على الأرض. القيادة الحقيقية تعني الالتزام بالأفعال وليس مجرد الكلام ... الأمر ليس فقط بتقديم الوعود، بل بتحقيقها ... ولا يجدر بمسؤول أن يقول "سنفعل" بل ينتظر منهم أن يقولوا "أنجزنا أو فعلنا" ... لقد ولى زمن التصريحات والخطب الرنانة التي لا قيمة لها ... ما تحتاجه الأمة الآن هو الإنجاز والعمل الجاد.

القيادة تعني المثابرة والعمل بهدوء وتصميم على الإنجاز ... وعلى المسؤولين ألا ينتظروا المدح من أحد، بل يجب أن يجعلوا أفعالهم تتحدث عنهم ... فلا مجال للوعود والأحاديث الفارغة.

في هذه المرحلة الحساسة التي تمر بها البلاد، يتطلب الأمر تفانيا غير عادي وجهد مستمر من كل فرد في المجتمع ... من الشعب والحكومة. التعافي لن يأتي عبر الكلمات أو الخطابات، بل

عبر العمل الجاد والحوكمة النزيهة والالتزام المستمر. يجب أن يكون التقدم واضحا ومرئيا للناس، وليس كافيا أن يسمعو عن التغيير، بل يجب أن يروا نتائجه بأعينهم ويشعرون به في حياتهم اليومية.

ينبغي على كل مسؤول أن يدرك جيدا أن غيابه عن المشهد العام لن يثير حزن الناس أو يثير اهتمامهم كثيرا، فالمهم ليس مجرد الظهور على الشاشات أو الإعلام، بل جوهر ما يقدمونه من إنجازات وتأثير إيجابي. يجب أن يظهر المسؤولون أمام الجمهور فقط عندما يكون لديهم ما يبرر ذلك من إنجازات حقيقية، فالجمهور لا يتوق عادة للخطابات الفارغة أو الوعود التي لا تتحقق، بل يريد نتائج تلمس الواقع. في نهاية المطاف، يُقدّر الناس العمل والنتائج أكثر بكثير من الكلمات والخطب التي تخلو من التقدم الحقيقي كما كانوا يرون ويسمعون في السابق ... فالعصا السحرية التي لم تعمل في الماضي ... لن تعمل في الحاضر ولا مكان لها في المستقبل.

في هذا الصدد، قال سعود: "يجب أن نضع في اعتبارنا دائما أن العدالة هي الأساس التي يُبنى عليها كل شيء دائم وذو معنى، فهي حجر الزاوية لأي مجتمع مستقر، والمبدأ التوجيهي للإدارة الحكيمة، والأساس الذي تبنى عليه الثقة بين الناس والمؤسسات. بدون العدالة، تفقد القوانين شرعيتها وتنهار الأنظمة وتتفاقم الانقسامات بين فئات المجتمع".

تابع سعود قائلا: "العدالة هي الضمان الحقيقي للحقوق وحماية للمسؤوليات التي تقع على عاتق الأفراد والمؤسسات، وهي التي تعطي الحرية قيمتها وتمنح الوحدة قوتها وتحفظ كرامة الإنسان.

سواء كان الأمر يتعلق ببناء أمة أو قيادة مجتمع أو اتخاذ القرارات ... يجب أن تكون العدالة هي جوهر كل عمل وتصرف ... عندما ينتشر العدل يتبعه السلام والازدهار والتقدم بلا شك".

"هناك أمر مهم آخر"، قال عبد الحميد. "وهو لا يقل أهمية عن العدالة ... إنه يحفظها ويساعد على تطبيقها وهو وجود دستور واضح وعادل. الدستور هو العمود الفقري لإدارة الدولة فهو الذي يضع القواعد ويقسم السلطات ويحمي حقوق المواطنين ويحدد مسؤوليات وواجبات المسؤولين".

"كتابة دستور ليس كافيا"، أضاف تميم. "بل يجب أن يكون محددا بوضوح لما يُسمح لكل مسؤول بالقيام به، خصوصا كبار المسؤولين، لأنه بدون قيود واضحة يصبح من السهل جدا استغلال السلطة بشكل سلبي".

"تأمل على سبيل المثال فترات الرئاسة"، قال ياسر. "إذا لم يُحدد الدستور مدة واضحة مثل فترتين كحد أقصى كل منهما أربع سنوات، فإن ذلك يفتح الباب أمام خطر استمرارية التمسك بالسلطة إلى فترات طويلة ... وهذا خطر كبير على مستقبل الأمة".

"هنا تكمن أهمية دور البرلمان المنتخب من الشعب"، قال عبد الرحمن. "هو المسؤول عن مراجعة أي دستور جديد بعناية فائقة لضمان أنه يخدم مصلحة البلاد. وإذا لم يفعلوا ذلك، فمن حق الشعب أن يعلن رفضه لأي دستور لا يلبي تطلعاته ... بل ويعاقب أعضاء مجلس الشعب من خلال الصناديق وعملية التصويت في الانتخابات المقبلة".

"هذا صحيح"، قال عبد الحميد. "أي برلماني مسؤول وواعي اجتماعيا لن يوافق على دستور لا يحمي الشعب ولا يوقف تجاوزات الحكومة إن وجدت بشكل فعلي".

"الدستور المؤثر والمقبول لدى الشعب هو الذي يضمن أن الجميع مسؤولون"، أكد تميم. "سواء كان رئيساً أو مروبوساً أو وزيراً أو أي شخص آخر ... فلا ينبغي لأحد أن يكون فوق القانون".

"بالضبط"، قال ياسر. "هذا هو جوهر الحكم العادل والنظام. إذا ارتكب الرئيس خطأ جسيماً أو هدد مصالح المواطنين يجب أن يكون مسؤولاً أمام البرلمان ... بدون هذه الضوابط، يمكن أن يظهر الاستبداد ويتغلغل في النظام مرة أخرى".

"لذلك، فإن اعتماد دستور واضح ليس مجرد خطوة قانونية روتينية"، أضاف عبد الرحمن. "هو علامة حاسمة على تقدم وتطور البلد ... وهو يضمن العدالة ويحمي الحقوق ويحافظ على توازن السلطات".

"يجب أن يكون الدستور وثيقة حية تخدم الشعب بأكمله"، قال عبد الحميد. "ليس فقط من هم في مراكز السلطة".

في سياق الحديث عن الدستور، يجب التذكير بأن الدستور ليس بديلاً عن الشريعة الإسلامية، بل هو وثيقة تنظيمية تهدف إلى ضبط مسار وشكل الحكم داخل الدولة. الدستور يحدد كيفية توزيع السلطات وصلاحياتها، ويؤسس لقواعد تحكم العلاقة بين الشعب والحكومة، بما يضمن استقرار الدولة وسير عمل مؤسساتها بشكل منظم. أما الشريعة الإسلامية، فهي نظام شامل ومتكامل يغطي جوانب الحياة كافة، ولا يمكن اختزالها أو استبدالها بوثيقة من صنع البشر.

وقد نلاحظ وجود قلق أو خوف لدى بعض الناس في سوريا وفي غيرها من الدول العربية والإسلامية بشأن تطبيق الشريعة الإسلامية. وهذا القلق في كثير من الأحيان ينبع من مخاوف تتعلق بالاستبداد. لكن في الحقيقة، كل إنسان نزيه وصادق في طلبه للعدالة وحفظ حقوقه وحقوق الآخرين، لا ينبغي أن يعارض تطبيق الشريعة، لأن الشريعة في جوهرها تحمي حقوق الجميع بلا استثناء. فهي نظام عادل يكرّس مبادئ الحق والمساواة، ويعمل على تحقيق السلامة الاجتماعية والأمن المجتمعي.

أما المخاوف من استغلال الشريعة كأداة للتسلط والقمع، فإنها غالباً ما تكون نابعة من تجارب سابقة أو من انعدام الوعي الكامل بدور المجتمع والشعب في حماية حقوقه. ومع سقوط الأنظمة الاستبدادية السابقة وارتفاع مستوى الوعي الشعبي بحقوقه وواجباته، تصبح هذه المخاوف لا داعي لها. فالشعب الواعي هو الحارس الحقيقي لمنع أي استغلال أو تحكم ظالم، لأنه هو السلطة الحقيقية التي تمارس الحكم من خلال مؤسساتها الشرعية.

الشريعة الإسلامية هي أفضل الأنظمة التي تحقق العدالة والمساواة بين الناس، فهي تركز على قيم أخلاقية واجتماعية راسخة، تشمل الصدق والأمانة والتسامح، وكلها قيم تساعد على بناء مجتمع متماسك ومتراابط. أما العقوبات التي نصت عليها الشريعة، فهدفها ليس العقاب بحد ذاته، بل تهدف إلى حفظ الأمن وحماية الحقوق لجميع الأفراد داخل المجتمع، لضمان العدل والسلامة العامة والقضاء على الفساد وكافة الطرق المؤدية إليه.

وفيما يتعلق بقضايا الفساد، فقد سلط أحمد التراك الضوء على هذا الموضوع "موضحاً أنها واحدة من أهم العقبات التي تعرقل التنمية ... الفساد يستنزف الموارد الوطنية ويدمر الثقة بين الناس والمؤسسات ويضعف قدرة الدولة على العمل بفعالية. يجب أن يكون الجميع في معركة مستمرة لمحاربته".

"أُتفق معك تماماً"، قال تميم. "ولمكافحة الفساد بفعالية، نحتاج إلى وجود هيئات مستقلة لديها صلاحيات للتدقيق والتحقيق في كل شيء وفي كل الإجراءات الحكومية بدون تدخل أي طرف أو أي مسؤول ... صغير أو كبير".

"نعم، هذا مهم للغاية"، أكد ياسر. "تأسيس هيئات مستقلة مثل ديوان المحاسبة وهي سلطة مستقلة تتبع لمجلس الشعب أو للسلطة القضائية ولا يكون للحكومة أي دور فيها ... عندما تكون هذه المؤسسات مستقلة، يمكنها كشف الفساد بكل حيادية ومحاسبة المسؤولين، مهما كانت مواقعهم أو نفوذهم".

"احترام استقلال هذه الهيئات أمر لا غنى عنه"، قال أحمد. "فلا يمكن للحكومة أن تتدخل ويجب ألا يسمح لها بالتدخل، بل ويتم محاسبتها على ذلك إن حاولت التدخل ... من أعلى مسؤول فيها إلى أدناها ... هذا إن أردنا شفافية حقيقية ونظاماً نزيها يعزز ثقة الناس في مؤسسات الدولة، وإن لم يتحقق ذلك ... فكل الجهود والإنجازات السابقة ستكون على المحك!"

قال عبد الحميد بكل تأكيد ووضوح: "عندما تُفرض الشفافية والمساءلة على العمل الحكومي، يمكن أن تزدهر الخدمات العامة بشكل كبير ويبدأ الفساد في التراجع والاختفاء تدريجياً. هذه هي

القاعدة والطريقة التي نؤسس بها لبناء قاعدة قوية ومتينة تحقق التقدم الاقتصادي والاجتماعي المستدام".

"تبنى سياسة النقد البناء أمر في غاية الأهمية أيضا"، قال ياسر. "فلا ينبغي أبدا اعتبار النقد البناء الذي يهدف إلى الإصلاح وسيلة تهديد، بل يجب أن يُعتبر أداة لتحسين الأداء وتطوير العمل. وهذا يعني بالضرورة أن وسائل الإعلام يجب أن تتمتع بحرية كاملة وتكون مخولة لمراقبة من هم في مراكز السلطة دون تدخل أو قيود تفرض عليها".

وأشار عبد الرحمن إلى أن "دفع سوريا إلى الأمام يتطلب بناء نظام يعتمد على الثقة والانفتاح في كل مستويات الحكم والإدارة ... وأن تكون الشفافية جزءا لا يتجزأ من طبيعة العمل الرسمي".

وأوضح عبد الحميد "أن الطريق طويل وصعب لكنه واجب ولا غنى عنه ... إذا أردنا أن نحقق ما نصبوا إليه من مستقبل عادل ومزدهر للجميع...فإن هذه التغييرات ليست خيارا، بل ضرورة حتمية يجب الالتزام بها".

رغم كل التحديات التي تواجه سوريا، فإن الشعب السوري يحمل في داخله شعورا عميقا بالأمل وآمالا كبيرة لمستقبل أفضل. بعد سنوات طويلة من المعاناة والنضال، يتطلع السوريون إلى الحكومة بعين ملؤها الرغبة في التغيير الإيجابي والاستقرار والتقدم الحقيقي ... هذه لحظة حاسمة ومصيرية في تاريخ البلاد، ويجب على الحكومة أن تستجيب لهذه الآمال الكبيرة بالالتزام لا يتزعزع وكفاءة عالية وشفافية مطلقة.

ولا يكفي مجرد الاعتراف بهذه التطلعات، فالمسؤولية تقع على عاتق الحكومة لتعمل بحزم وفعالية لتلبية احتياجات الشعب وتطلعاته. سواء تعلق الأمر بإعادة بناء البنية التحتية المتضررة أو تحقيق العدالة أو دفع عجلة النمو الاقتصادي أو تعزيز الوحدة الوطنية والاجتماعية ... يجب على القادة أن يثبتوا قدرتهم على تحقيق تحسينات ملموسة وحقيقية تؤثر إيجابيا في حياة المواطنين اليومية وينبغي أن يكون شعارهم "اعمل أو دع"؛ أي كل مسؤول لا يمكنه تحمل المسؤولية عليها أن يغادر ويترك المنصب لمن هو أهل له وجدير به ... وحتى تتجنب الحكومة كافة الأخطاء السابقة التي عطلت عجلة التنمية في سوريا.

ثقة الشعب السوري هي تفويض قوي، ولكنه يأتي مصحوبا بضغط هائل، وعلى الحكومة أن تقبل هذا التحدي بكل صدق وإخلاص وأن تثبت من خلال أعمالها المتسقة أنها تستحق هذه الثقة. فقط من خلال هذا الالتزام يمكن للأمة أن تتقدم نحو مستقبل يعمه السلام والازدهار ويحفظ كرامة كل أبناء الوطن.

هناك جانب آخر مهم جدا من جوانب الحكم وغالبا ما يتم تجاهله على مستوى عالمي وهو الإفصاح المالي ... ولكن يمكن لسوريا أن تكون سبّاقة في هذا الشأن ... الشفافية في الشؤون المالية للمسؤولين الحكوميين وكذلك أعضاء مجلس الشعب ليست ضرورية فقط لحماية الأموال العامة من الهدر أو الفساد أو حتى السرقة، بل هي ضرورية أيضا لحماية هؤلاء المسؤولين أنفسهم من الشبهات والالتهامات التي قد تكون لا أساس لها. يجب أن يرحب كل مسؤول نزيه بالإفصاح المالي كجزء طبيعي وضروري من خدمته العامة، لأنه يعكس النزاهة والالتزام بالمساءلة.

في الواقع، قد يؤدي رفض الإفصاح المالي إلى علامات استفهام كثيرة ... فقد تكون معارضة الشفافية دليلاً على وجود مصالح خفية أو نوايا سلبية لاستغلال الموارد العامة لأهداف شخصية ضيقة. لذلك، تُعد الشفافية أداة فعالة وراذعة ضد الفساد وإساءة استخدام السلطة. ويجب على أي مسؤول نزيه أن يرحب بالإفصاح المالي لأنه يدل على النزاهة والالتزام بالمساءلة.

تاريخياً، مفهوم الإفصاح المالي ليس بالجديد، فقد كان أول من طبقه كنظام لمراقبة ثروة المسؤولين هو الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه. لقد وضع نظاماً لمراقبة أموال المسؤولين في عهده من خلال الكشف عن ذممهم المالية قبل توليهم السلطة ومقارنة ثرواتهم في بداية عملهم وعند نهايته، فإذا تم اكتشاف زيادة غير مبررة في ثروة أحد المسؤولين، يتم إعادة حساب المبلغ الذي كان من الممكن أن يكسبه بشكل شرعي خلال تلك الفترة، ويُطلب منه إعادة الفائض إلى خزانة الدولة أو بيت مال المسلمين كما كان يسمى.

شكلت هذه الممارسة نموذجاً مبتكراً وفريداً للنزاهة المالية والمساءلة في الحكم، مما يدل على أن حماية الموارد العامة كانت ولا تزال من أولويات الحوكمة الفعالة. وهذا أيضاً دليل آخر لمن يخشى تطبيق الشريعة ... بل يمثل هذه الشريعة تحمى حقوق الجميع.

لذلك فإن الإفصاح المالي أداة قوية لتعزيز الشفافية وضمان استخدام الأموال العامة بطريقة سليمة ومسؤولة، كما يبني الثقة بين المواطنين وحكوماتهم. عندما يكشف المسؤولون علناً عن أصولهم المالية وثرواتهم يتلاشى خطر الفساد بشكل كبير، ويطمئن الجمهور إلى أن مواردهم محفوظة وتُستخدم للأغراض التي خُصصت لها.

ويجب أن تتم هذه العملية بحذر شديد وإنزال أقصى عقوبة ممكنة بمن يتحايل أو يتلاعب بهذا الأمر لأن فيه خيانة للدولة وللشعب بأكمله. يجب أن يكون هناك عقوبات رادعة تردع كل من تسول له نفسه بالمخالفة كمن ينقل أمواله إلى غيره ليستغل منصبه أثناء عمله. فالأصل في العقوبات الردع، وإن لم تكن رادعة فلا قيمة لها.

إن الإفصاح المالي يحمي المسؤولين من الاتهامات الباطلة، فحين تكون ثرواتهم معروفة وواضحة للجميع، يصبح من الصعب على أي شخص أن يتهمم زورا بالفساد أو المخالفات المالية. وهكذا، تعمل الشفافية كدرع يحمي الموظفين العموميين الشرفاء قبل غيرهم ويتيح لهم أداء مهامهم بكرامة وثقة.

المساءلة أيضا مبدأ أساسي لا يقل أهمية عن الإفصاح المالي. المساءلة ليست عيبا كما يظن البعض، بل هي آلية حيوية تشجع المسؤولين على العمل بجدية والتزام أكبر. عندما يعلم المسؤولون أن أداءهم مراقب وأن أي خطأ أو إهمال سيتم ملاحظته ومحاسبتهم عليه، سيجعلهم هذا يبذلون أقصى جهد ممكن لتحقيق النجاح في أعمالهم ومهامهم.

تعمل المساءلة كحارس على جودة العمل واثقانه وتضمن أن الأشخاص المؤهلين والمناسبين فقط يتم تعيينهم في المواقع القيادية، مما يمنع وصول غير الأكفاء إلى السلطة... ويعزز كفاءة وفعالية العمل الحكومي بشكل عام.

وتخلق المساواة ثقافة عمل تحفز المسؤولين على وضع المصلحة العامة فوق المصالح الشخصية، فهم يدركون أن أداءهم سيُقيم وأن الفشل في تحقيق النتائج المطلوبة سيكون له تبعات، مما يعزز مناخ العمل المهني والأخلاقي الذي يلبي احتياجات وتوقعات المواطنين.

إلى جانب الإفصاح المالي والمساءلة، تعد التعددية السياسية من الخصائص الحيوية لأي نظام سياسي صحي ... وإن فتح الباب أمام وجود عدة أحزاب سياسية يعزز المنافسة بينها، مما يدفع نحو حوكمة أفضل وخدمات أكثر تميزاً في البلاد.

عندما تتنافس الأحزاب على السلطة، فإنها تقدم برامج وسياسات واضحة تهدف لكسب ثقة الناخبين، مما يشجع على الشفافية والاستجابة لتطلعات الشعب والابتكار. وبالنهاية، يستفيد المواطنون من ذلك لأن الأحزاب تسعى جاهدة لمعالجة مشاكلهم وتحقيق تطلعاتهم ... كما تتسابق هذه الأحزاب إلى تحقيق الأهداف الوطنية.

أما البلدان التي تعتمد نظام الحزب الواحد، فغالبا ما تواجه مشاكل كبيرة، إذ يحتكر حزب واحد السلطة بشكل مطلق، ما يؤدي إلى استبداد هذا الحزب وقادته. بدون منافسة حقيقية أو تهديد بزوال السلطة، يصبح الحزب غير فعال وربما فاسد لانعدام المنافسة، حيث يحتفظ بحكم البلاد بغض النظر عما إذا كان يخدم المصلحة العامة أم لا، مما يؤدي إلى الركود أحيانا وإلى القمع والتسلط في أحيان أخرى.

لذلك، تعتبر التعددية السياسية ضمانة حيوية ضد الاستبداد والحكم غير الخاضع للمساءلة، فهي تضمن بقاء السلطة تحت اختيار الشعب ويجب على القادة أن يكسبوا ثقة المواطنين بشكل مستمر.

وفي مثل هذه الأنظمة، تكون الأحزاب السياسية مهتمة بجدية في تعزيز الحكم العادل لأن وجودها وبقاؤها يعتمدان على موافقة الشعب ودعمه.

أما بالنسبة للدستور، فينبغي أن يكون الشعب السوري هو الحارس الحقيقي له، وهو الجهة التي يجب أن يكون لها القول الفصل في تطبيقه وإنفاذه على أرض الواقع. ولكي يعمل أي دستور بشكل فعال وعادل ويحقق الغايات المرجوة منه يجب أن يكون المواطنون على درجة عالية من الوعي السياسي وأن يشاركوا بنشاط كامل في العملية السياسية بكل أبعادها.

تبدأ هذه المشاركة المهمة والأساسية بالقدرة على انتخاب المسؤولين الذين يخدمون المصلحة العامة بأمانة وإخلاص، وبنفس الأهمية، يجب أن يمتلك المواطنون السلطة الكاملة لعزل هؤلاء المسؤولين من خلال عملية الاقتراع الديمقراطي الشفافة عندما يفشلون في الوفاء بالتزاماتهم أو تلبية توقعاتهم.

الوعي السياسي بين الناس ليس مجرد حاجة، بل هو أمر أساسي لا غنى عنه. إنه هو الذي يُمكن المواطنين من المطالبة بالمساءلة والشفافية، ويضمن أن يدرك من هم في مواقع السلطة أن دورهم مؤقت ومشروط بحسن العمل والأداء. عندما يعلم الناس أنهم قادرون على إزاحة المسؤولين المنتخبين، بمن فيهم الرؤساء، من خلال انتخابات دورية منتظمة وحرّة ونزيهة، فإن ذلك يخلق نظام ضوابط وتوازنات قوي يحفز المسؤولين على أداء واجباتهم بمسؤولية كاملة، عندها يعلم الجميع بأن الدولة لا تتوقف على شخص كما كان يدعي النظام السابق ... عندما ذهب ذلك النظام تبيّن الجميع أن الدولة ما كان لها أن تتطور بوجوده ... وهذا ينطبق على كل نظام غيره.

وإذا اقتنع أكثر الناس بأن الدولة تتوقف على شخص ... فعلى الدولة السلام ... لأن هذا منطق أعوج لا تستقيم معه أي دولة حديثة أو يراد لها أن تبني بناء حديثا ... لأنه وبكل بساطة، هذا الشخص عرضة للموت أو أي نازلة أخرى تهلكه ... فهل ستموت الدولة لموته!

هذا النظام الديمقراطي يتطلب من الجميع قدرا من الصبر والواقعية، فالحقيقة أن سوريا بلد يعاني من جراح عميقة وتحديات كثيرة ومعقدة، ولن يتحقق تعافيتها الكامل بين عشية وضحاها. ينبغي أن يعلم الجميع أن إعادة بناء الأمة على المستويات المادية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية يحتاج إلى وقت طويل وجهود مستمرة، وينبغي منح الحكومة فرصة عادلة ليثبتوا التزامهم وقدرتهم على التغيير، مع إدراكهم أن التقدم الحقيقي يحدث تدريجيا.

وهذا لا يعني أبدا القبول بالفشل أو السكوت على الفساد، بل يعني اعتماد نهج متوازن يسمح بالنمو والإصلاح المستمر مع إبقاء المسؤولين دائما تحت مراقبة الشعب والإعلام – إن كان إعلاما نزيها – ومحاسبته المستمرة.

في هذا السياق، قال يوسف: "بعيدا عن القوانين والمؤسسات ... الناس أنفسهم بحاجة إلى تعزيز ثقافة الاحترام، احترام الأمة واحترام بعضهم البعض واحترام سيادة القانون ... احترام المجتمع لنفسه هو ما يجعل القادة يحترمونه بدورهم ... حقوق وكرامة كل فرد من أفراد الشعب".

"هذا الاحترام يشكل في جوهره أساس المجتمع المتحضر"، قال عبد الحميد. "إنه يبني العقد الاجتماعي الذي يربط بين الشعب والحكومة ويؤسس لبيئة تسودها الثقة والاحترام المتبادل".

وأكد تميم " على أهمية وضع حدود واضحة لفترات ولاية الرؤساء والمسؤولين في أي نظام ديمقراطي مقبل، مشيرا إلى أنه عندما يعلم الجميع بأن مدة الخدمة محددة مثل أربع سنوات مع إمكانية إعادة الانتخاب مرة واحدة فقط ... هذا يجعل المسؤولين أكثر نشاطا ويبدلوا قسارى جهدهم لخدمة الشعب".

قال ياسر اتفق معك تماما: "إن وجود موعد محدد بدقة لولاية المسؤولين يخلق إحساسا بالمسؤولية والاستفادة القصوى من الوقت لتحقيق الإنجازات ... لأنهم يدركون أن مستقبلهم يعتمد على جودة أدائهم، لذا فهم من الناحية العملية يضعون المصلحة العامة في المقام الأول وفوق كل اعتبار وذلك لإرضاء الشعب".

"الولاية الأولى غالبا ما يركز فيها القادة على بناء الثقة مع الشعب وإثبات جدارتهم للحصول على ولاية ثانية"، أضاف عبد الرحمن. "بينما تكون الولاية الثانية فرصة لترسيخ إرث إيجابي وضمان استمرار قوة الحزب الذي ينتمي إليه الرئيس المنتخب ... وفي كلا الحالتين تعود كافة المنافع للشعب نفسه".

أشار يوسف إلى أن "المقارنة بين هذا النظام والأنظمة التي يبقى فيها المسؤولون في السلطة إلى أجل غير مسمى، وأحيانا مدى الحياة، تكشف الفرق بوضوح. ففي الأنظمة التي لا توجد فيها حدود للولاية، يتولد الشعور بالرضا عن الذات والفساد، حيث يركز المسؤولون على مصالحهم الشخصية والحفاظ على السلطة بدلا من خدمة الشعب".

"إن تاريخ سوريا الحديث يعكس هذه الحقيقة بوضوح"، قال عبد الحميد. "حيث غالبا ما يتمسك القادة بالسلطة من خلال القسر والتلاعب والتزوير وليس عبر الدعم الشعبي أو انتخابات حقيقية".

أضاف تميم بأن "تركيز السلطة في يد عدد قليل من الأشخاص يقضي على فرص الأفكار الجديدة والابتكار، ويقوض الثقة بين الحكومة والشعب".

"وغياب المنافسة والمساءلة يؤدي إلى توقف التقدم"، قال ياسر. "ويزيد من حدة الاستياء والاحتقان الشعبي".

ومن بين الجوانب الأخرى المهمة التي يمكن أن تساعد في إدارة البلاد خلال هذه المرحلة الانتقالية الحرجة هي اللامركزية، التي تمثل خطوة مهمة وأساسية نحو دفع الإصلاح وتسريع وتيرة التنمية على المستوى الوطني. إذ تعمل اللامركزية على تخفيف العبء عن الإدارة المركزية التي غالبا ما تواجه صعوبات في التعامل مع الكم الكبير من القضايا والمشكلات الملحة، كما تبسط الإجراءات البيروقراطية وتساهم في تسهيل وتسريع عملية صنع القرار.

تساعد اللامركزية في توفير الوقت والموارد وتضمن معالجة أكثر كفاءة وفعالية للمهام على مختلف المستويات الإدارية. فالنهج اللامركزي يسمح بتفويض السلطات والمهام إلى المكاتب والإدارات المحلية، وأحيانا حتى إلى بعض الوزارات من خلال منحها صلاحيات اتخاذ قرارات مستقلة تدعم مبادرات التنمية وتنفيذها بشكل مباشر على أرض الواقع.

تتيح اللامركزية مشاركة أوسع للمجتمعات المحلية في اتخاذ القرارات وتخفف العبء على الإدارة المركزية للتفرغ للقضايا المهمة والكبيرة وتترك الأمور الثانوية للجهات المعنية مثل موضوع

ضبط الأسعار والجمارك والرسوم واتخاذ كل إجراء ممكن لحماية المواطن أو المستهلك وألا يترك الأمر للتجار لأنه لو ترك لهم سيتسببون بمجاعة على مستوى الدولة ولا يرف لهم رمش أو يراودهم شعور بالخجل أو غيره ... جشع كثير من التجار تسبب بكثير من المصائب سواء في الوقت الحالي أو السابق ... أو منذ القدم.

بالإضافة إلى ذلك، قال يوسف: "إنشاء دولة متحضرة جديدة ليس بالأمر السهل أو البسيط، بل هو عملية معقدة تتطلب تضافر جهود متعددة في مجالات السياسة والقانون والاقتصاد والثقافة وغيرها من الجوانب الحيوية ... بناء دولة حديثة يتطلب مزيجا دقيقا من هذه العناصر بحيث تعمل بتكامل لتحقيق الاستقرار المنشود".

"بالتأكيد"، أجاب محمد. "كل شيء يبدأ باعتماد رؤية واضحة وأهداف محددة للأمة ... من الضروري تحديد الهوية الوطنية والقيم التي يجب أن يركز عليها المجتمع، لأن غياب هذه الأسس ربما يؤدي إلى تقويض الجهود التي بذلت".

وشدد يوسف على أهمية الجانب الاقتصادي بقوله "بدون وجود اقتصاد مستدام ومرن لا يمكن لأي دولة أن تزدهر أو تحقق تقدما حقيقيا. ويحتاج الاقتصاد إلى تنوع في الصناعات واستقرار في العملة الوطنية لتعزيز التجارة وجذب الاستثمارات، بالإضافة إلى دعم تدفق رؤوس الأموال المملوكة من قبل السوريين العاملين في الخارج والذين يرغبون بذلك، ولكن لا زالت أمامهم العديد من العوائق مثل عدم استقرار سعر الصرف وارتفاع الأسعار المبالغ فيها والغير مبررة

في كافة أنحاء البلاد وغير ذلك من العوائق ... إذا تم معالجة هذه المشاكل ستكون تلك الأموال العائدة إلى الوطن بمثابة دعامة قوية للنمو الاقتصادي".

أضاف محمد بأن "البنية التحتية والاجتماعية تلعب دورا رئيسيا في بناء الدولة، ويشمل ذلك بناء نظم تعليمية قوية وإنشاء مرافق عامة موثوقة بالإضافة إلى اتخاذ كافة الإجراءات الممكنة لحماية الفئات الأكثر ضعفا في المجتمع".

وأشار عبد الحميد إلى "أهمية التنمية الثقافية في توحيد المجتمع وتعزيز الهوية الوطنية والحفاظ على التراث الثقافي والمعالم الوطنية، مع التأكيد على ضرورة دعم حرية التعبير وحقوق الإنسان كجزء لا يتجزأ من بناء الدولة الحديثة".

كما تحدث إبراهيم عن "ضرورة تعزيز الدبلوماسية كعنصر حاسم لنجاح سوريا في المستقبل، موضحا أن وضع أهداف واضحة للسياسة الخارجية وبناء تحالفات قوية والانخراط في التعاون الدولي من شأنه أن يضمن أمن البلاد واستقرارها على المدى الطويل".

"والتنمية المستدامة تمثل جانبا مهما آخر يجب مراعاته"، قال يوسف. "لا بد من تحقيق توازن بين النمو الاقتصادي ومتطلبات الدولة مع التخطيط للمستقبل وحماية البيئة التي تعرضت لأضرار كبيرة خلال سنوات الحرب".

"التركيز على هذه الأمور يؤدي إلى بناء دولة قوية ومتقدمة"، قال محمد. "لكنه بنفس الوقت يحتاج إلى تنسيق عال والتزام مستمر لتحقيق النجاح الذي يطمح إليه الشعب".

"وجود أساس متين في هذه المجالات"، قال عبد الحميد، "هو ما يمكن سوريا من تأسيس دولة متحضرة وعادلة ومزدهرة يعود نفعها لكل مواطن داخل البلاد أو خارجها".

في البلدان المتقدمة، أصبح مبدأ المساءلة جزءا لا يتجزأ من الثقافة السياسية، حيث يعمل المسؤولون بمسؤولية مستمرة مع وعي كامل بأنهم قد يُحاسَبون على أفعالهم. وعادة ما يتم الاعتراف بالأخطاء بشكل علني، وغالبا ما يستقيل المسؤولون أو يواجهون عواقب قانونية عند تقصيرهم أو ارتكابهم أخطاء جسيمة، وهذا يعكس نضج النظام السياسي واحترام الشفافية والمساءلة.

في المقابل، وفي كثير من الدول العربية، تكاد المساءلة تكون غائبة أو شبه معدومة، حيث تحدث الكوارث والإخفاقات والفشل بشكل متكرر دون أن يواجه المسؤولون عواقب ملموسة، وهذا يشير إلى أمور خطيرة مفادها أن المصالح الشخصية والحفاظ على السلطة والامتيازات أهم من المصلحة العامة، مما يؤدي إلى تآكل المؤسسات وفقدان الثقة بين المواطنين وحكوماتهم.

إن القادة الذين يتمسكون بالسلطة بأي ثمن يعرضون بلدانهم لخطر الدمار والفوضى، حيث يؤلّد هذا الاستبداد الاستياء والاضطرابات التي قد تؤدي في النهاية إلى سقوط النظام ... إن القادة الحكماء يدركون أن القوة الحقيقية تكمن في خدمتهم للوطن خلال فترة ولايتهم وتحضير البلاد لمواصلة الازدهار بعد رحيلهم.

في بعض الدول العربية والإسلامية، عندما يخدم حاكم بلده يظن أنه قد أصبح المالك الوحيد لذلك البلد ... له مطلق الحق والحكم في البلاد، وهذه نظرة عوراء تدل على قصر نظر صاحبها وربما

عماه... لأنه حتى إن كان قد خدم بلده حقا كما يظن، فإنه بفعله هذا يمهد لدمار نفس البلد لاحقا ولو بعد موته ... الأسس الوحيدة التي تبنى عليها الدولة بناء صحيحا هو تداول السلطة وخدمة البلد، إن لم تكن لله جل وعلا، فللبلد نفسه ولمن يسكنه.

إن الاحترام الطوعي لحدود الولاية ودعم الانتقال السلمي للسلطة يضمن للقادة احترام مواطنيهم وترك إرث إيجابي لأجيال المستقبل، لأن الإرث الحقيقي لا يُقاس بمدة البقاء في السلطة، بل بمدى الإنجازات والخدمة التي قدمها الحاكم للشعب ... ودوره في حماية مستقبل الأمة ... وفي النهاية، يبقى الشعب ويفنى الحاكم أو يعزل أو يطرد أو يهرب خارج البلاد ... وربما أسوأ. في ذلك الوقت يندم الحاكم ... ولكن لا فائدة من الندم ... عندها يكون قد فات الأوان.

يتساءل كثير من الناس عن الفرق بين العرب والغرب ... ولماذا لا يرون ما يحدث في الغرب يحدث في بلادهم! في الدول المتقدمة والمتحضرة، يشعر الناس بأن المسؤولين يستحقون مناصبهم لأنهم يخدمون فترة ثم يتقاعد كل أولئك الرؤساء والقادة بكرامة واحترام ... بينما كثيرا ما يواجه القادة السابقون في العالم العربي نهايات مأساوية أو نفي أو سقوط خاطف.

هم يتساءلون عن أسباب ذلك ... ربما تكون الأسباب معقدة ومتنوعة، لكنها بشكل عام تعود إلى فشل العديد من القادة العرب في العمل بإخلاص أو بخدمة بلادهم كما يجب ... بعضهم يعيش في الوهم ... يتوقعون أن حكمهم سيستمر إلى الأبد ... وأنهم لا يمكن مساءلتهم مهما فعلوا.

ربما كانت ثقتهم نابغة من الوعود والدعم الذي تلقوه من الخارج! ربما حصّن بعضهم أنفسهم باتفاقيات سرية مع قوى خارجية منحتهم شعورا زائفا بالحصانة، مقابل تنازلات كبيرة قدموها

على حساب بلدهم وأمتهم ... ولكن في الواقع لا يمكن بناء إرث إيجابي واحترام حقيقي دون حكم يلبي تطلعات الشعب ... إن تجاهل ذلك يؤدي إلى فصول مظلمة وربما دامية في تاريخ البلاد.

القادة الذين يستولون على السلطة بوسائل غير ديمقراطية عادة ما يكونون عرضة للتلاعب من قبل القوى الأجنبية التي تستغل ضعف شرعيتهم للضغط عليهم والتأثير على سياسات الدولة، بينما يكون القادة المنتخبين ديمقراطيا مسؤولين أمام ناخبيهم ويقبلون محدودية مدة ولايتهم، مما يجعلهم أقل عرضة للابتزاز الخارجي وأكثر حرصا على مصالح وطنهم.

إن القوى الخارجية تدعم في كثير من الأحيان الأنظمة الاستبدادية أو تلك التي يكون حولها علامات استفهام ... لأن ذلك يمنح تلك القوى نفوذا أكبر وتأثيرا على صنع القرار الوطني، وهذا بدوره يكشف لماذا يكون بعض القادة أدوات لتلك القوى ... وهذا بالتأكيد له ضرر بالغ على مصالح الشعوب ويقف حائلا بين الدولة وتطورها ... التطور يعني نهاية نفوذ تلك القوى ونهاية نفوذ الدول المستعمرة.

يتجلى هذا الأمر بوضوح في الفشل المتكرر الذي يتكشف بين العديد من القادة العرب في اتخاذ خطوات فعالة وجادة لدعم غزة وشعبها الذي يعاني منذ أشهر طويلة من محن وأوضاع إنسانية قاسية لا يمكن تصورها. فمنذ ما يقرب من عامين، يعيش إخواننا وأخواتنا في غزة تحت وطأة ظروف صعبة للغاية، ولكن رغم ذلك، كانت استجابة القيادات العربية، والشارع العربي عموما، مخزية أو ربما غائبة عن المسرح الدولي ... وكأنها لا تزن شيئا أبدا.

هذا الصمت والتقايس لا يعكسان نقصا في القدرات أو الموارد، بل يعكسان نقصا عميقا في الإرادة السياسية الحقيقية، ويرجع ذلك إلى سيادة مهددة وصراعات داخلية وحسابات سياسية أخرى تجعل من دعم القضية الفلسطينية مسألة ثانوية بالنسبة لبعض هذه القيادات.

في نهاية المطاف، يمكننا القول بأن هذه الإخفاقات ليست عشوائية أو مؤقتة، بل هي متجذرة بعمق في التأثيرات المستمرة للاستعمار الذي فرضَ على المنطقة هياكل سياسية واقتصادية لا تزال تحاصر استقلالية الدول العربية وتحد من قدرتها على اتخاذ قرارات حقيقية تحقق مصالح شعوبها. السؤال الحقيقي ليس ما إذا كانت الدول العربية تملك الموارد أو النفوذ الاستراتيجي اللازم لتأكيد مكانتها، فهي تملك ذلك بالفعل، لكن اليد التي تحركها مقيدة بعوامل كثيرة، منها العواقب الناتجة عن أخطاء سياسية سابقة والتحالفات التي تحمي بقاء الأنظمة أكثر مما تحمي كرامة الأمة أو أمنها الوطني!

في ظهر أحد الأيام، كان يوسف يتحدث إلى زميل أمريكي في العمل حول الفروق العميقة بين طبيعة القيادة في بعض البلدان العربية والقيادة في الديمقراطيات الراسخة مثل الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا. قال يوسف: "عندما تحدثت عن رئيس أمريكي سابق، استخدمت كلمة "حكم"، وقلت في حكم فلان" ... عندها قاطعه زميله الأمريكي قائلا: "يا رجل، نحن ليس لدينا حكم لشخص، إنما هي إدارة ... هذا التصحيح البسيط دفع يوسف إلى إعادة التفكير في تلك الكلمة وفهم المعنى العميق وراء ذلك، رغم أن يوسف استخدم الكلمة بشكل عفوي ... أو لأنه اعتاد على مثل هذه الكلمات في بيئة متلوثة سياسيا، فلم يستمر الأمريكي في الحديث قبل أن يصحح الموقف.

كان زميله يعني أن الرؤساء الأمريكيين يُنتخبون لفترات محددة مدتها أربع سنوات، وإذا تميزوا بحسن الأداء فإنهم قد يحصلون على فترة ولاية ثانية ... أما إذا فشلوا في تنفيذ مهامهم بالشكل المطلوب، فإن الناخبين يزيحونهم من خلال العملية الديمقراطية. هذه الآلية تضمن أن لا أحد يمكنه أن يحكم إلى أجل غير مسمى أو يتصرف كما لو كان فوق القانون والمساءلة، إذ يتم تفويض الرئيس لخدمة الشعب لفترة محددة، وهذا هو جوهر ما يعنيه المصطلح "الإدارة".

أدرك يوسف أن هذا النظام الذي يجعل القيادة مؤقتة وتخضع لموافقة ومراقبة الشعب هو الأساس الحاسم لبناء دول قوية وعادلة. هذا النظام يمكّن المواطنين من ممارسة حقوقهم ويعزز العدالة، ويجعل الحكام يلتزمون بخدمة الشعب بجدية ومسؤولية، لأن علمهم بأنهم قد يُحاسَبون في النهاية يحفزهم على العمل بجد والتزام.

أضاف يوسف قائلاً: "أعتقد أن هذا النظام هو أحد الأسباب الجوهرية التي جعلت أمريكا أمة عظيمة، إلى جانب وجود ثقافة قوية للعدالة نسبيًا واحترام الحقوق ... ولا نقول هنا إن الولايات المتحدة خالية من الانتهاكات، أو أن كل فرد يعامل بعدل مطلق، لكن ما نعيه هو أن العدالة النسبية هي القاعدة السائدة، وهو أمر يكاد يكون غائبًا في العديد من البلدان الأخرى".

هذا التباين واضح بشكل كبير، فالكثير من البلدان العربية لا تزال تعاني من فساد متجذر وانعدام المساءلة ... وقادة يتمسكون بالسلطة إلى أجل غير مسمى، مما يخلق ثقافة سياسية حيث العدالة تبدو بعيدة المنال ويشعر المواطن العادي بالعجز واليأس.

غياب التجديد السياسي يعني أن الأخطاء تتكرر ولا يتم تصحيحها والقادة لا يعاقبون على سوء الحكم أو الفساد ... عندما لا يخضع القادة للمحاسبة القانونية أو الشعبية، تتآكل ثقة المواطنين في الحكومة ويصبح عدم الاستقرار السياسي أمرا حتميا. وعلى النقيض من ذلك، فإن الدول التي تصنع مؤسسات قوية للمساءلة وتضمن انتقال السلطة بسلام، تخلق بيئة مناسبة للتماسك الاجتماعي والتنمية الاقتصادية المستدامة واحترام حقوق الإنسان.

وهناك مبدأ أساسي كثيرا ما يُغفل، وهو أن الحكومة تعكس طبيعة المجتمع الذي تخدمه. عندما يكون الناس متفائلين ومتحدين حول أهداف مشتركة ويكرسون جهودهم لبناء وطنهم، فإن الحكومة ستبتلع نفس النهج حتما ... أما إذا كان المجتمع ممزقا أو فاسدا أو يعاني من الانهزامية، فمن غير المنطقي أن تحكمه حكومة نزيهة وشريفة.

لا يمكن ببساطة أن تكون هناك حكومة فاسدة ومكونة من مسؤولين فاسدين تخدم شعبا شريفا ومثقفا ومنخرطا سياسيا. وكذلك من غير المنطقي أن تتوقع حكومة عادلة ومنصفة تنشأ من مجتمع يعاني من الفساد أو الجهل أو الانقسام. فالشعب والحكومة يعكسان بعضهما البعض ويكملان بعضهما، وهذا يعني أن التقدم الحقيقي يتطلب وجود مواطنين واعين سياسيا وقادة يتحلون بالمسؤولية والاستجابة لاحتياجات الشعب. ومن هنا تأتي أهمية الإصلاح الذي يبدأ بالتعليم ورفع الوعي السياسي وتعزيز ثقافة المساءلة.

هناك خطر آخر كبير يهدد سوريا في هذه المرحلة وهو التلاعب السياسي والتآمر. فالكثير من القوى الأجنبية تتعامل مع الأفراد والجماعات كبيادق في لعبة جيوسياسية أكبر مما يتخلون،

مستغلة الانقسامات والمظالم الداخلية القديمة لإضعاف البلاد ... وفي النهاية تتخلى تلك القوى عن حلفائها المزعومين عندما تنتهي مصلحتها معهم.

هذه الدورة من التلاعب تذكرنا بأساليب الاستعمار القديم، حيث كانت القوى الاستعمارية تعتمد على متعاونين محليين عند الحاجة ومن ثم يتخلون عنهم بعد انقضاء مصلحتهم. يعلمنا التاريخ أن الأعداء غالبا ما يحترمون أولئك الذين يعارضونهم ويقاومونهم بصدق ... أكثر بكثير من الخونة الذين يبيعون وطنهم لمصالح شخصية ضيقة. فهؤلاء الذين يختارون التعاون مع الأعداء لا يضرهم فقط بمجتمعاتهم، بل يقوضون أيضا القدرة الجماعية للأمة على المقاومة والتصدي للتدخلات الخارجية.

في المقابل، المجموعات التي تثبت ولائها الحقيقي لوطنها وتشارك بصدق في الحوار الوطني تكسب احترام وثقة جميع السوريين ويصبح ولاؤها أساسا لسوريا موحدة تحترم التنوع وتحثي به بدلا من استخدامه كأداة للصراع أو الانقسام.

في الوقت الراهن، تواجه بعض المكونات السورية لحظة فارقة ومصيرية في تاريخ البلاد ... فالاختيار الذي يتخذونه بين الولاء الوطني والانحياز لقوى أجنبية لن يحدد مستقبلهم فحسب، بل سيشكل أيضا مصير سوريا بأكملها.

في هذا الصدد، قال عبد الرحمن: "هذه اللحظة حاسمة جدا لكل مكون من مكونات الشعب السوري، فكل منهم يقف عند مفترق طرق قد يحدد ليس فقط مستقبلهم، بل مستقبل الوطن بأكمله".

"بالضبط"، قال يوسف. "المكونات المختلفة كانت دائما فخورة بالدفاع عن سوريا ضد التهديدات الخارجية، والآن هو وقت اختبار حقيقي لإثبات هذا الولاء أو التوجه نحو مسارات أخرى! ما تم في الماضي هو جزء من التاريخ، لكن المرحلة الحالية والمستقبل يتطلبان التزاما جديدا وأفعالا حقيقية ... لا مجرد أقوال".

أضاف عبد الحميد بأن "هذه اللحظة تمثل اختبارا حقيقيا لما إذا كانت الولاءات السابقة لبعض المكونات حقيقية أم أنها مجرد قصص تروى. أمامهم مساران واضحان: الأول هو المشاركة البناءة في إعادة بناء سوريا ودعم الوحدة الوطنية ليكونوا جزءا من مستقبل سلمي مزدهر".

وأكد تميم بأن "اختيار هذا المسار يعزز دور هذه المكونات كمدافعين عن الوطن ويؤكد مكانتهم في المجتمع السوري ... الأمر يتطلب مشاركة فاعلة في جهود التعافي والمصالحة الوطنية".

تابع عبد الحميد قائلاً: "أما المسار الآخر فهو أكثر خطورة، وهو الوقوف مع القوى الأجنبية التي تهدد سيادة سوريا وتقوض استقرارها، وهذا الخيار ليس فقط يضر بمستقبل البلاد، بل يثير التساؤلات حول صدق الولاء والوطنية الحقيقية لأولئك الذين يختارونه".

قال عبد الرحمن: " أولئك الذين يتحالفون مع القوى الخارجية يخاطرون بفقدانهم للثقة والارتباط بالمجتمع السوري، وهذا الأمر قد تكون له تداعيات خطيرة وطويلة الأمد على سلامة المجتمع ومكانتهم. وهذه المؤامرات تترك أثرا عميقا، إذ لا يمكن نسيانها أو تجاهلها، فالتاريخ سيحكم على مثل هذه القرارات ولن يكون لهم مكان بين أبناء وطنهم. عندما يختلف أبناء الوطن على بعض

الأمر يجب ألا يكون هذا مسوغاً للعمل مع الأعداء ضد الوطن ... الخلافات والاختلاف يجب أن تعالج داخلياً".

"إن ما يميز الواقع اليوم عن الماضي هو مدى وضوح الأمور وشفافيتها الكاملة"، قال يوسف. "ففي السابق، كان من الممكن إخفاء الولاءات الحقيقية أو إخفاء الأفعال أو نسيانها مع مرور الوقت، لكن ليس في عصر وسائل الإعلام الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي المتقدمة".

"لم يعد بالإمكان التهرب أو التستر"، أضاف عبد الحميد. "فكل حركة وكل فعل يُسجل ويوثق بشكل مستمر من خلال الفيديوهاآت والتقارير والأخبار ... هذا يجعل من الصعب جداً التهرب من المسؤولية أو التستر على الحقيقة".

وأكد تميم على "أهمية حكمة كافة المكونات في اختيار مسارها، موضحاً أن خياراتهم اليوم ستؤثر بشكل كبير على الطريقة التي سينظر إليها أجيال قادمة. فالاختيار الخاطئ لن يؤثر فقط على سمعة هذه المكونات، بل سيطرح أسئلة عن ولائهم للبلد وسيبقى وصمة تؤثر على علاقاتهم بالمجتمع بأسره".

"القضية ليست مجرد سياسة أو حسابات عابرة"، قال ياسر. "إنها تتعلق بالبقاء والكرامة والمستقبل الذي تريده سوريا كأمة موحدة".

"سوريا لا يمكنها أن تتقدم أو تتعافى إلا إذا التزم جميع أبنائها، خاصة أولئك الذين كان لهم دور تاريخي مهم في بناء الوطن"، أكد عبد الرحمن. "وقد حان الوقت لكي يتصرفوا بإخلاص ومسؤولية تجاه مستقبل وطنهم".

"يمكن لأي مكون أن يلعب دورا محوريا في أي انتخابات قادمة"، أضاف يوسف. "لأن أصواتهم ستتمتع بتأثير كبير لأنها قد تكون بمثابة الصوت المرجح في انتخاب القيادات الجديدة ... إن هذه الأصوات قد تعمل على تعديل الكفة لصالح مرشح معين ... وسيكون لها تأثيرا بالغ الأهمية على مستقبل السياسة السورية".

أشار عبد الرحمن إلى قضية أخرى ينبغي أخذها بعين الاعتبار في المستقبل القريب "تتعلق بأهمية تعزيز مكانة جواز السفر السوري والمؤسسات الأكاديمية وغيرها من الرموز الوطنية ... الحكومة يجب أن تبذل قصارى جهدها لتعزيز ذلك ... وأن تطبق مبدأ المعاملة بالمثل مع الدول الأخرى، بحيث يتم التعامل مع المواطنين السوريين بمثل الطريقة التي تعامل بها دول أخرى مواطنيها ... رغم أن الظروف الحالية قد لا تسمح بتطبيق هذه السياسات، إلا أن وضعها على قائمة الأولويات مهم للغاية ... إنه مهم لمستقبل العلاقات الدولية لسوريا ... ومهم أيضا لتعزيز مكانة المواطن والجواز السوري فيما بعد".

إن الوعي والاجتهاد والالتزام الذي يضع المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار، هو الضامن بأن ينجح الشعب السوري في إعادة بناء وطنه من جديد. من المؤكد أن الطريق سيكون مليئا بالتحديات والصعوبات وأحيانا بعض الأخطاء، لكن هذه العقبات ليست مستحيلة أو غير قابلة للحل. من الطبيعي أن تظهر العقبات وكذلك الأخطاء في أي عملية تحول كبيرة، كما أن طبيعة الإنسان المتقلبة تعني أنه من غير الممكن أن يحمل الجميع نفس الشغف والحب لوطنه ... فبينما يحب كثير

من السوريين بلادهم ويكرسون حياتهم من أجل مستقبلها، قد يبقى البعض غير مهتم أو حتى غير مبال بالتقدم والتنمية الوطنية.

تؤكد التجارب التاريخية أنه عندما يتحد غالبية المواطنين لدعم الإصلاح والتنمية، فإن التغيير يصبح أمراً حتمياً ولا مفر منه. فالإصلاح والنهضة يقومان على الإرادة الجماعية والرؤية المشتركة لمستقبل أفضل. ورغم وجود قوى رجعية وأفراد فاسدين يحاولون عرقلة التقدم لأسباب شخصية أو سياسية، إلا أن نفوذهم يتضاءل أمام وحدة وتكاتف أكثرية السكان الذين يطالبون بالخير والصالح العام.

ويكمن السر في بناء ثقافة وطنية تتبنى التغيير الإيجابي وتتجاوز الخلافات وتقاوم كل المحاولات التي تهدف إلى إثارة الانقسامات. وعندما تسود حسن النية والإرادة الحازمة بين أكثرية الناس، يتجلى التقدم بطريقة طبيعية وثابتة. وبالرغم من محاولات البعض لإعاقة المسيرة، فإن القوة الجماعية لشعب سوريا ستدفع البلاد نحو السلام والاستقرار والازدهار الذي طالما حلم به الجميع. ومع مرور الوقت وبعد التغلب على العقبات، كثيراً ما يتذكر الأشخاص أيامهم الماضية رغم صعوباتها على أنها أيام جميلة ... أيام الدراسة الجامعية مثلاً ... تبقى محفورة في الذاكرة. يتذكر فيها الأفراد بكل فخر وشغف الساعات الطويلة والجهد الكبير الذي بذلوه، ولا يذكرونه كعبء، بل ك لحظات حاسمة صنعت جزءاً مهماً من حياتهم. ومع مرور السنين والعقود أيضاً، يواصل البعض السعي وراء أحلامهم وتطلعاتهم بنفس العزيمة والثبات.

"عندما أنظر إلى الوراء"، قال يوسف، "لا أصدق كم قطعنا من طريق منذ أيام دراستنا الجامعية. في الآونة الأخيرة، حصلت على درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة كارابوك التركية. لم يكن الأمر مجرد الحصول على درجة علمية، بل كان تحقيق لحلم قديم عملت له لسنين طويلة".

"التفاني والإصرار هما العامل الأساسي في النجاح"، قال عبد الحميد. "برامج الماجستير كانت صعبة بحد ذاتها وبذلنا جهودا كبيرة لها ... وتلك الجهود مهدت لنا الطريق للوصول إلى هذا المستوى المتقدم والحصول على هذه الدرجة العلمية المرموقة".

"بالتأكيد"، قال محمد. "تلك السنوات الأولى كانت الأساس ... أتذكر كم كنا متحمسين لكل فرصة تعليمية، لكل برنامج ماجستير كان بإمكاننا التقديم إليه. كانت رحلة مليئة بالتحديات، لكننا لم نتوقف عن المحاولة رغم الضغوطات والتحديات ... حققنا الحلم وحصلنا على الدكتوراه".

"النجاح لا يقتصر على المجال الأكاديمي فقط"، أضاف عبد الحميد. "فقد اختار زميلنا إبراهيم مسارا مختلفا لكنه كان مشرفا بنفس الوقت ... لقد أصبح قاضيا نتيجة عمله الجاد والتزامه، وهذا يمثل نوعا مختلفا من النجاح ... خدمة العدالة ودعم القانون".

"هذا صحيح"، قال يوسف. "كل واحد منا وجد طريقه للتميز، سواء في الأدب أو القانون أو أي مجال آخر. لكن ما يجمعنا هو الالتزام بالتطوير المستمر والتغلب على العقبات والمساهمة بشكل فعال في مجالاتنا".

"إنه لأمر رائع"، قال محمد. "لا يكاد يصدق ... كيف تحولت الأحلام التي ولدت في تلك الفترة إلى واقع ملموس ... هذا يدفعنا للاستمرار في السعي نحو الأفضل مهما كانت التحديات".

"كل هذه القصص تثبت أن المثابرة والشغف ستؤدي إلى بلوغ الأهداف"، أضاف يوسف. "قد تبدوا الأهداف بعيدة المنال في البداية ... لكن مع الإصرار والعمل ... لا شيء مستحيل ...".

وفي مساء شتوي بارد، بعد سقوط النظام، جلس يوسف وحمزة وعماد وسعود حول نار في مخيم شتوي وكانت السنة اللهب الدافئة تتمايل أمامهم، محاطين بعدد من الزملاء والأصدقاء. كانوا يستمتعون بذلك الليل الهادئ والدفع الغامر.

جلس الجميع في صمت لوهلة، قبل أن يبدأ الحديث حاملا معه الذكريات القديمة التي طالما وجدت طريقها في أمسياتهم. بدا وكأن كل قصة يروونها تعبر عن جسر يربطهم بذكرياتهم المشتركة، مما جعل تلك اللحظات تحمل في طياتها دفنا وحنينا للأيام الخالية.

بدأ عماد يتحدث، مسترجعا بعض الذكريات والقصص الجميلة التي عاشوها معا ... بعد ما يقرب من ثلاثين عاما على تلك الأوقات، التفت عماد إلى يوسف وسأله بابتسامة، "هل ما زلت تتذكر تعريف الأكويني للنفس؟"

ابتسم يوسف بإعجاب وطمأنينة، وأجاب بثقة، بالطبع إنه: "كمال أول لجسم آلي ذي حياة بالقوة". أضاف يوسف على الفور قائلا: "لكني حتى الآن، لم أستطع فهم هذا التعريف".

ابتسم عماد وقال: "يبدو أن هذا التعريف أصبح جزءا من ذاكرتك ... ولن يمحي أبدا".

"بالتأكيد"، قال يوسف. "لن أنساه ما حييت".

في تلك الأثناء، بدأ حمزة في سرد قصة بطوط، وهي قصة عميقة الجذور... من ذكريات الماضي، مليئة باللحظات الحلوة والمرّة التي عاشوها سوياً في معسكر التدريب الجامعي ... كانت فيه التجارب قاسية لكنها شكلت روابط لا تنتهي.

بعد أن أنهى حمزة سرد القصة، قال يوسف وهو يتأمل، "مذ تخرجنا، كان لدي رغبة عميقة في كتابة رواية عن بطوط، لكنني كنت أتردد باستمرار ... ربما لأن القصة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنظام السوري السابق، ولم أكن أرغب في التعبير عنها بصراحة في ذلك الوقت. أما الآن، ومع سقوط ذلك النظام أشعر أنه قد حان الوقت لسرد القصة بصراحة دونما خوف أو تردد".

رد عماد مبتسماً، "ربما كان ينبغي عليك كتابتها منذ زمن بعيد ... ربما مع بعض التعديلات لتلائم ذلك الزمن".

أجاب يوسف بتأني، "كنت أخشى أن يؤدي تحريف القصة إلى فقدان جاذبيتها، لهذا السبب أجلت الأمر طويلاً".

"كلنا نعرف هذه القصة جيداً"، قال سعود. "لقد تم تكرارها مرات عديدة على مر السنين، لكن بصراحة، نحن جميعاً نأمل ألا نواجه أبداً أفعال مثل تلك التي كانت في قصة بطوط".

أوما حمزة برأسه بالموافقة وقال: "صحيح، على الرغم من أن تلك الذكريات كانت مؤلمة، إلا أنها أصبحت جزءا لا يتجزأ من قصتنا الجماعية ... تذكيرا لكل ما تحملناه من صعاب، ولكن أيضا دليلا على قدرتنا الكبيرة على الصمود والتحدي".

"تماما"، قال يوسف. "والآن يمكننا أن نكتب أو نقص القصة كما هي، لتكشف عمق الظلم الذي مارسه النظام وإهمال قياداته، إلى جانب العديد من القضايا الحرجة الأخرى التي سادت في تلك الحقبة المظلمة".

قصة بطوط، التي باتت اليوم حرة من قيود الرقابة أو الخوف، تقف كسجل حي لتاريخ إخفاقات النظام السابق، وكشف صريح عن الإهمال وإساءة استخدام السلطة التي عانى منها الشعب السوري، مسلطة الضوء على المعاناة التي تعرض لها الكثيرون في ظل حكم استبدادي لا يعرف الرحمة.

خلال لحظات، تحول نظر الجميع وأفكارهم نحو المستقبل ... مستقبل يأملون أن يكون أكثر إشراقا، مليئا بالحرية والفرص الجديدة ... مستقبل تلتزم فيه سوريا بعدم تكرار أخطاء الماضي، حيث يستطيع الشباب السعي وراء أحلامهم وتحقيقها في بيئة تنافسية تحث على الجد والعمل ... دون خوف أو قلق ... في بيئة يمكن فيها التألق لكل مجتهد.

الفهرس

5 الفصل الأول

صيف 1997 – التخرج من الثانوية

25 الفصل الثاني

الشروع بالمسيرة الجامعية – خريف وربيع 1998

45 الفصل الثالث

صيف 1998 – معسكر التدريب الجامعي – الأسبوع الأول

63 الفصل الرابع

صيف 1998 – معسكر التدريب الجامعي – الأسبوع الثاني

83 الفصل الخامس

صيف 1998 – معسكر التدريب الجامعي – الأسبوع الثالث

105 الفصل السادس

إدارة الأزمة في المعسكر

127 الفصل السابع

متابعة الدراسة الجامعية حتى التخرج 1999 – 2002

147 الفصل الثامن

الحياة العملية 2003 – 2007

169 الفصل التاسع

هدوء ما قبل العاصفة 2008 – 2010

191 الفصل العاشر

نسمات الربيع العربي 2011 – 2012

209 الفصل الحادي عشر

إدارة الأزمة وتفعيل النظام البطوطي 2013 – 2014

227 الفصل الثاني عشر

تقسيم البلاد وتدميرها 2015 – 2020

245 الفصل الثالث عشر

سقوط النظام الخاطف 2021 – 2024

267 الفصل الرابع عشر

خارطة طريق ما بعد السقوط – نهاية 2024 وما بعدها

إهداء

لكل سوري وسورية ... داخل البلاد وخارجها

عن الكاتب



يوسف الياس عبد الله كاتب وباحث أكاديمي، حاصل على درجة الدكتوراة في الأدب الإنجليزي من جامعة كارابوك التركية. إضافة إلى دراساته الأكاديمية في الأدب، التحق يوسف ببرنامج للدراسات الإسلامية في "دار القرآن" الكويتية الذي استمر لمدة أربع سنين.

تضم أعمال يوسف كتباً وبحوثاً متنوعة باللغتين العربية والإنجليزية منها كتاب "فكر بمنطق"، و"مقتطفات أدبية وتاريخية"، إضافة إلى عدد من الكتب الأخرى والقصص القصيرة والروايات.

يمكنكم المتابعة من خلال:

الموقع الإلكتروني: yusifelias.com

فيسبوك: <https://facebook.com/yusif.abdullah.589>